التجارة بين ماري ويمحاض في القرن الثامن عشر قبل الميلاد

تعد محفوظات ماري الملكية المصدر الرئيس لتاريخ سورية وبلاد الرافدين في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. فهي تعطينا صورة عن العلاقات السياسية والاقتصادية المتينة التي كانت تربط مدن وممالك بلاد الرافدين وسورية مع بعضها، مثل ماري وبابل وآشور ويمحاض وقطنا وحاصور وجبيل وغيرها. وتكتسب هذه المعلومات أهمية كبيرة جداً بسبب غياب مصادر معاصرة لها، سواء من بلاد الرافدين أو من الممالك السورية القديمة. فحلب التي كانت عاصمة مملكة يمحاض مثلاً، لا يمكن أن تجري فيها أية حفريات أثرية بسبب العمران البشري المستمر والمتواصل منذ العصور القديمة وحتى الوقت الراهن.

نعرف من خلال هذه المحفوظات، أن سورية في القرن الثامن عشر قبل الميلاد كانت مؤلفة من العديد من الممالك القديمة، وأشهرها مملكة يمحاض التي كانت تقوم في الجزء الشمالي منها، ممتدة من سواحل البحر المتوسط في الغرب حتى الفرات في الشرق، ومن جبال طوروس في الشمال حتى حماة وحمص في الجنوب. واشتهر من ملوكها ياريم ليم الأول، الذي يرد ذكره في إحدى رسائل محفوظات ماري كأحد أقوى ملوك بلاد الرافدين وسورية:

"لا يوجد ملك قوي لوحده. عشرة ملوك (أو) خمسة عشر ملك يتبعون حمورابي ملك بابل، ومثلهم ريم سين ملك لارسا، ومثلهم إبال بيل ملك إشنونا، ومثلهم أموت بيل ملك قطنا، (و) عشرون ملك يتبعون ياريم ليم ملك يمحاض"[١].

ووجد زمري ليم آخر ملوك ماري ملجأً لديه بعد أن سقطت ماري بيد شمشي أدد الأول، العاهل الآشوري القوي، ودخل معه فيما بعد في علاقة مصاهرة، وذلك بالزواج من ابنته شيبتو، فمتّن بذلك العلاقات بين مملكته ومملكة يمحاض.

وتظهر هذه العلاقات قوية أيضاً في المجال التجاري، حيث تتحدث نصوص متعددة من محفوظات ماري الملكية عن المنتجات المختلفة التي كانت ترسل من حلب إلى ماري أو العكس.

فالخمر (بالأكادية كرانوم) كان يرسل من يمحاض إلى ماري. فحسب أحد النصوص، أرسل ياريم ليم الأول ملك يمحاض، ضمن ما أرسل، مائة جرة خمر إلى ماري[٢]. وفي نص ممهور بخاتم زمري ليم، سُجلت إرسالية مؤلفة من خمس جرار خمر من حمورابي إلى ملك يمحاض (ابن ياريم ليم الأول) إلى المستودع في ماري[٣].

ويُشار في رسالتين من زمري ليم إلى زوجته شيبتو إلى الخمر الأحمر (كرانوم سَموم) الذي أرسله حمورابي ملك يمحاض إلى ماري[٤]. ويجري الحديث في رسالة من كِبري داجان حاكم ترقا إلى سيده زمري ليم، عن سفن أناس من إيمار كانت تنقل خمراً[٥]. فيذكر كبري داجان أنه، حسب توجيهات سيده، وبمساعدة ساقي أتمروم ملك أنداريق (من المعتقد أنها في شمال بلاد الرافدين)، اختار من حمولة خمر السفن التي من إيمار تسعين جرة خمر وأرسلها مع إحدى السفن إلى أنداريق. أما بقية جرار الخمر فقد أُرجعت، ربما إلى إيمار.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا أُرجعت هذه الجرار، ولم يسمح لها بمتابعة سيرها مع الفرات، وما نوع هذه العملية، هل كانت عملية تجارية بوساطة ملك ماري؟

على أية حال، من المؤكد أن هذا الخمر جاء من شمال سورية، إما من كركميش، أو من يمحادنس. علماً أن الخمر من شمال سورية كان يصل ماري غالباً عن طريق

الفرات. فالخمر من كركميش وما جاورها كان يشحن مباشرة مع الفرات. أما الإرساليات من يمحاض، فكانت تأتي عن طريق إيمار، ميناء الفرات المعروف.

وكانت توجد سفن متخصصة في نقل الخمر وتدعى إلِيبّات كرانيم (eleppat karanim: سفن خمر (بالمفرد إليب كرانيم). وتتراوح حمولتها ما بين مائة جرة للسفن الصغيرة وثلاثمائة جرة للسفن الكبيرة. فإذا قدِّر محتوى الجرة بعشرة قا qa (نحو عشرة ليترات)، فتكون سعة السفينة الصغيرة نحو ألف ليتر، والكبيرة نحو ثلاثة آلاف(٦).

من الجدير بالذكر أن المستهلك الرئيس للخمر في ماري كان القصر الملكي. بالإضافة إلى ما تقدم، توجد عدة نصوص أخرى تتحدث عن سفن كانت تنقل الخمر مع الفرات باتجاه الجنوب(٧). وعلى الرغم من أن بلد المصدر والبلد المرسل إليه غير مذكورين، فيمكن الاعتقاد أن هذا الخمر جاء من شمال سورية، إما من كركميش أو إيمار، ونُقل نحو الجنوب الشرقي، إما إلى ماري أو إلى بلاد بابل.

وهناك نص يذكر أن ١٤٤ جرة خمر، جبيت كمكس في محطة للجمارك عند ترقا. يبدو أن هذه الكمية أخذت كضريبة عن سفن كانت تحمل خمراً وقادمة من شمال سورية أيضاً.

بالنسبة لأسعار الخمر في ماري فالقا qa الواحد (نحو ليتر واحد) كان يكلف نحو ٦/١٠٠ شيقيل فضة. وهذا السعر هو أعلى بعشر مرات من سعر الشعير وأقل تقريباً بمرتين من سعر زيت الزيتون(٨).

ويذكر أحد النصوص أن سعر جرة خمر يساوي نصف شيقيل فضة(٩).

العسل: (بالأكادية ديشبوم)

يظهر العسل من سورية في نصوص ماري مرات متعددة. فياريم ليم الأول ملك **يمحاض** أرسل مرة ضمن ما أرسل عشر جرار عسل إلى ماري(١٠). من الجدير **بالذكر** أن العسل كان يستخدم غذاءً للملوك وفي الوصفات الطبية.

زيت الزيتون: (بالأكادية شَمَن سِرديم)

كانت سورية منتجة كبيرة لزيت الزيتون، ويصدر منها إلى مصر وبلاد الرافدين. وتذكر نصوص ماري إرساليات متعددة منه إلى ماري. ففي إرسالية من ياريم ليم الأول تُذكر ضمن ما تُذكر ١٨ جرة زيت زيتون[١١]. وتُذكر في نص من عهد زمري ليم كمية من زيت الزيتون كإرسالية إلى القصر[١٢]. من المؤكد أن هذا الزيت جاء إما من كركميش أو من يمحاض. وقد جُلب إلى ماري من قبل شخص يدعى kutkutum، يبدو أنه جاء من شمال سورية، وكان على ما يبدو قائدُ قافلة أو تاجر. غير أن إجمالي الكمية التي جلبها معه غير معروفة. ومعروف فقط أنه أعطى أحد موظفي القصر نحو ١٢ هيكتو ليتر (نحو ١٢٠٠ ليتراً)[١٣].

يبرهن هذا النص أن زيت الزيتون كان يُصدر بكميات كبيرة من سورية إلى ماري.

ويوجد نص آخر يشير إلى زيت من مملكة يمحاض، إذ يذكر ٢٧٧ جرة زيت (karpat šamnim) تُبودلت مع ١ Ugar و٧ كور و٣٧ قازيت (نحو ٣٣٣٧ ليتراً)، التي جلبها نورسين من ألا ختتوم[١٤].

إن هذه المبادلة كما هو واضح مبادلة زيت زيتون مع زيت سمسم. وزيت الزيتون منشؤه منطقة حلب. لأن المرسل تورسين كان ممثل زمري ليم ملك ماري في بلاط حلب. والمكان الذي أتي منه الزيت (لاختوم) يتبع مملكة يمحاض. كان زيت الزيتون يستخدم في ماري للتغذية وللمسح ولأغراض طبية.

الأخشاب: (بالأكادية إِصوم)

كانت منطقة الجبال الساحلية ولا تزال غنية بالأنواع المختلفة من الأشجار، التي كانت مرغوبة في مصر وبلاد الرافدين لأغراض البناء المختلفة. فقد مكنت كميات

الأمطار الهاطلة سنوياً بكميات كبيرة في هذه المنطقة من نمو أشجار الأرز والسرو والصنوبر والبلوط والبقس والعرعر وغيرها، بحيث أن جبال هذه المنطقة سُميت نسبة إلى غناها بهذا النوع أو ذاك من تلك الأشجار. فجبال الأمانوس عُرفت "بجبال الأرز" أو "غابة الأرز"، وجبل لبنان عُرف "بجبل السرو"، وعُرف جبل حرمون "بجبل الأرز" أيضاً.

وعلى الرغم من عدم وجود إشارات مباشرة إلى تصدير الأخشاب من يمحاض إلى ماري، فإن قرب هذه الجبال من يمحاض مع وجود إشارات غير مباشرة في نصوص ماري يؤكد قيام مثل هذه التجارة، حيث كانت الأخشاب تُنقل من الجبال المذكورة عبر منطقة يمحاض حتى شواطئ الفرات، ثم تُنقل من هناك مع تيار النهر إلى ماري وإلى بلاد بابل.

ويتحدث يخدون ليم ملك ماري في وثيقة تأسيس معبد شماش، إله الشمس في ماري، عن حملة له وصل فيها إلى شواطئ البحر المتوسط وقطع أشجار الأرز والسرو والبقس والصندل في جبالها العالية: "منذ الأيام الغابرة عندما بنى الإله ماري، ما من ملك مقيم في ماري وصل البحر وفتح جبال الأرز والبقس، الجبال العالية وقطع أخشابها. يخدون ـ ليم بن يجبد ـ ليم الملك القوي، الثور البري (بين) الملوك ذهب ببراعة وقوة إلى شاطئ البحر، لـ (إله) المحيط ضحى ضحاياه الملكية الكبيرة، وجنوده في وسط المحيط استحموا. في جبال الأرز والبقس، والجبال العالية دخل هو، البقس والأرز والسرو والصندل، هذه الأشجار هو قطعها"[١٦].

وقبله قام جوديا أمير لاجاش (٢١٤٣-٢١٢٤ ق.م) بالحصول على الأخشاب من جبال الأمانوس[١٧]. يستنتج من كل ما تقدم وجود تجارة مزدهرة للأخشاب من يمحاض إلى ماري.

القصدير: (بالأكادية أناكوم anákum)

احتاج المرء القصدير في الشرق القديم لإنتاج البرونز، وذلك بخلطه مع النحاس. وقد ازدادت الحاجة إليه بشكل كبير في العصر البرونزي الوسيط كما تدل على ذلك الوثائق المختلفة. فالنصوص الآشورية القديمة من المستوطنة الآشورية كاروم كانيش في الأناضول تبين أن القصدير لعب دوراً هاماً في التجارة بين بلاد آشور والأناضول في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. فقد كان ينقل بكميات كبيرة من آشور إلى كاروم كانيش بوساطة قوافل من الحمير تعبر الجبال والوديان والسهول لتصل إلى وجهتها.

أما عن الموطن الأصلي للقصدير فهناك آراء مختلفة، غير أن أرجحها القائل إن منطقة شمال غربي إيران هي الموطن الأصلي له[١٨].

تشهد نصوص أرشيف ماري على قيام تجارة منظمة للقصدير بين ماري والمدن السورية المختلفة، في النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد. كانت ماري تحصل على القصدير بانتظام من الشرق عن طريق بري يمر عبر آشور[١٩]. وكانت تسد حاجتها من ذلك ثم تعيد تصدير الباقي باتجاه الغرب[٢٠]. وتشهد على هذا التصدير العديد من النصوص من عهد زمري ليم.

بالنسبة للتصدير إلى يمحاض يذكر أحد النصوص[٢١] مايلي:

السطر ١١: خمسون مينة قصدير (نحو ٢٥ كغ) إلى ياريم ليم.

السطر ١٣: خمس مينات إلى أبي أدّو Abi-Addu.

السطر ١٤: خمس مينات إلى يبخور أدو Iaphur–Addu .

السطر ١٥: رجلين من يمحاض.

هذان الرجلان من يمحاض كانا إما تاجرين أو عاملين بالمعادن من حلب[٢٢].

ويذكر نص ثانٍ[٢٣]:

السطران ١ و٢: خمسون مينة قصدير إلى ياريم ليم.

ويشير نص ثالث[٢٤] إلى كمية من القصدير (١ تالنت و٢/٣ ٥٣ مينة، أي نحو ٥٦ كغ) يجب أن ترسل إلى يمحاض وقطنا.

ويذكر نص رابع[٢٥]:

الأسطر ٣َ ــ ٤َ: ١٩ مينة و٣ شيقيل قصدير إلى ياريم ليم.

السطر ٩َ: ٣ سبائك قصدير إلى ياريم ليم.

ونقرأ في نص خامس مايلي[٢٦]:

السطر ٧َ: ١٩ مينة و٢ شيقيل قصدير إلى ياريم ليم.

السطر ١١َ: قصدير إلى ياريم ليم.

من الجدير بالذكر أن ياريم المذكور في هذه النصوص هو ياريم ليم الأول ملك يمحاض، الذي كان بحاجة إلى القصدير أكثر من غيره لسد حاجات قصره وجيشه.

وهناك نص سادس[٢٧] يتحدث عن عدة إرساليات من القصدير من ماري إلى يمحاض، إلى الملك وإلى زوجته وأولاده وإلى أشخاص آخرين من حلب:

الأسطر ٣ ــ ٤: ١ تالنت قصدير من حمورابي البابلي إلى حلب.

الأسطر ١١ــ ١٢: ٩ تالنت و٢٧ مينة و٨ شيقيل قصدير إلى ياريم ليم.

السطر ١٣: ١,٥ تالنت و٧ شيقيل قصدير إلى السيدة جاشيرا (زوجة ياريم ليم الأول).

السطر ١٤: ٣٠ مينة قصدير إلى حمورابي (ابن ياريم ليم).

السطر ١٠: ٢/٣ ١١ مينة قصدير إلى سمسي أدو Samsi - adu.

السطر ١٥: ٢/٣ ١٦ مينة قصدير إلى طاب بَلاطِي Tab- baláti.

السطر ١٦: ٨ مينة قصدير إلى سين أبو شو في حلب (ćhalab).

من الواضح أن الأسماء الأولى هي أسماء أشخاص من العائلة المالكة.

أما الأسماء الثلاثة الأخيرة فهي أسماء أشخاص ربما كان لها ارتباط ما مع العائلة المالكة، أو ربما أسماء موظفين أو تجار.

ويذكر نفس النص إرسال كمية من القصدير إلى مدينة تدعى دور سومو إبوخ:

الأسطر ٣٧-٣٨: ٢ تالنت قصدير... في Dur - sumuepuh.

هذه المدينة كانت تقع بلا شك في منطقة يمحاض وسميت بهذا الاسم (مدينة سومو إبوخ) نسبة إلى سومو إبوخ أول حاكم معروف حتى الآن من يمحاض، ويرد ذكره في نصوص ماري[٢٨].

ويذكر نص سابع مايلي[٢٩]:

الأسطر ١٥-١٦" ٥٠ مينة قصدير إلى ياريم ليم.

السطر ١٧: ١٠ مينة قصدير إلى جاشيرا (زوجته).

بتبين لنا من النصوص المذكورة سابقاً، أن القصدير كان يصدر بانتظام من ماري إلى يمحاض.

ولم يتوقف استيراد المدن السورية، وبينها حلب، للقصدير بعد تدمير ماري على يد حمورابي البابلي عام ١٧٥٩ ق.م. فهناك رسالة بابلية[٣٠] قديمة من عهده، تبرهن أن القصدير كان يُرسل من بابل إلى إيمار وحلب عن طريق الفرات، نقرأ في الرسالة مايلي:

إلى سيدي: هكذا (يقول) شماش رابي: كما يعرف سيدي نوجد في خدمة مدينة باصو منذ أن وُضعت طوبة مدينة باصو من قبل حمورابي. (مايخص) السفن الصاعدة والنازلة مع التيار، فإننا ندع بعد تفتيش (السفن)، التاجر الذي يحمل لوح الملك (معه) يمر، (ولكن) التاجر الذي لا يحمل (معه) لوح الملك، نعيده إلى بابل. (ولكن) الآن منذ أن أُسس بيت أنا توم وريش شماش في بابل يدع المرء كل (التجار) من إيمار وحلب يمرون عبري، ولكن لا أستطيع أن أفتش السفينة لديهم. الآن من أجل العشرة كور شعير التي أعادها سيدي إليَّ ــ لأجل هذا الشعير ــ جئت إلى سيبار، ومار شماش الذي يقوم بعملي، كتب إليَّ مايلي: "عندما ريش شماش والناس الذين (كانوا) معه، لا أعرفهم رسوا بسفينتهم عندي، نزلت إلى السفينة وأعلمت العشرة تالنت قصدير (التي) كانت معهمْ (في السفينة) (سلطات المدينة)، وفضلاً عن ذلك أيضاً كيس جلدي مع أحجار (كريمة). كي لا يُلقى عليَّ أي لوم كتبت إليك بذلك كي تسمع". هذا ما كتبَه إليَّ. بهذا أُرسل رسالتي إلى سيدي. أرجو أن يأخذ سيدي قراراً بذلك ويبعث لي خبراً.

يتضح من هذه الرسالة أن تجاراً من إيمار وحلب أسسوا وكالة تجارية لهم في بابل لتأمين مصالحهم التجارية ومن بينها استيراد القصدير.

وقد لعب نهر الفرات دوراً هاماً في عملية التبادل التجاري والمواصلات بين ماري ويمحاض بشكل خاص. فالبضائع والمنتجات كانت تُنقل عبره في سفن متخصصة بذلك. فنصوص ماري تذكر سفناً متخصصة في نقل الخمر كما ذكرنا سابقاً، وأخرى متخصصة في نقل الحبوب وثالثة متخصصة في نقل القار، ورابعة متخصصة في نقل أحجار الجواريش.

وكان لإيمار (مسكنة حالياً) التابعة لمملكة يمحاض دورٌ هامٌ في التجارة والمواصلات بين ماري وبلاد بابل بشكل عام من جهة، ويمحاض وشمال سورية

بشكل عام من جهة أخرى، وذلك كمحطة تجارية وميناء هام يقصده التجـــار وتؤمــه السفن الذاهبة إلى ماري وبلاد بابل.

ويظهر تجار من إيمار في نصوص ماري[٣٢].

وكانت إيمار أيضاً عقدة مواصلات برية هامة حيث يمر عبرها الطريـــق الـــبري القادم من بلاد بابل وماري كركميش ووادي البليخ، والطريق الذاهب جنوب غرب إلى قطنا[٣٣].

من الجدير بالذكر أن إيمار كانت مدينة هامة في الألف الثالث قبــــل الميــلاد، إذ يرد ذكرها مراراً في نصوص إيبلا.

أخيراً تجدر الإشارة إلى أن التجارة بين ماري ويمحاض كـــانت تجــارة ملكيـــة. فالملوك هم الذين يرسلون أو يتلقون البضائع والمنتجات المختلفة، كمـــا يظـــهر مـــن النصوص. أما العمليات التجارية فيقوم بها التجار المتخصصون، ولكن بتكليف مـــن ملوكهم[٣٤].

الهوامش

* أُلقي هذا البحث في الندوة العالمية عن حلب وطريق الحرير التي نظمتها المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية، حلب ١٩٩٤.

1- Dossin, G., **Les Archives épistolaires du palais de Mari,** in: Syria 19 (1938), P. 117.

2- **ARM** VII 238: 14.

3- **ARM** IX 33: 1.

4- **ARM** X 131, 132.

5- **ARM** VIII 126.

6- Mair, A., **Der Handel zwishcen Syrian und Babylonien im 18.** Jh. V. Chr. Würzburg 1985, S. 81.

7- **ARM** XIII 65, 69, 74, 83, 85, 99.

8- Finet, A., **Le Vin á Mari,** in: AFO 25 (1974-77), P. 131.

9- **ARM** XXI 210: 5-9.

10-**ARM** VII 238: 15.

11-**ARM** VII 238: 16.

12-**ARM** IX 6.

13-**ARMT** IX {34, Sasson, J. M., **AShetch of north syrian economic relations in the middle Bronze Age,** in: JESHO 9 (1966), P. 172.

14-**ARM** IX 9.

15-Mari, A., **Op. Cit.,** s. 69 ff.

١٦- مرعي، عيد، **يخدون ــ ليم ملك ماري، وثيقة تأسيس معبد إله الشمس (شماش) في ماري**، مجلة دراسات تاريخية، ٢٧-٢٨، ١٩٨٧، ص١٠٣.

17-Falkenstein, A., **Die Inschriften Gudeas von Lagaš, Einleitung,** Rom 1966, s. 46 ff.

18-Mari, A., **Op. Cit.,** s. 96.

19-Leemans, W.F., **Old Babylonian letters and economic history,** in: JESHO 11 (1968), P. 207.

20-Bottéro, **ARMT** VII {115, 117.

21-**ARM** VII 86.

22-Bottéro, **Op. Cit**., {177.

23-**ARM** VII 87.

24-**ARM** VII 88: 1-6.

25-**ARM** VII 233.

26-**ARM** VII 236.

27-Dossin, G., **La route de L'Étain en Mésopotamie au temps de Zimrilim,** in: RA 64 (1970), P. 77 ff., Text A. 1270.

٢٨- يرد أقدم ذكر لسومو إبوخ في وثيقة تأسيس معبد شماش إله الشمس في ماري، انظر مقالنا: يخدون ــ ليم ملك ماري، ص١٠٤.

29-Dossin, G., **Une Opposition familiale**, in: Voix de L'Opposition en Mésopotamie, Bruxelles 1973, P. 179, Text A. 3412.

30-Frandena, R., **Briefe aus dem Britisch Museum**, Leiden 1966, Brief Nr. 84.

31-Mari, A., **Op. Cit**., s. 131 ff.

32-**İbid**., s. 42.

33-**İbid**., s. 153.

34-**İbid**., s. 36, ff.

قائمة المراجع المختصرة:

1- **ARM** = Archives Royales de Mari.
2- **JESHO**= Journal of Economic and Social History of the Orient.
3- **RA** = Revue d Assyriologie et d' Archéologie Orientale.
4- **AFO**= Archive für orientforschung.

الحلف المكابي - الروماني

فصل من تاريخ فلسطين في العصر الهلنستي

الدكتور محمد الزين

جامعة دمشق - قسم التاريخ



الحلف المكابي الروماني

فصل من تاريخ فلسطين في العصر الهلنستي

مخطط البحث:

- مقدمة
- أولاً: سياسة روما تجاه السلوقيين
- ثانياً: يهوذا المكابي وسعيه للتحالف مع روما
- ثالثاً: معاهدة التحالف وحقيقتها التاريخية
  - أ – نص المعاهدة
  - ب – المعاهدة من الناحية القانونية
  - جـ – المعاهدة والنقد التاريخي
  - د – تحليل وثيقة المعاهدة وخصائصها
- رابعاً: توثيق التحالف في المصادر التاريخية
- خامساً: تاريخ المعاهدة
- خاتمة
- ملحق بمصادر البحث ووثيقة التحالف
- الحواشي
- أهم المصادر والمراجع والمختصرات

مقدمة:

يهدف هذا البحث إلى إلقاء الأضواء على فترة مهمة من تاريخ سورية في العصور الكلاسيكية، حينما نجح المكابيون في إقامة كيان يهودي على جزء من أرض فلسطين عرف باسم الدولة المكابية[١] أو الحشمونية[٢]، وذلك باستغلال عوامل الضعف والانقسام والصراعات التي مزّقت البيت المالك السلوقي بعد موت أنطيوخوس الرابع أبيفانيس وأوهنت المملكة السلوقية من جهة، وبالاستفادة من جهة أخرى من الدعم السياسي والمعنوي لقوة عظمى تمثلت آنذاك في الامبراطورية الرومانية، التي بدأت ومنذ أوائل القرن الثاني قبل الميلاد تهيمن على مقدرات عالم البحر المتوسط وتبسط سيطرتها شيئاً فشيئاً، ولكن في غاية العزم والتصميم على ممالكه ودوله الواحدة تلو الأخرى.

ويدور البحث في المقام الأول حول موضوع طال النقاش خوله في الأبحاث التاريخية، ألا وهو تلك المعاهدة، التي عقدها يهوذا المكابي مع مجلس الشيوخ الروماني، بمختلف جوانبها التاريخية والسياسية والقانونية والتي أسست لتحالف بعيد المدى قام بين الطرفين بهدف إضعاف المملكة السلوقية والتعجيل بانحلالها وسقوطها.

وقد ورد نص هذه المعاهدة في سفر المكابيين الأول الذي دّون في العصر الهلنستي كما أن المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس، الذي عاش في عهد السيطرة الرومانية، نقله لنا بصيغة معدلة في كتابه الموسوم (التاريخ اليهودي القديم)، وجاءت كلتا الروايتين باللغة الإغريقية، وهي اللغة الدولية التي سادت المنطقة في العصور الكلاسيكية: الهلنستية والرومانية.

ولكن قبل البدء بدراسة المعاهدة والخوض في مسألة صحة الوثيقة التي وصلتنا عنها ومدى حقيقتها التاريخية: لا بد من التعرف أولاً على طبيعة السياسة الرومانية تجاه السلوقيين في تلك المرحلة، لأنها تشكل الخلفية التاريخية التي جعلت إقامة

التحالف ممكناً من الجانب الروماني. كما ينبغي التعرف أيضاً على الظروف والأسباب التي دفعت يهوذا المكابي وأتباعه إلى السعي لكسب صداقة روما والتحالف معها، على أمل أن تقدم لهم الدعم والحماية من أعدائهم السلوقيين.

أولاً: سياسة روما تجاه السلوقيين:

منذ أن ظهرت روما على الساحة السياسية في الشرق الهلنستي وهي تحاول إخضاعه لسيطرتها بشتى الأساليب والوسائل التي تقربها من ذلك الهدف، وعلى رأسها سياسة "فرق تسد" (divide et impera) بين الدول الهلنستية لمنعها من تشكيل جبهة موحدة قوية ضدها. كما لجأت أيضاً إلى تشجيع الصراعات والتناقضات فيما بينها وإلى دعم مختلف حركات التمرد والانفصال في تلك الممالك، بهدف إضعافها وجعلها لقمة سائغة أمام الأطماع الرومانية. وقد اتبعت هذه السياسة حيال السلوقيين وخاصة منذ انتصارها على أنطيوخوس الثالث (الكبير) وفرضها (صلح أفامية) عام ١٨٨ق.م، الذي كبل المملكة السلوقية بقيود التبعية لروما وجعلها تحت رحمتها من الناحية السياسية والعسكرية.

ولكن الامبراطورية السلوقية شهدت في عهد أنطيوخوس الرابع أبيفانيس Antiochos IV Epiphanes (١٧٥-١٦٣ق.م)نهضة قوية في شتى المجالات تجلت في حروبه الظافرة مع البطالمة، وفي الاحتفالات الكبيرة التي أقامها في دفنة Daphne، ضاحية أنطاكية الشهيرة، عام ١٦٦ق.م بمناسبة انتصاراته على البطالمة في الحرب السورية السادسة، والتي أظهرت قوة المملكة واستعادتها بعضاً من أمجادها وعظمتها السابقة. وهذا ما دفع الرومان إلى انتهاج سياسة "معتدلة" تجاه السلوقيين، بحيث أن روما لم تجد (أو بالأحرى لم تختلق) سبباً للتدخل علانية في شؤونهم الداخلية، مع أن الوفود ولجان التحقيق الرومانية كانت ترسل إلى أنطاكية لأوهى الأسباب.

ولذلك فقد تلقى مجلس الشيوخ الروماني نبأ موت أنطيوخوس الرابع، الذي قضى في ربيع عام ١٦٣ ق.م أثناء حملته ضد الفرثيين، "بسرور وارتياح كبيرين": كما يذكر المؤرخ أبيانوس(٣)، إذ كان ينظر إليه –على ما يبدو– بوصفه"ملكاً يصعب قياده على الرغم من تبعيته". كما أن ابنه (أنطيوخوس الخامس) الذي خلفه على العرش السلوقي كان لا يزال فتى في الثامنة من عمره، وبالتالي يسهل قياده، عدا عن أنه لم يكن الوريث المعترف له بالتاج بلا منازع. فها هو الأمير دمتريوس Demetrios، الذي كان يعيش رهينة في روما بموجب معاهدة أفامية، يتقدم إلى مجلس الشيوخ مطالباً بعرش أبيه سلوقس الرابع (١٨٧–١٧٥ق.م) والذي كان عمه أنطيوخوس الرابع قد استولى عليه. ولكن السناتوس رفض مطلبه العادل كما يقول المؤرخ بوليبيوس، الذي كان هو أيضاً يعيش آنذاك رهينة في روما، لأنه، أي السناتوس "كان يرتاب في عزيمة دمتريوس ويخشى طموحه ، ولقناعته أن خليفة أنطيوخوس الرابع ووريثه الذي لا حول له ولا قوة بسبب حداثة سنه، سيكون أداة طيعة لخدمة المصالح الرومانية"(٤).

وهكذا فقد أرسل مجلس الشيوخ وفداً برئاسة ك. أوكتافيوس (Cn. Octavius) من أجل "ترتيب" الأوضاع في المملكة السلوقية وفق الرغبات الرومانية. وفور وصوله إلى سورية في مطلع عام ١٦٢ق.م، شرع أوكتافيوس بتنفيذ المهمة التي جاء من أجلها بمنتهى القسوة والشدة. فقام بقتل الفيلة الحربية، أعظم أسلحة الجيش السلوقي، وبإحراق السفن الحربية في مدينة اللاذقية، كما طالب بتسريح قسم كبير من الجيش بحجة أن سياسة السلوقيين العسكرية خرقت بنود معاهدة أفامية. ومن الغريب أن الرومان ومجلس شيوخهم لم يوجهوا مثل هذا الاتهام إلى الملك أنطيوخوس الرابع صاحب تلك السياسة، عندما شارك وفدهم في احتفالات دفنه الآنفة الذكر وحضر العرض العسكري الكبير الذي أظهر قوة الجيش السلوقي بكل جلاء. ولكن من الواضح أنهم أرادوا استغلال الأوضاع الحرجة التي تمر بها المملكة آنذاك،

لاخضاعها بصورة أكبر وأشد إذلالاً للنفوذ الروماني. لقد كان هذا في الواقع هو السبب الحقيقي وراء مهمة أوكتافيوس وإجراءاته ضد السلوقيين(٥).

وتذكر الروايات التاريخية أكثر من سفارة أرسلت إلى سورية لتفقد أحوالها. وقد حاولت إحداها التوسط بين اليهود والسلوقيين في أثناء مباحثات السلام التي جرت بين لوسياس، الوصي على العرش ويهوذا المكابي. وقد حفظ لنا سفر المكابيين الثاني نص الرسالة الموجهة إلى اليهود من قبل الوفد الروماني والتي تقول(٦): "من كونيتوس مميوس وطيطس مانليوس، رسولي الرومان إلى شعب اليهود سلام:

ما سمح لكم به لوسياس، مستشار الملك، ومنحكم إياه أيضاً وما استحسن أن يرفع إلى الملك، أنظروا فيه وبادروا إلى إرسال واحد منكم لنعرضه على الملك بما يوافقكم، لأننا ذاهبون إلى أنطاكية فعجلوا في إرسال من ترسلون، لنكون على علم بما تبتغون والسلام. في السنة المئة والثامنة والأربعين في الخامس عشر من شهر كسنتكس"(٧) فإذا صحت هذه الرواية، وهو ما يذهب إليه معظم الباحثين، فإنها تشكل دليلاً على أول تدخل روماني في الصراع اليهودي السلوقي، وبالتالي فإنها تعد إثباتاً آخر على تدخل الرومان المتزايد في الشؤون الداخلية للمملكة السلوقية وكيف أنهم أرادوا استغلال تلك المناسبة لإظهار نفوذهم وحضورهم السياسي، وليكون لهم تأثير حاسم على مجرى التطورات اللاحقة، وليس من قبيل الدفاع عن اليهود ومصالحهم، كما يدعون.

ومما يدل على صحة هذه الرسالة أيضاً، هو أن الرومان بوصفهم حماة البطالمة، كانوا على علم بالأوضاع في فلسطين وكيف أنها كانت مجال صراع بينهم وبين السلوقيين، ويسعون للتأثير على المسيرة السياسية في هذه المنطقة لصالحهم. لقد سبق وتدخلت روما قبل ذلك في الصراع السلوقي البطلمي أثناء الحرب السورية السادسة في حادثة الاسكندرية المشهورة، عندما أرغم المندوب الروماني بوبيليوس لايناس

C.Popilius Laenas في عام ١٦٨ ق.م الملك أنطيوخوس الرابع على الانسحاب من مصر ومنعه بذلك من قطف ثمار انتصاراته الحربية والهيمنة على المملكة البطلمية(٨).

وهكذا أنقذت روما دولة البطالمة من السقوط ليس من منطلق الدفاع عن دولة حليفة لها، وإنما للحيلولة دون وقوعها تحت السيطرة السلوقية وبالتالي لمنع قيام قوة كبيرة في الشرق يمكن أن تقف سداً أمام المطامع الرومانية(٩).

ويظهر الموقف المخادع لمجلس الشيوخ في إثر حادثة مقتل المندوب الروماني أوكتافيوس، الذي أثار سلوكه المتعجرف في مدينة اللاذقية مشاعر الغضب والاستنكار. فقام أحد أبنائها ويدعى لبتنيس Leptines باغتياله في ملعب المدينة وسط تهليل الجماهير، ولم يجرؤ الوصي لوسياس على إلقاء القبض على القاتل بسبب النقمة الشعبية العارمة على سياسة الإذلال الرومانية، ولكنه بادر إلى دفن أوكتافيوس في احتفال لائق وأرسل وفداً إلى روما ليعلن براءته مما حدث. غيران مجلس الشيوخ لم يكلف نفسه عناء الرد على تلك الرسالة، تاركاً الأمور معلقة. فقد كانت تلك الحالة- كما يقول المؤرخ بوليبيوس- "مناسبة تماماً للمجلس، لأنها تتيح له التدخل واتخاذ الإجراء المناسب في أي وقت يشاء"(١٠).

وفي خلال ذلك كان دمتريوس قد نجح بمساعدة بعض الأصدقاء وعلى رأسهم المؤرخ بوليبيوس في الفرار من روما وفي تسلم زمام الأمور في أنطاكية والجلوس على عرش أبيه في خريف عام ١٦٢ ق.م. وفي سبيل الحصول على تأييد الرومان واعترافهم بسيادته، أمر بإلقاء القبض على القاتل لبتنيس ومحرضه أيسوقراط وسوقهما إلى روما للقصاص منهما وتسوية المسألة. فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن تسلم بسرور كبير هدية الملك المؤلفة من تاج ذهبي ثمين ولكنه رفض استلام قاتل أوكتافيوس ومحرضه وأعادهما إلى دمتريوس ثانية مع رسالة مبهمة تقول:"إن

دمتريوس سيحظى بصداقة الشعب الروماني، إذا ما تصرف بصورة ترضي مجلس الشيوخ"(١١).

وهكذا يبدو الوجه الحقيقي للسناتوس من جديد، والذي كان يسعى وبكل الوسائل المعلنة والخفية إلى تحقيق مطامعه في السيطرة والهيمنة ويعمل بكل عزم وتصميم على إثارة الفوضى في "المملكة التعيسة المنكوبة" وذلك من خلال تقديمه الدعم المعنوي والسياسي للثائرين والمتمردين عليها من أي نوع بعقد الاتفاقيات والمعاهدات معهم، من دون أن يأبه بحرمة المعاهدات المعقودة أو الحقوق الشرعية(١٢).

ثانياً: يهوذا المكابي وسعيه للتحالف مع روما:

كان يهوذا المكابي أحد أولئك الثائرين على الحكم السلوقي وعلى سياسة الهلينة التي بدأها أنطيوخوس الرابع في عام ١٦٨/١٦٧ ق.م على نطاق واسع، بتشجيع من الطبقات العليا اليهودية وعلى رأسها كبير الكهنة منيلاوس (Menelaos)، والتي كانت تدعو إلى الأخذ بمظاهر الحياة الهلينية. وعلى النقيض من ذلك فإن الفئات اليهودية الشعبية والريفية المحافظة، التي كانت تنقم على الطبقة العليا المتهلنية استغلالها وتعاونها مع السلطات الحاكمة، تمسكت بديانتها وتقاليدها المتوارثة وقاومت محاولات السلطات السلوقية فرض العبادات والعادات الوثنية الهلينية بالقوة. وقد تزعمها كاهن طاعن في السن من بلدة مودئين (القريبة من اللد) يدعى متاتيا من بني حشمناي.

ثم تولى ابنه من بعده المدعو يهوذا عام ١٦٦ ق.م زعامة تلك الحركة، وخاض حرب عصابات أصاب فيها بعض النجاح بسبب غياب الملك أنطيوخوس الرابع مع معظم جيوشه في شرقي المملكة لمحاربة الفرثيين.

وتمكن يهوذا وأتباعه من دخول أورشليم في كانون الأول عام ١٦٤ ق.م ـ ما عدا قلعتها التي اعتصمت بها الحامية السلوقية واليهود المتهلينون ـ فأزال مظاهر العبادة الوثنية وأعاد شعائر الديانة اليهودية بعد ثلاث سنوات من بدء حملة الاضطهاد.

ولكن في ربيع العام التالي توفي أنطيوخوس الرابع وخلفه ابنه الصغير أنطيوخوس الخامس تحت وصاية وزيره لوسياس. وأرسل السلوقيون قوة كبيرة استولت على مناطق كثيرة وأرغمت الثائرين على الالتجاء إلى أورشليم وحاصرتهم هناك حصاراً شديداً وكاد ينتهي أمرهم لو لم يحتدم الصراع على السلطة ووصاية العرش وهذا مادفع لوسياس ومليكه الطفل إلى أن يعرضا السلام على المحاصرين والسماح لليهود بممارسة طقوسهم المتوارثة، والتي كان منعها السبب المباشر في اندلاع الثورة على الحكم السلوقي. وهكذا بدا وكأن الثورة على الاضطهاد الديني قد حققت أهدافها. وتم تعيين الكيموس من أسرة كهنوتية عريقة في منصب الكاهن الأكبر والذي دعا يهوذا وأتباعه للسلام ونبذ القتال.

ولكن الإنقاذ جاء مجدداً، عندما نشب صراع على العرش السلوقي بين أنطيوخوس الخامس وابن عمه دمتريوس، الذي خرج منه منتصراً.

وعندما أرسل الملك الجديد قائده نيكانور Nikanor على رأس قوة كبيرة للقضاء على الثائرين لقي هذا مصرعه وهزم جيشه، وأحرز يهوذا في ١٣ آذار عام ١٦١ق.م انتصاراً كبيراً رسخ زعامته بين بني قومه. واتجهت أفكاره ومشاريعه في المقام الأول إلى النواحي العسكرية والسياسية. لقد كان يدرك صعوبة وحرج موقفه على الصعيد العسكري وأنه لا قبل له بمجابهة الجيوش السلوقية إذا ماحزمت أمرها وقررت التصدي له بكل قوتها. كما وأنه بدأت تراوده فكرة التخلص من الحكم السلوقي وإنشاء دولة يهودية مستقلة. وبدا يتطلع إلى حلفاء يشدون من أزره ويكونون له عوناً من أجل تحقيق تلك الأهداف(١٣).

وكان من الواضح بالنسبة له أن البطالمة، جيرانه الأقربين، كانوا آنذاك عاجزين عن نصرته على السلوقيين، هذا عدا عن أنهم كانوا يسعون إلى استعادة سيادتهم على فلسطين وجنوب سورية من جديد.

لذلك قرر أن يتوجه إلى القوة العظمى المهيمنية في ذلك العصر على عالم البحر المتوسط، ألا وهي الرومان، الذين كان هو وأنصاره يكنون لهم أعظم التقدير، كما يظهر جلياً من الوصف المستفيض لأعمالهم وبطولاتهم الوارد في الاصحاح الثامن من سفر المكابيين الأول: "وسمع يهوذا باسم الرومانيين أنهم رجال ذوو بأس ويعطفون على كل من ينضم إليهم، وكل من جاءهم صادقوه. وقصت عليه حروبهم وماقاموا به من مآثر...من أرادوا مؤازرته وتمليكه ملكوه، ومن أرادوا خلعه خلعوه..."

وهكذا أرسل يهوذا وفداً إلى روما راجياً عقد صداقة تتحالف مع الرومانيين على أمل أن يساعدوه في التخلص من نير الحكم السلوقي:

τοῦ ἆραι τὸν ζυγὸν ἀπ αὐτῶν

وقد ترأس ذلك الوفد اثنان من أنصاره وهما: إيبوليموس بن يوحنا وياسون بن العازر، وكلاهما ينتميان إلى أسرتين كهنوتيتين عريقتين، على الرغم من أنهما يحملان اسمين إغريقيين. وهذا يظهر مدى تغلغل التأثير الهيليني في أوساط الطبقة العليا اليهودية. ومن المؤكد أن ذينك السفيرين، اللذين كانا يجيدان اللغة الإغريقية، قد أشادا بانتصارات زعيمهم على السلوقيين، كما أثنيا على جهود الوفد الروماني، الذي سبقت الإشارة إليه[١٤]، ودوره في المباحثات مع وصي العرش السلوقي لوسياس، والتي أدت إلى إيقاف الاضطهاد والسماح بحرية ممارسة العبادة اليهودية وأخيراً خلصا إلى القول:

"أننا مرسلان إليكم من قبل يهوذا المكابي وأخوته وجمهور اليهود لنعقد معكم عهد تحالف وسلام، ولتجعلونا في عداد حلفائكم وأصدقائكم."

συμμαχίαν καὶ εἰρήνην

وقد وجدا آذاناً صاغية لدى مجلس الشيوخ الروماني، الذي رحب بهم وأظهر تعاطفه مع قضيتهم ومساعيهم. ولا غرابة في هذا الموقف أبداً. فقد كان الرومان على أتم الاستعداد دائماً لدعم أية محاولة انفصالية وخروج على السلطة المركزية لأنها ستؤدي في نهاية الأمر بالمملكة السلوقية إلى مزيد من التفكك والانحلال، وبالتالي إلى إحكام القبضة الرومانية عليها. كما أن المجلس رأى في مسعى الوفد اليهودي فرصته للانتقام من الملك دمتريوس، الذي خرج على الإرادة الرومانية وتقلد التاج السلوقي بدون موافقة روما ومباركتها. هذا عدا عن أن دمتريوس كان قد تخلص من ابن عمه الملك الطفل أنطيوخوس الخامس، الذي سبق لمجلس الشيوخ أن منحه دعمه ورعايته ليتخذ منه وسيلة سهلة لتحقيق مآربه، "لأن ضعفه يمكن أن يعود بأكبر الفوائد" على الرومان. ويؤكد ذلك كتاب السناتوس إلى دمتريوس، الذي يرد في آخر وثيقة التحالف مباشرة وفيه يلوم الرومان الملك السلوقي لأنه وضع النير على رقاب "أصدقائهم وحلفائهم اليهود":

...το'υς φι'Λους η'μϖν του`ς συμμα'χους 'Ιουδι'ους

كما يهددونه بالحرب بحراً وبراً في حال ورود شكوى يهودية جديدة ضده(١٥).

يضاف إلى كل ذلك أن استجابة المجلس لرغبات يهوذا وأتباعه لن تكلف روما شيئاً سوى إعطاء اليهود وعوداً جوفاء، لأنه لم يكن في نيته أن يمنحهم أكثر من مجرد كلمات لا غير.

وخير شاهد يصور السياسة الرومانية في تلك المرحلة ماورد على لسان المؤرخ جوستين، الذي يدين بصراحة تلك السياسة التي تتكرم على حساب الآخرين، حيث يقول(*):

(*) ألا يذكرنا هذا الأمر بوعد بلفور لاحقاً: انكلترة التي لا تملك تتبرع لطرف ثانٍ (الصهاينة) بأملاك طرف ثالث (الفسطينيين الغرب) أصحاب الأرض الشرعيين؟!!.... رئاسة التحرير

"كانوا (أي اليهود) قد انفصلوا عن دمتريوس، وكانوا أول من نال حريته من جميع الشرقيين، بعد أن نالوا صداقة الرومان، وهكذا فقد كان من السهل على الرومان أن يهدوا بسخاء من أملاك الغير"[١٦].

ثالثاً: معاهدة التحالف وحقيقتها التاريخية:

أ- نص المعاهدة:

لقد حفظ سفر المكابيين الأول في إصحاحه الثامن نص المعاهدة التي عقدها يهوذا المكابي مع الرومان، والتي دونت على ألواح نحاسية وأرسلت إلى أورشليم لتكون تذكار سلام وتحالف بين الطرفين وهذه كلماتها بعد المقدمة (الفقرات ٢٣ ــ ٣٠):

"الفلاح للرومان ولشعب اليهود في البحر والبر إلى الأبد، وليكن السيف والعدو في منأى عنهم:

إذا ما قامت حرب في روما أولاً أو لدى أي من حلفائها على كل امتداد سيادتها، فإن شعب اليهود يحارب معهم بكل عزم حسب ماتقتضيه الظروف ولن يعطى المعتدون ولن يقدم لهم قمح ولا سلاح ولا فضة ولا سفن. هكذا حسن لدى الرومان، ويحافظون على التزاماتهم من دون أن يأخذوا شيئاً.

وبالمقابل فإن وقعت لشعب اليهود حرب أولاً: فإن الرومان يحاربون معهم بكل عزمهم كما تقتضيه الظروف ولن يعطى المعتدون قمحاً ولا سلاحاً ولا فضة ولا سفناً هكذا حسن لدى الرومان، ويحافظون على التزاماتهم بلا غش.

على هذه الشروط عاهد الرومان شعب اليهود. وإذا أراد هؤلاء أو أولئك أن يضيفوا أو يسقطوا شيئاً بعد هذا الكلام، فإنهم سيفعلون ذلك برضاهم وكل مازادوه أو أنقصوه يكون ملزماً"[١٧].

كما ورد نص هذه المعاهدة ولكن مع بعض الاختصار والتعديل في الشكل والصياغة لدى المؤرخ فلافينوس يوسيفوس، الذي يرويها بلغة إغريقية سليمة في كتابه "تاريخ اليهود القديم" وقد استقاها بلاشك من سفر المكابيين الأول حيث يقول:

"قرار مجلس الشيوخ حول التحالف والصداقة مع شعب اليهود:

لا يسمح لأي تابع للرومان أن يشن حرباً على شعب اليهود ولا أن يدعم أولئك الذين يقومون بذلك بالحبوب والسفن والمال.

وإذا ماهوجم اليهود فعلى الرومان أن يقدموا لهم كل مساعدة ممكنة، كما أن على اليهود أيضاً أن يقدموا لهم كل مساعدة ممكنة، كما أن على اليهود أيضاً أن يقدموا المساعدة، إذا ما هوجم الرومان.

وإذا ما أراد شعب اليهود أن يضيف إلى هذه المعاهدة أو يلغي منها بعض البنود فلا يكون هذا إلا بموافقة الشعب الروماني وتكون الإضافات سارية المفعول كالمعاهدة السابقة"[١٨].

ب- المعاهدة من الناحية القانونية:

أثار موضوع التحالف بين يهوذا المكابي والرومان نقاشاً واسعاً في الأبحاث والدراسات التاريخية انصب في المقام الأول على أمرين أساسيين وهما:

١- هل كان هناك تحالف يهودي روماني وهل تكلل بعقد معاهدة بين الطرفين أم لا؟

٢- هل وثيقة التحالف التي وصلتنا في سفر المكابيين الأول وثيقة صحيحة وأصلية أو أنها مدسوسة ومزورة؟

وقد اختلفت آراء المؤرخين بشأن هاتين المسألتين اختلافاً كبيراً.

فبينما يرى معظم الباحثين أن وثيقة المعاهدة حقيقية وسليمة من الناحية التاريخية والدستورية، نفى البعض صحة المعاهدة إلى حد القول بأنه "لم يكن هناك أية وثيقة تدل على وجود علاقة صداقة بين اليهود والرومان طيلة العهد السلوقي"(١٩).

ولكن قبل استعراض الآراء المختلفة بهذا الشأن، ينبغي أولاً توضيح الطابع الحقوقي والقانوني للمعاهدة من الجانب الروماني والذي كان من أشد الانتقادات التي أثارت الشكوك حول التحالف والوثيقة التاريخية التي وصلتنا عنه، بدعوى أن مجلس الشيوخ لم يكن يملك الحق القانوني بعقد معاهدات دولية.

ويعود الفضل في توضيح هذه المسألة وحسمها إلى المؤرخ (القانوني) أوجين توبيلر (E. Täubler) الذي بحث موضوع المعاهدات الدولية التي عقدها الرومان من جميع جوانبها وبين طبيعتها وأنواعها المختلفة. وأثبت بما لا يقبل الشك أن مجلس الشيوخ كان يملك الحق وصلاحية عقد التحالفات والمعاهدات مع الدول والمدن والشعوب المختلفة، مدللاً على ذلك بمجموعة من وثائق الأحلاف الرومانية والتي تم تصديقها من قبل مجلس الشيوخ فقط، من دون أن تعرض على الجمعيات الشعبية الرومانية للموافقة عليها وتصديقها[٢٠].

واستشهد في هذا المجال بالمعاهدة الرومانية ـ اليهودية المكابية بوصفها مثالاً نموذجياً لتحالف جرى إقراره من قبل مجلس الشيوخ الروماني فقط، وذلك بصيغة "قرار سناتوري" (Senatus Consultum).

وقد وضّح توبيلر طبيعة مثل هذه المعاهدات والأسباب الداعية إليها على النحو التالي: "قد يكون في مصلحة الدولة الرومانية أن تعقد معاهدة بهذه الصيغة القانونية غير الملزمة تماماً في الحقيقة والتي تجعل التدخل في أوضاع دولة صديقه أمراً غير ضروري مثلما تجعله بالمقابل وبالقدر ذاته ممكناً. وفي هذه الحالة لم يكن مجلس الشيوخ يدفع بالمعاهدة إلى الشعب للموافقة عليها وإنما كان يتخذ بنفسه القرار النهائي"[٢١].

وهكذا تمكن توبيلر من خلال تحليله وثيقة التحالف اليهودي الروماني ووثائق أخرى مشابهة لها في تفنيد نظرية المؤرخ الكبير ثيودور مومسن (Th. Mommsen)،

السائدة آنذاك في الأبحاث التاريخية والحقوقية، والتي تقول أن مجلس الشيوخ قد حلّ في سياق التطور التارريخي محل الشعب في حق التصديق على الاتفاقيات وإبرام المعاهدات، ولكن ذلك لم يكن قبل عهد سولا (٨٢-٧٩ ق.م)، عندما بدأ مجلس الشيوخ يتدخل في حقوق المجالس الشعبية وأصبحت موافقته كافية بحد ذاتها[٢٢]. وتوصل تويبلر إلى النظرية الحقوقية السائدة اليوم والتي تؤكد أن مجلس الشيوخ والشعب الروماني كانا يعملان منذ البداية إلى جانب بعضهما وتربطهما علاقات مستقرة وواضحة فيما يتعلق باختلاف الصلاحيات. وهكذا فقد كان الشعب يصادق على المعاهدة بوصفها قانوناً (Lex) على حين أن مجلس الشيوخ كان يصادق عليها بوصفها قراراً وإجراء إدارياً (Consultum). وكان من الممكن في حالة القانون فقط، ولكن ليس في حالة القرار، أن يشفع بقسم يلزم الشعب الروماني بالمعاهدة المبرمة.

جـ- المعاهدة والنقد التاريخي:

لقد أبدى خصوم"المعاهدة تحفظاً شديداً حيال صحة المعاهدة وحقيقتها التاريخية، وساقوا لتعليل شكوكهم العديد من الحجج ذات الطبيعة القانونية والسياسية والتاريخية، بل وحتى اللغوية. ولكن المعاهدة وجدت أنصاراً ومدافعين من كبار الباحثين والمؤرخين (وعلى رأسهم أوجين تويبلر وأميل شورر وإدورد ماير والياس بيكرمان) تمكنوا بدراستهم التاريخية وحججهم العلمية من إثبات صحة المعاهدة وإخراجها من دائرة الشكوك التي رسمت حولها.

فهذا إميل شورر يقول مؤكداً بهذا الخصوص: "إن رواية سفر المكابيين الأول عن الصلات بين يهوذا والرومان تنسجم انسجاماً تاماً مع الموقف التاريخي إلى درجة أنه لا يوجد أي سبب للشك فيها"[٢٣].

بالمقابل فإن فيلريش ينكر وجود أية علاقات دبلوماسية بين اليهود والرومان في ذلك الوقت (أي في زمن يهوذا المكابي)، معتمداً في رأيه هذا على ملاحظة وردت عند المؤرخ يوسيفوس (Ant. Jud. XIV, 10, 6) في أثناء حديثه عن إجراءات يوليوس قيصر في فلسطين عام ٤٧ ق.م، تتعلق بادعاء اليهود أمامه بأنهم كانوا يسيطرون على مدينة يافا منذ أن عقدوا مع الرومان معاهدة صداقة.

ويستنتج من هذا الادعاء أن وثيقة المعاهدة، التي لا يشك في صحتها، إنما كانت في زمن الملك أرسطبول الأول من الأسرة الحشمونية الذي كان يدعى أيضاً يهوذا[٢٤] ولكن هل يمكن للمؤرخ أن يستخلص حقائق تاريخية مطلقة في مثل هذه الأهمية بمثل هذا النوع من الأدلة، خاصة وأن الأمر يتعلق بادعاءات عامة غير دقيقة هدفها الحصول على مكاسب مادية. ثم أن الملك المذكور لم يحكم سوى سنة واحدة فقط (١٠٤ـ ١٠٣ ق.م) مما يجعل تحالفه مع الرومان أمراً لا يمكن التفكير فيه.

أما المؤرخ نيزه (Niese) فيتخذ موقفاً وسطاً: إذ أنه ينفي صحة وثيقة التحالف، لكنه لا ينكر قيام التحالف بحد ذاته.

فالوثيقة ـ في رأيه ـ ليست صحيحة بأي حال من الأحوال، وإنما هي من صنع مؤلف سفر المكابيين الأول، كما أن الرواية بأكملها ليست جديرة بمصداقية كبيرة وذلك لبلاغتها المصطنعة والمزوقة والمتكلفة[٢٥] ولكن الأمر على العكس من هذا تماماً. فقد دونت الوثيقة بنحو عشر جمل تعبر عن بنود المعاهدة وشروطها بصورة موضوعية.

ثم أنه غير جائز من الناحية المنهجية إسقاط حكم على وثيقة خضعت لترجمة مزدوجة إنطلاقاً من لغتها والتعابير الواردة فيها.

ويرى نيزة أن اليهود قد سعوا في روما إلى عقد معاهدة، ولكنهم في حقيقة الأمر لم يحصلوا إلا على قرار من مجلس الشيوخ يعترف بهم على أنهم مجرد أصدقاء

لروما ليس إلا، وذلك لأن مجلس الشيوخ لم يكن من حقه عقد التحالفات والمعاهدات ولكن هذا الافتراض، الذي يعتمد على نظرية موسن، يصبح غير ذي جدوى بمزيد من النقاش تجاه نظرية تويبلر الآنفة الذكر والمدعمة بالأدلة والشواهد التاريخية.

وهناك حجة أخرى سيقت ضد صحة المعاهدة ومفادها أن اليهود كانوا من الناحية القانونية من رعايا الحلفاء السلوقيين، الذين كانت ترتبط مملكتهم بمعاهدة ثابتة معروفة مع الشعب الروماني، ألا وهي معاهدة أفاميـة التي عُقِدَت عام ١٨٨ ق.م مع أنطيوخوس الثالث الكبير. ولكن تحالف الرومان مع السلوقيين لم يكن ينتقل تلقائياً من ملك إلى آخر. وكما مر آنفاً فقد توجب على أنطيوخوس الخامس وكذلك دمتريوس الحصول على اعتراف روما ولم ينل الأخير هذا الاعتراف إلا في عام ١٦٠ق.م، أي بعد عام على الأقل من عقد المعاهدة المكابية – الرومانية، وتم ذلك أيضاً بصيغة مبهمة تحتمل كل أوجه التأويل. أما قبل ذلك التاريخ، فكانت روما مطلقة اليدين من الناحية القانونية البحتة. ولكن مجلس الشيوخ لم يتورع من جهة أخرى من أن يمد يده إلى أحد الثائرين على السلوقيين من أمثال يتمارخوس (Timarchos)، الذي كان والياً على ميدية وبابل واستغل الصراع الذي قام آنذاك حول العرش السلوقي ليعلن نفسه ملكاً على الستر ابيات العليا. ثم أرسل أخاه إلى روما محملاً بالهدايا الثمينة، التي تمكن بواسطتها من الحصول أو بالأحرى شراء اعتراف مجلس الشيوخ الروماني بحكمه.

ولقد تابع هذا المجلس سياسة المكر والخديعة والتآمر على العرش السلوقي حتى بعد اعترافه بالملك دمتريوس، إذ ما كاد يظهر أحد أدعياء العرش وهو المدعو اسكندر بالاس، الذي أدعى أنه ابن أنطيوخوس الرابع، ويتقدم إلى الرومان راجياً الدعم والمناصرة، حتى حصل من مجلس الشيوخ على كتاب توصية يسمح له بالعودة إلى سورية لاسترداد عرش أبيه المزعوم من الملك الحاكم المعترف به من قبل روما ألا وهو دمتريوس.

فلماذا يُنتَظَر من مجلس الشيوخ أن يتصرف غير ذلك في حالة يهوذا المكـابي وأن يضن عليه بدعمه ومباركته لأنه من رعايا السلوقيين، أبعد كل هذا يمكن الادعاء بـأن السياسة الرومانية كانت تلتزم بالنواحي القانونية والعهود التي تقطعها على نفسها فـي تعاملها مع الحلفاء المستضعفين؟ كما أن هناك حجة أخـرى يسـتعين بـها خصـوم المعاهدة والتي تقول أنها بقيت بلا عواقب سياسية أو عسكرية وأن الرومان تخلوا عن حلفائهم واعترفوا بدمتريوس بعد قيامه بإخماد الثورة المكابية. ويمكن الرد على هـذا الاعتراض بسهولة: فعدا عن أن الرومان لم يفكروا أبداً ومنذ البداية في أن يسـاعدوا اليهود بصورة فعلية ويتدخلوا عسكرياً لإنقاذهم، فقد كان باستطاعتهم أن يتذرعوا فـي أي وقت بشرط ورد في نص هذه المعاهدة والذي يقول أن تقديم المسـاعدة متروك أمره للظروف[٢٧]:

< >' > <
ως αν αςτοῦς ο Καυρ`ος ζπογραφ'η

لقد أثبت دمتريوس–وكما كان يخشى الرومان– أنه ملك مقتدر وقوي العزيمة حقاً: إذ أنه تحرك بجيوشه أولاً ضد تيمارخوس وقضى على تمرده واستعاد سيطرة المملكة على أقاليمها الشرقية. ثم عاد إلى أنطاكية وأرسل جيشه بقيادة بكخيدس علـى وجـه السرعة في حملة خاطفة ضد يهوذا وأتباعه تمكنت من القضاء عليهم وقبل أن يفكـر الرومان في اتخاذ أي إجراء لنصرة حليفهم "المزعوم"، هذا إذا ما كانوا يريدون ذلـك حقاً، وهو أمر بعيد الاحتمال.

لقد تركت روما كل أولئك الذين احتموا بها لمصيرهم المحتوم، "حالمـا سـارت الأمور بشكل مغاير لما كان قد أمر به مجلس الشيوخ"[٢٨].

د– تحليل وثيقة المعاهدة وخصائصها:

لقد قورنت المعاهدة المكابية– الرومانية مع معاهدة صداقة مشابهة عقدتها رومـا مع جزيرة استيبالايه الصغيرة الواقعة في بحر إيجة عام ١٠٥ ق.م، والتـي وصلنـا

نصها الأصلي مكتوباً على أحد النقوش وهي تعرف باسم Foedus Astypalaion وجاءت على صيغة قرار أصدره مجلس الشيوخ[٢٩].

وأهم أوجه الشبه بين المعاهدتين هي أنهما:

١- جاءتا بصيغة قرار لمجلس الشيوخ الروماني Senatus Consultum.

٢- تمثلان معاهدة متكافئة بالتزامات متبادلة Foedus aequum.

وتبين من خلال المقارنة أن المعاهدة اليهودية- الرومانية تمثل بمحتواها أيضاً "معاهدة متكافئة وصالحة قانونياً"

ويظهر في معاهدة استيبالايه اسما القنصلين في المقدمة التي تسبق قرار السناتوس. ومن المؤكد أن مثل هذه المقدمة كانت في حوزة مؤلف سفر المكابيين الأول والفقرات (١٧-٢٢) تعود إليها بلا أدنى شك.

وتذكر الفقرة (١٦) أن هناك قنصلاً يقود الدولة وأن مجلس الشيوخ يتألف من ٣٢٠ عضواً. وهكذا فإن المعاهدة لم يكن ينقصها المعلومات التي ترد عادة عن أسماء الحكام ومكان ويوم المباحثات.

ويرى تويبلر في هاتين المعاهدتين مثالين جيدين لمعاهدة متكافئة، والتي تدعى في الحقوق الرومانية Foedus aequum حيث يلتزم كلا الطرفين بالشروط والواجبات ذاتها. وفي معاهدتنا ترد أولاً واجبات اليهود حيال الرومان ثم تتلوها التزامات الرومان تجاههم.

ومما هو جدير بالملاحظة أن عبارة ω̃ς ε″δοζεν ρω′μ<η الاعتراضية تتكرر مرتين في وثيقة المعاهدة (في الفقرتين ٢٦-٢٨) والتي ليست سوى ترجمة لكلمة censuere اللاتينية التي تأتي عادة في نهاية قرارات مجلس الشيوخ. وهذه الجملة هي حتماً بمثابة تصديق من السناتوس على الالتزامات المتبادلة في المعاهدة.

وكل هذا يؤكد أن التحالف مع يهوذا المكابي قد تم إقراره في مجلس الشيوخ فقط واتخذ شكل رسالة موجهة من السناتوس إلى اليهود(٣٠).

وهذه الصيغة معلومة أصلية حسب توبيلر وهي تؤكد صحة وثيقة المعاهدة وطبيعتها الوثائقية على أحسن وجه. كما أن غياب أية إشارة إلى قسم المعاهدة يؤكد أيضاً طبيعة هذه المعاهدة الوثائقية بوصفها "قراراً سناتورياً"، لأن "إعطاء القسم لا يكون إلا على المعاهدة ذات الصبغة القانونية الكاملة"والملزمة للشعب الروماني، الذي يقسم على الحفاظ عليها[٣١].

وأخيراً ينبغي التأكيد على حقيقة هامة ألا وهي أن نص وثيقة المعاهدة قد عانى الكثير من خلال الترجمة المزدوجة التي مر بها: أولاً من الإغريقية- لغة الوثيقة الأصلية- إلى اللغة العبرية (اللغة المفترضة لسفر المكابيين الأول).

ثم من العبرية إلى الإغريقية مرة أخرى عند ترجمة هذا السفر إلى اللغة الإغريقية.

وهكذا فإن نص الوثيقة فقد قدراً كبيراً من وضوحه ودقة تعابيره الأصلية وهذا ما كان مدعاة -في السابق- إلى إنكار حقيقة المعاهدة وإلى التقليل من قيمتها الوثائقية لدى بعض الباحثين.

رابعاً: توثيق التحالف في المصادر التاريخية:

لقد وصلنا مجموعة من الروايات والشواهد التاريخية التي توثق على أفضل وجه التحالف المكابي- الروماني وتؤكد حقيقته.

١- يتحدث الأصحاح الثاني عشر من سفر المكابيين الأول (الفقرات ١-٣) عن يوناتان، الذي خلف أخاه يهوذا في قيادة الحركة المكابية (١٦٠-١٤٣ق.م)

وعلاقاته بروما وأسبرطة وكيف أنه أرسل رجالاً إلى روما من أجل تجديد المعاهدة المعقودة سابقاً:

"أننا مرسلون من قبل يوناتان عظيم الكهنة وشعب اليهود لنجدد ما بينكم وبينهم من المصادقة والتحالف، كما كان من قبل".

وهكذا فإن هذه الفقرة تتحدث بصورة لا لبس فيها عن تجديد تحالف كان قائماً قبل عهد يوناتان، أي أنه يعود بلاشك إلى يهوذا المكابي.

كما جاء في الإصحاح الرابع عشر أن سمعان، الذي تولى زمام الأمور بعد وفاة أخيه يوناتان، (١٤٣ـ ١٣٤ ق.م) بعث برسوله نومانيوس إلى الرومان ليقر التحالف بينه وبينهم فكتبوا إليه يجددون معه ما كانوا قد عقدوه مع يهوذا ويوناتان أخويه من المصادقة والتحالف.

ثم نقرأ في الإصحاح الخامس عشر عن عودة رسل سمعان من روما يحملون كتباً إلى الملوك والبلاد تتضمن تجديد التحالف على لسان القنصل لوقيوس:

"لقد أتانا رسل اليهود أصدقائنا وأنصارنا يجدون قديم الصداقة والتحالف..." (١ مك ١٥/ ١٧).

وهكذا فإن سفر المكابيين الأول، الذي ندين له بوثيقة التحالف ومقدماتها وظروفها التاريخية، يذكر في ثلاثة إصحاحات أخرى تجديد المعاهدة المعقودة مع يهوذا المكابي مرتين: الأولى في عهد يوناتان والثانية في عهد سمعان. ومن المعروف أن تجديد المعاهدات كان من ميزات ذلك العصر.

٢- كذلك يشير سفر المكابيين الثاني ــ وهو مصدر تاريخي مستقل عن الأول ــ بالصدفة وبصورة عفوية إلى سفارة تقلدها إيبوليموس ابن يوحنا أرسلت إلى

الرومانيين ليس بدافع الصداقة فحسب، وإنما من أجل عقد صداقة وتحالف مع الرومان (٢ مك ٤/ ١١):

φυλυα'ς χαυ` συμμαχι'ας προ`ς τοι`ς <ρωμαι'ος

وايبوليموس هذا هو أحد السفيرين اللذين أرسلهما يهوذا إلى روما من أجل كسب صداقتها وعقد حلف معها.

٣- كما أن المؤرخ فلافيوس يوسيفوس يشير إلى هذه الصداقة والتحالف في الكتاب الأول من تاريخ الحرب اليهودية قائلاً إن يهوذا كان "أول من عقد معاهدة صداقة مع الرومان[٣٢]:

προ`ς <ρωμαι'ος πρῶτος 'εποιη'σατο φιλι'αν

كما يذكر أيضاً أن أخاه يوناتان دعم حكمه بصداقته مع الرومان."

٤- ويشير المؤرخ جوستين (XXXVI, 3, 9) إلى الصداقة والتحالف بين اليهود والرومان أثناء حديثه عن السياسة الرومانية:

Judaei … amicitia Romanorum petita

٥- وأخيراً يعود الفضل للمؤرخ نيزة في اكتشافه مصدر روماني قدم واحداً من أقوى الأدلة على التحالف المكابي ــ الروماني والذي يتمثل في حوليات القناصل الرومان التي استطاع بالاعتماد عليها أن يثبت أن وفداً يهودياً كان بالفعل في روما في عام ١٦١ ق.م[٣٣].

كما استطاع أن يثبت أن القنصل الذي أعطى الوفد اليهودي رسالة توصية إلى جزيرة قوص ــ الواقعة في بحر إيجة ــ من أجل السماح لليهود العائدين بالمرور في أراضيها، والتي يذكرها يوسيفوس في سياق تاريخي آخر (Jos., Ant. Jud. XIV,

(10, 15، ليس سوى قنصل عام ١٦١ ق.م المدعو: غايوس فـــانيوس ســترابو(٣٤) G. Fannius C. f (ilius) Strabo.

وهكذا، فإنه بعد هذه الدراسة النقدية للوثيقة والشواهد والأدلة التي تدعمها وعرض الآراء والنظريات المختلفة التي نشأت حولها، يمكن القول أن المزايا الوثائقية للمعاهدة وكذلك أيضاً طبيعتها الدستورية والقانونية تتضافر مع المعطيات التاريخية والأدبيـــة، لتبرهن بمجموعها بأننا أمام معاهدة تحالف صحيحة وثابتة تاريخيـــاً وإن كـــانت قـــد اتخذت صيغة قرار لمجلس الشيوخ الروماني.

كما أن وثيقة المعاهدة أصلية بلا شك أو أنها كانت كذلك على الأقل عندما وصلت مؤلف سفر المكابيين الأول قبل أن يعاني نصها من عواقب الترجمة المزدوجة(٣٥).

خامساً: تاريخ المعاهدة:

لا يوجد في الحقيقة اختلافات كبيرة بين الباحثين بخصوص تحديـــد زمـــن عقـــد معاهدة التحالف المكابي ـــ الروماني والذي ينحصر في بحر الأعوام الثلاثة الفاصلـــة بين موت الملك أنطيوخوس الرابع عام ١٦٣ ق.م ومقتل يهوذا المكابي في عـــام ١٦٠ ق.م

إن من يتابع سير الأحداث وتسلسلها الزمني في سفر المكابيين الأول، يســتطيع أن يستنتج بسهولة ويسر أن الحدث الحاسم الذي دفع يهوذا للاتصال بالرومان والســـعي إلى طلب صداقتهم ومحالفتهم، إنما كان انتصاره علـــى القـــائد الســلوقي نيكـــانور Nikanor وجيشه في ١٣ آذار عام ١٦١ ق.م، وخشيته من انتقام الملـــك دمـــتريوس الذي بدأ يلوح في الأفق. وبالتالي فإن انطلاق رسل يهوذا إلى روما لا بد وأنه جـــرى بعد ذلك الحدث، فإن لم يكن بعد الثالث عشر من آذار فإنه تم على الأرجح بعده بوقت قصير، لأن دمتريوس بدأ باستعدادات حربية كبيرة من أجل توجيه ضربة حاسمة ضد

الثائرين وذلك بعد وصول أنباء هزيمة قائده إلى أنطاكية. وهذا ما أدخل الرعب في قلوب يهوذا وأتباعه ودفعهم للإسراع في إرسال الوفد، الذي أبحر إلى روما في أواخر ربيع عام ١٦١ ق.م على أبعد تقدير. لقد كان التفكير بالسفر عن طريق البر أمراً غير ممكن البتة في تلك الظروف لأنه سيمر بالأراضي السلوقية، وبما أن الرحلة البحرية من فلسطين إلى روما وإيطالية تحتاج إلى عدة شهور في تلك الأيام، فإن السفراء لم يصلوا إلى روما قبل بداية فصل الخريف، وبالتالي فمن المؤكد أن معاهدة التحالف قد عقدت في خريف عام ١٦١ ق.م(٣٦).

وهذا ما تؤكده أيضاً رسالة التوصية الآنفة الذكر التي أعطيت للوفد اليهودي العائد من روما، من قبل غايوس فانيوس قنصل عام ١٦١ ق.م، والتي يذكرها المؤرخ يوسيفوس وتجد سنداً لها في حوليات القناصل الرومان.

خاتمة:

وهكذا فإن هذه الدراسة توصلت إلى نتيجة مفادها أن حالة الضعف والتمزق التي تعاني منها الدولة السلوقية على الصعيد الداخلي ـ خاصة بعد موت أنطيوخوس الرابع إبيفانيس ـ بالأضافة إلى التهديدات والضغوط الخارجية المتعاظمة والمتمثلة بالدولة الفرثية من جهة الشرق وبالبطالمة، الأعداء التقليديين، والرومان القوة الكبرى الصاعدة من جهة الغرب، بحيث أنها كانت واقعة بين فكي كماشة تضغط عليها وتستهلك طاقاتها وقدراتها العسكرية وتستغرق مواردها المالية والاقتصادية. كل هذه العوامل مهدت الأجواء وساعدت على ظهور حركات تمرد ونزعات انفصالية متعددة الأشكال والتوجهات والأهداف، وكان منها الحركة المكابية، التي نشأت في البداية كردة فعل للأوساط الريفية الشعبية المتدينة على إجراءات الهلينة الوثنية والتي كانت موجهة أيضاً ضد القوى المستغلة والطبقة الارستقراطية اليهودية المتهلينة المتعاونة مع الحكم السلوقي وأداته الطيعة في نشر سياسة الهلينة.

لقد حاول يهوذا المكابي الاستفادة من الظروف السياسية التي كانت تمر بها المملكة السلوقية، مثلما أيضاً من سياسة الرومان الاستعمارية ومطامعهم في المنطقة.

وهكذا قرر إرسال وفد إلى روما راجياً مجلس شيوخها المساعدة والصداقة. وتم عقد معاهدة أسست لتحالف سياسي بين اليهود والرومان، الذين رأوا في ثورة المكابيين وسيلة لإضعاف المملكة السلوقية والقضاء عليها في نهاية المطاف. هذا بالنسبة للظروف والأهداف السياسية التي أدت لقيام التحالف اليهودي ـ الروماني.

أما فيما يتعلق بالشكل القانوني والدستوري لمعاهدة التحالف فإنه جاء بصورة قرار لمجلس الشيوخ الروماني، الذي كان يتمتع بحق عقد المعاهدات والأحلاف مع سائر الدول والقوى الخارجية.

ويبقى أخيراً مسألة صحة الوثيقة وبالتالي نص المعاهدة التي حفظها سفر المكابيين الأول الموضوع أصلاً بالعبرية(*) والتي خضعت لترجمة مزدوجة فعانت بعض الشيء في الشكل والصياغة من دون أن تفقد قيمتها الوثائقية.

وهكذا فإن المعطيات السياسية والقانونية والتاريخية تؤكد قيام تحالف بين يهوذا المكابي والرومان تمثلت ركيزته الأساسية في وثيقة المعاهدة التي عقدت في عام ١٦١ ق.م.

ملحق

بمصادر البحث ووثيقة التحالف

أ- مصادر البحث:

يعد سفر المكابيين الأول والثاني من المصادر التاريخية المهمة التي تؤرخ لفلسطين في العصر الهلنسي وقد وصلانا باللغة الإغريقية في نطاق الترجمة السبعينية للعهد القديم (Septuaginta).

وجاء اسم هذين السفرين (Mαkkαβαi'ωv α', β') مثل بقية الأسفار الأربعة المعروفة بهذا الاسم ـ من لقب يهوذا المكابي، اللذين يرويان أعماله وتدابيره ضد السلوقيين.

وينسب سفر المكابيين الأول إلى مؤلف يهودي مجهول الهوية دوّنه ـ كما يعتقد ـ في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد. ويرى معظم الباحثين أنه كتب أصلاً بالعبرية على الأرجح وذلك بالاعتماد على ما جاء في أحد شروح القديس هيرنيموس والذي والذي يقول:

"لقد وجدت سفر المكابيين الأول بالعبرية، وأما السفر الثاني فبالإغريقية، وهذا ما يمكن للمرء أن يتبينه من عباراته ذاتها:

Macchabacorum primum librum hebraicum reperi, secundus graecus est, quod ex ipsa phrasi probari potest".

وفي كل الأحوال فإن الأصل العبري المفترض مفقود ولا يوجد سوى ترجمته الإغريقية وهي عريقة في القدم، لأن المؤرخ يوسيفوس، الذي عاش في القرن الأول الميلادي، اعتمد عليها في كتابة "تاريخ اليهود القديم" واقتبس فقرات مطولة منها.

ويعطي هذا السفر، الذي يستهل سرده بفتوحات الاسكندر الكبير، نحو ٤٠ سنة من الأحداث التاريخية التي تمتد من صعود أنطيوخوس الرابع العرش السلوقي (١٧٥ق.م) وموت سمعان الحشموني آخر أخوة يهوذا المكابي (١٣٥ ق.م)، معتمداً في ذلك على مصادر كتابية وروايات شفهية. وهو يحتوي على مجموعة من الوثائق (يصل عددها إلى ١١ وثيقة) تأتي على رأسها من حيث الأهمية وثيقة التحالف المكابي- الروماني. وقد أظهرت الدراسات التاريخية، أنها في معظمها وثائق أصلية، أو أنها وصلت كاتب هذا السفر بصيغتها الأصلية، ولكنها عانت دون شك من عقابيل الترجمة المزدوجة من الإغريقية إلى العبرية وبالعكس.

أما سفر المكابيين الثاني فليس تكملة للأول-كما قد يبدو للوهلة الأولى- وإنما هو تاريخ مستقل يغطي بصورة عامة أحداث الأربعة عشرة سنة الأولى من التاريخ المذكور آنفاً، أي حتى عام ١٦١ ق.م مع بعض الإضافات المتعلقة بخلفية الصراع. وهو في الحقيقة مختصر لتاريخ مفقود مؤلف من خمسة كتب مدونة أصلاً بالإغريقية وينسب إلى مؤرخ يدعى ياسون القوريني لا يعرف عنه شيء سوى اسمه، ولكن يبدو أنه عاش في فترة قريبة من زمن الأحداث التي يرويها، ولعل ذلك كان أيضاً في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد. كذلك لا يعرف شيء عن الكاتب الذي اختصر تاريخ ياسون.

ولا يخلو السفران – مثل بقية أسفار العهد القديم- من المفارقات والمبالغات والاختلافات النابعة من رؤى كاتبيها وتوجهاتهما السياسية والدينية والقومية. ومع ذلك فقد جاء فيهما حقائق تاريخية كثيرة تجد تأكيداً لها في المصادر التاريخية الإغريقية واللاتينية.

وقد تبين من خلال تقصي المصادر التاريخية العربية أن ابن خلدون هو المؤرخ العربي الوحيد الذي روى أخبار المكابيين والدولتين الحشمونية والهيرودية، والتي

يؤكد (ج ٢ ص ١١٦) أنه لم يكتب فيها أحد من أئمة المؤرخين العرب، كما أنه لم يقف في كتب التاريخ مع كثرتها واتساعها على ما يلم بشيء من ذلك حتى وقع بيده وهو بمصر تأليف لبعض علماء بني اسرائيل يدعى يوسف بن كريون، الذي كان من عظماء اليهود وقوادهم عند زحف الروم إليهم.

ويضم ذلك الكتاب أخبار بني حشمناي وبني هيرودس وقد لخصها ابن خلدون كما وجدها فيه (ص ١١٦ وما يليها).

ومن جملة ما يرويه كيف ثار اليهود على الملك أنطيوخوس بزعامة يهوذا بن متاتيا، الذي انتصر مرات عديدة على القوات السلوقية التي أرسلت لقتاله حتى تمكن من دخول أورشليم (بيت المقدس) وتطهير الهيكل. وقد ظهر الروم في تلك الأثناء "وكاتبوا يهوذا ملك بني اسرائيل بالقدس يستميلونهم عن طاعة أنطيخوس واليونانيين فأجابوهم إلى ذلك" (ص ١٢٠).

ثم يتحدث ابن خلدون بعد أن يسرد طائفة من الأخبار عن عهد هرقانوس (ص ١٢٢) فيذكر بعض أعماله ومنها أنه بعث بوجوه اليهود وأعيانهم إلى الأشياخ والمدبرين برومه وذلك من أجل "أن يسأل تجديد العهد وأن يردوا ما أخذوا أنطيخوس ويونان من بلادهم التي صارت في مملكة الروم فأجابوا وكتبوا له العهد بذلك وخاطبوه بملك اليهود".

وهكذا نرى ابن خلدون يروي -نقلاً عن ابن كريون- أن الرومان هم الذين كاتبوا يهوذا، الذي يصفه بملك اليهود ومن دون أن يذكر لقبه، وسعوا إلى تحريضهم على الانفصال ....الخ وهذا ينافي منطق الأمور والحقائق التاريخية المعروفة بأن يهوذا هو الذي بادر إلى مراسلة الرومان طالباً تحالفهم ونصرتهم. ثم أنه ليس في كلمات ابن خلدون أية إشارة إلى تحالف أو عهد بين الطرفين.

ولكن من ناحية أخرى فإن ابن خلدون يذكر في حديثه عن هرقانوس (١٣٤-١٠٤ ق. م) سعيه لدى الرومان من أجل "تجديد العهد" وفي هذا إشارة واضحة وتأكيد على وجود معاهدة سابقة بين الرومان واليهود سعى هرقانوس إلى تجديدها وتأكيدها.

ومن خلال ما تقدم فإن كل الدلائل تشير إلى أن عقد هذه المعاهدة كان في أيام يهوذا وجرى في إطار مراسلة الرومان له تبعاً لما يرويه ابن خلدون نقلاً عن المؤرخ يوسف بن كريون.

ب- وثيقة التحالف:

لقد تطلب الوصول إلى النص الأصلي الإغريقي لهذهِ الوثيقة جهداً كبيراً وسعياً متواصلاً -وذلك لعدم وجود الترجمة السبعينية للعهد القديم (Septuaginta) في المكتبات العامة بدمشق- إلى أن أتيح لي أخيراً خلال زيارة لمطرانية الروم الأرثوذكس بحلب الاطلاع على الكتاب المقدس بالإغريقية حيث تكرم سعادة المطران باحضار نسخته الشخصية -المطبوعة في اليونان- وسمح بتصوير وثيقة "تحالف الرومان واليهود" المرفقة من سفر المكابيين الأول. فله مني في هذا المقام أيضاً جزيل الشكر والامتنان.

Συμμαχία Ῥωμαίων καὶ Ἰουδαίων

17 Καὶ ἐπελέξατο Ἰούδας τὸν Εὐπόλεμον υἱὸν Ἰωάννου τοῦ Ἀκκὼς καὶ Ἰάσονα υἱὸν Ἐλεαζάρου καὶ ἀπέστειλεν αὐτοὺς εἰς Ῥώμην στῆσαι φιλίαν καὶ συμμαχίαν 18 καὶ τοῦ ἆραι τὸν ζυγὸν ἀπ᾽ αὐτῶν, ὅτι εἶδον τὴν βασιλείαν τῶν Ἑλλήνων καταδουλουμένους τὸν Ἰσραὴλ δουλείᾳ. 19 καὶ ἐπορεύθησαν εἰς Ῥώμην, καὶ ἡ ὁδὸς πολλὴ σφόδρα, καὶ εἰσήλθοσαν εἰς τὸ βουλευτήριον καὶ ἀπεκρίθησαν καὶ εἶπον 20 Ἰούδας ὁ καὶ Μακκαβαῖος καὶ οἱ ἀδελφοὶ αὐτοῦ καὶ τὸ πλῆθος τῶν Ἰουδαίων ἀπέστειλαν ἡμᾶς πρὸς ὑμᾶς στῆσαι μεθ᾽ ὑμῶν συμμαχίαν καὶ εἰρήνην καὶ γραφῆναι ἡμᾶς συμμάχους καὶ φίλους ὑμῶν. 21 καὶ ἤρεσεν ὁ λόγος ἐνώπιον αὐτῶν. καὶ τοῦτο τὸ ἀντίγραφον τῆς ἐπιστολῆς, ἧς ἀντέγραψαν ἐπὶ δέλτοις χαλκαῖς καὶ ἀπέστειλαν εἰς Ἰερουσαλὴμ εἶναι παρ᾽ αὐτοῖς ἐκεῖ μνημόσυνον εἰρήνης καὶ συμμαχίας.

23 Καλῶς γένοιτο Ῥωμαίοις καὶ τῷ ἔθνει Ἰουδαίων ἐν τῇ θαλάσσῃ καὶ ἐπὶ τῆς ξηρᾶς εἰς τὸν αἰῶνα, καὶ ῥομφαία καὶ ἐχθρὸς μακρυνθείη ἀπ᾽ αὐτῶν. 24 ἐὰν δὲ ἐνστῇ πόλεμος Ῥώμῃ προτέρᾳ ἢ πᾶσιν τοῖς συμμάχοις αὐτῶν ἐν πάσῃ τῇ κυριείᾳ αὐτῶν, 25 συμμαχήσει τὸ ἔθνος

τῶν Ἰουδαίων, ὡς ἂν ὁ καιρὸς ὑπογράφῃ αὐτοῖς, καρδίᾳ πλήρει· 26 καὶ τοῖς πολεμοῦσιν οὐ δώσουσιν οὐδὲ ἐπαρκέσουσιν σῖτον, ὅπλα, ἀργύριον, πλοῖα, ὡς ἔδοξεν Ῥώμῃ· καὶ φυλάξονται τὰ φυλάγματα αὐτῶν οὐθὲν λαβόντες. 27 κατὰ τὰ αὐτὰ δὲ ἐὰν ἔθνει Ἰουδαίων συμβῇ προτέροις πόλεμος, συμμαχήσουσιν οἱ Ῥωμαῖοι ἐκ ψυχῆς, ὡς ἂν αὐτοῖς ὁ καιρὸς ὑπογράφῃ· 28 καὶ τοῖς συμμαχοῦσιν οὐ δοθήσεται σῖτος, ὅπλα, ἀργύριον, πλοῖα, ὡς ἔδοξεν Ῥώμῃ· καὶ φυλάξονται τὰ φυλάγματα ταῦτα καὶ οὐ μετὰ δόλου.—29 κατὰ τοὺς λόγους τούτους οὕτως ἔστησαν Ῥωμαῖοι τῷ δήμῳ τῶν Ἰουδαίων. 30 ἐὰν δὲ μετὰ τοὺς λόγους τούτους βουλεύσωνται οὗτοι καὶ οὗτοι προσθεῖναι ἢ ἀφελεῖν, ποιήσονται ἐξ αἱρέσεως αὐτῶν, καὶ ὃ ἂν προσθῶσιν ἢ ἀφέλωσιν, ἔσται κύρια. 31 καὶ περὶ τῶν κακῶν, ὧν ὁ βασιλεὺς Δημήτριος συντελεῖται εἰς αὐτούς, ἐγράψαμεν αὐτῷ λέγοντες Διὰ τί ἐβάρυνας τὸν ζυγόν σου ἐπὶ τοὺς φίλους ἡμῶν τοὺς συμμάχους Ἰουδαίους; ἐὰν οὖν ἔτι ἐντύχωσιν κατὰ σοῦ, ποιήσομεν αὐτοῖς τὴν κρίσιν καὶ πολεμήσομέν σε διὰ τῆς θαλάσσης καὶ διὰ τῆς ξηρᾶς.

الحواشي

١- جاءت هذه التسمية من لقب حمله زعيم الثورة التي قامت ضد الحكم السلوقي المدعو يهوذا المكابي:

>Ιου'δας ὁ καλου'μενος Makkaβαῖος

(أمك الاصحاح ٣ العدد ١). ولكن لم يرد تفسير لهذه اللقب في سفر المكابيين ولا عند المؤرخ يوسيفوس ولذلك تعددت الآراء فيه والاجتهادات. وقد أورد المطران الدبس في كتابه تاريخ سورية (ص ١٧٩) عدداً من هذه التفسيرات: فالبعض يقول أن الاسم مكابي مشتق من (كَبَا) العبرانية* ومعناها أباد وأتلف لأنهم كانوا يبيدون أعداء الرب. وقال آخرون أنه جاء من كلمة (مخابا) بمعنى مخبأ لأن المكابيين اختبأوا أولاً في المغاور هرباً من الاضطهاد.

على أن القول الأعم في رأيه الذي قال به الجمهور هو أنه مأخوذ من الأحرف الأربعة م. ك. ب. ي التي كان المكابيون يصنعونها على أعلامهم وتروسهم ومعناها: "من مثل الرب بين الآلهة"

---

* قد يستعمل المطران الدبسي وغيره تعبير ("لغة عبرية/عبرانية) والصحيح أن نقول "توراتية" وهي مزيج من الكنعانية والآرامية. ولم تذكر أسفار التوراة مطلقاً تعبير "لغة عبرية" وأول إشارة بهذا المعنى نجده في سفر الجامعة ثم في (إنجيل لوقا، ٣٨/٢٣) و(إنجيل يوحنا ٢٠/١٩). ثم قالوا عبرية لمن ظل من اليهود على دينه أما من تنّصر فقالوا لاحقاً عن لسانه "سرياني". أما أن نقول "عبرية / عبرانية" كما درج عليه بعضهم فهذا غير صحيح... ولدينا في التوراة "كبه" ومعناها قريب من (كبا/يكبو) العربية. رئاسة التحرير

ولكن لا يوجد أي سند تاريخي لمثل هذا التفسير الديني اللاهوتي.

وفي الحقيقة فإن معظم الدراسات الحديثة تميل إلى تفسير هذا اللقب على أنه مأخوذ من كلمة (مقابات Maqqabot التي تعني مطرقة)(*) وأطلق على يهوذا لكونه محارباً سريع الضربات كالمطرقة. ويشير أحد الباحثين إلى لقب كارل مارتِل قائد الفرنجة في معركة بواتييه، إذ من المعروف أن لقبه مارتِل يعني المطرقة.

ومن الجدير بالذكر أن ابن العبري هو المؤرخ العربي الوحيد الذي يذكر هذا اللقب في إشارة مقتضبة إلى "يهوذا المقبي"، الذي جمع بين الملك والكهنوت ونفى نواب أنطيوخوس من أرض يهوذا وطهر الهيكل (تاريخ مختصر الدول ص ٦١).

٢- أما التسمية حشمونية فهي لقب المكابيين لدى يوسيفوس وفي التلمود. ويرده المؤرخ يوسيفوس في تاريخ اليهود القديم (Jos., Ant. Joud. XII, 263) إلى أحد أجداد متاتيا- والد يهوذا- المدعو بالإغريقية Ασαμωναυος` أي حشموناي، والذي يرتبط على الأرجح باسم قرية حشمون موطن تلك الأسرة في منطقة اللد. ومما يجدر ذكره أن ابن خلدون يسمي دولتهم: دولة بني حشمناي.

3- Appian, Syr. 46.

4- Polybios, **Hist**. XXXI, 12.

٥- انظر حول هذه السفارة ومهمتها في سورية وشخص رئيسها موسوعة بولي- فيسوفا:

(*) أصل الفعل (نَقَب) ولفظه ومعناه قريب من العربية (نَقَبَ) ومنها (مِقّبث / مطرقة).

رئاسة التحرير

cf. RE XVII s.v. Octavius Nr. 17 Sp. 1810-14.

٦- **٢مك** الصحاح (١١) الفقرات (٣٤- ٣٨).

٧- هذا التاريخ هو حسب التقويم السلوقي بصيغته البابلية والتي تبدأ مع ربيع عام ٣١١ ق. م وعلى هذا فإن تاريخ هذه الرسالة كان في شهر نيسان من عام ١٦٣ ق. م

٨- انظر تفاصيل هذه الحادثة المشهورة عند E. Bevan, **the House of Seleucus** II P. 144.

٩- يقول المطران الدبس (**تاريخ سورية** ج٢ مج٣ ص ١٧٠) في وصف السياسة الرومانية تجاه السلوقيين:

"لم يكن من السداد في سياسة الرومانيين أن يتركوا أنطيوكس يعظم ويبسط سطوته على سورية ومصر..."

وكذلك المؤرخ ميكائيل روستوفتزف الذي يقول في تاريخ العالم الهلنستي الاجتماعي والاقتصادي ص ٧٣٧ (M. Rostovzeff) "كانت روما تحرص على منع قيام أية قوة في العالم الهلنستي أو النهوض من التمزق والضعف السياسي. كانت سياستها تسعى إلى ضرب الدولة الأقوى بين دول العالم الهلنستي...

أما أنطيوخوس فقد أرغم في الوقت ذاته على الخروج من مصر بعمل دبلوماسي وهكذا منعته روما من توحيد المشرق العربي تحت سلطته. كما أن سورية تم إضعافها بالدعم الذي قدمته روما للحركات الانفصالية التي نشأت في الامبراطورية السلوقية وخاصة بين اليهود:

Syria was weakened by the support given by Rome to the separatist tendencies which were developping within Selcucid Empire, especially among the Jews".

10- Polybios, **Hist**. XXXI, 19.

<

11- E΄`αν τ`ο ικν`ον ποιῆ τῆ συγλη΄τω κατ`α τ`ην τῆς α΄ρχῆς ε΄ ζουσι΄αν (Polyb. XXXII , 3, 13).

١٢- انظر E. Badian, **Foreign Clientelae P**. 107 f.

there was no question of legal rights, as ther was no one to sit in judgement.

١٣- انظر بهذا الخصوص M. Notl., Gexl., **İsraels** S. 332 ff.

١٤- انظر بخصوصها ص ٤ من هذا البحث

١٥- ١ **مك** الاصحاح (٨) الفقرة ٢٠ والفقرة ٣١

١٦- انظر أيضاً ص ١٨ من هذا البحث **Iustin**, XXXVI, 3, 9

١٧- نص المعاهدة مقتبس من ترجمة الكتاب المقدس مع بعض التعديل والتدقيق. أما النص الإغريقي فيمكن الرجوع إليه في الملحق المرفق.

18- Josephos, **Antiq. Iud**. XII, 471.

19- Winkler, **Altorient. Forsch**. III, 1 S. 134.

٢٠- كان ذلك في الجزء الأول من كتابه الموسوم "الامبراطورية الرومانية، المعاهدات الدولية وعلاقات التحالف".

E. Täubler, **Imp. Rom**. IS. 239-253.

21- Täubler, **İbid** S. 115

22- Th. Mommsen, **Rõmisches Staαtsrecht**, Bd III S. 1171.

23- E. Schürer, **Gexh. D. Jüd. Volkes** Bd IS. 220

24- H. Willrich, **Urkundenfälxhung**... S 44ff.

25- B. Niese, Kritik d. beiden **Makkabãer bücher**, Hermes 35 (1900) S. 501.

26- B. Niese, Festxhrift für Th. Nõldeke II (1906) S. 824.

٢٧- انظر ١ مك ٨/٢٥ في وثيقة التحالف.

28- Ed. Meyer, **Ursprung und Anfaüge des Christentums** II (1921) S. 246.

٢٩- انظر نص المعاهدة في مجموعة النقوش الإغريقية **CIG**, n. 2485 وكذلك أيضاً في:

R.K. Sherk, **Roman Documents from the East** (1969) No 10.

30- H. Bévenot, **Die beiden Makkabãerbüdier** (1931) S. 104.

31- Tãubler, **Op. Cit.** S. 243

٣٢- انظر يوسيفوس: Jos., **Bell. İud.** I, 38

33- B. Niese, Festxrift für Nõldeke S. 817 f.

34- انظرBroughton, **Magistrats** I (1952) P. 443

35- E. Bickermann, **Makkabãerbücher** RE XIV, 1 Sp. 787.

٣٦- وهذا ما نجده أيضاً في **موسوعة كمبردج** التاريخ القديم:

CAH, VIII P. 359 n. 131: The fact that a treaty was concluded in 161 is beyond doubt.

لكن بيكرمان (Op. Cit. 785) يؤرخ التحالف في عام ١٦٣ أو ١٦٢ ق. م من دون أن يذكر الأسباب التي دعته إلى ذلك.

أهم المصادر والمراجع والمختصرات

أ ـ المصادر:

١- **الكتاب المقدس:** كتب التاريخ، دار المشرق- بيروت ١٩٨٦ (سيرمز لسفري المكابيين بـ: ١ مك و ٢ مك ثم يتبع رقم الاصحاح ويليه رقم الفقرة أو العدد).

2- Flavius Josephos, **Jüdische Altertümer** 2 Bãnde Übs. H. Clemenz 1975.

3- Flavius Josephos, **Geschichte des jüdischen Krieges** Übs. H. Clemenz 1977.

ب ـ المراجع العربية:

١- ابن خلدون: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**...الخ ٢ بيروت ١٩٧١

٢- فيليب حتي: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين** الجزء الأول ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق بيروت ١٩٥٨.

٣- المطران يوسف الدبس: **تاريخ سورية الدينوي والديني** الجزء الثاني، المجلد الثالث. بيروت ١٨٩٨.

٤- محمد عزة دروزة: **تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم** الجزء الثالث (مجموعة اخترنا لك ٨٧) القاهرة بلاتا.

جـ - المراجع الأجنبية:

1- E. Bevan, **The House of Seleucus** Vol. 11 (1902).
2- E. Bickermann, **Makkabäer bücher** RE XIV, 1 (1928).
3- Ed. Meyer, **Ursprung und Anfänge des Christentums** Band II (1921).
4- Niese, **Kritik der beiden Makkabäerlücher** (1900).
5- M. Noth, **Geschichte Israels 4. Auflage** (1959).
6- M. Rostovtzeff, **Social and Economic History of the Hellenistic World** Vol. II (1941).
7- R. K. Sherk, **Roman Documents from the Greek East:** Senatus Consulta et Epistulae to the Age of Augustus (1969).
8- E. Schürer, **Geschichte des jüdischen Volkes im Zeitalter Jesu Christi** Bd I (1901).
9- E. Täubler, **Imperium Romanum I Staats** – Verträge und Vertrags verhältnisse (1913).
10-Ed. Will, **Histoire Politique du Monde Héllenistique** Tome II (1967).
11-H. Willrich, **Urkunden fälschung in des hellenistisch** – jüdischen Literatur (1924).
12-Wolf, **Judas Makkabaios**, RE IX

د ـ المختصرات:

1- CAH: **The Cambridge Ancient History** 2nd Ed. Vol. VIII: Rome and the Mediterranean to 133 B.C. (1989).
2- F. W. G: Fischer Weltgexhichts 7: **Die Mittel- meerwelt im Altertum** (1966).
3- RE: Pawly – Wissowa Realeznytlopädie der classischen Altertums wissenschaft.

انتقال الخلافة من السفيانيين إلى المروانيين

قراءة في الروايات

د. غيداء خزنة كاتبي

الجامعة الأردنية - قسم التاريخ

انتقال الخلافة من السفيانيين إلى المروانيين
قراءة في الروايات

اتجهت العصبية القبلية في الشام إلى تأييد الأمويين في صراعهم مع أهل الكوفة، وكان انتصار معاوية بن أبي سفيان انتصاراً واضحاً للتيار القبلي.

وأظهر معاوية بن أبي سفيان قدرةً واضحة في التعامل مع هذا التيار، فتطلع إلى القبائل اليمانية، وكان زواجه من ميسون بنت بحدل الكلبية (كلب اليمانية)، سنداً قبلياً قوياً له[١]، واسترضى رؤساء القبائل القيسية[٢] فحقق بذلك قدراً من التوازن القبلي، انعكس إيجابياً في تثبيت دعائم الخلافة الأموية[٣].

ويبدو أن معاوية حاول أن يبث الفكرة[٤] بأن بيته هو الذي يصلح للحكم، وأن يرسِّخ هذه الفكرة، فلما ولي معاوية بن يزيد، قال علي الغدير الغنوي:

واقدر بقايلكم خذها يزيد فقل خذها معاوي لا تعجز ولا تلم
إن الخلافة إن تثبت لثالثكم تثبت أواخيها فيكم فلا ترم[٥]

وكان معاوية قد نادى بالشورى، وحين أراد البيعة لابنه يزيد، أظهر التزامه بالفكرة ببيعة أهل الشام له، وسفره للحجاز لأخذ موافقة أهله، وبدعوة الوفود إلى الشام[٦]. ولكن المحاولة جوبهت بعد وفاة معاوية بثورة الحسين بن علي[٧]، ثم ثورة عبد الله بن الزبير[٨]، ولم تكن ثورة أي من الاثنين على أساس الوراثة، بل على أساس الفضل والمنزلة، وعلى أساس الشورى[٩].

وتأزمت مشكلة الخلافة بعد وفاة يزيد بن معاوية، واستمرت ثورة عبد الله بن الزبير، وتدخلت عوامل قبلية وإقليمية في المشكلة، ولما كانت الشام مركز الخلافة تطلب ذلك متابعة الأحداث فيها.

ويبدو أن معاوية بن يزيد تولى الخلافة بعهد من أبيه «وكان يزيد لما عقد لابنه معاوية ألزمه الفقهاء والرواة وصرف إليه وفود العرب»[١٠].

ويحيط حياته الغموض في الروايات، التي تنسبه للتأله حيناً[١١] وللضعف حيناً آخر[١٢]. وربما كان قصر مدة خلافته، وحرص المروانيين على إثبات شرعية حكمهم سبباً لطمس ذكره في الروايات، فجاء في إحدى الإشارات أن خلافته استمرت (٤٠) يوماً، وفي إشارة (٢٠) يوماً[١٣]، وفي إشارة أياماً قليلة[١٤] وجاء في إشارة أخرى أنها استمرت ثلاثة أشهر[١٥].

وترد إشارات إلى أنه أبى أن يستخلف وترك الأمر للشورى، وهناك أكثر من رواية حول هذا الموضوع.

فيذكر عوانة بن الحكم (ت ١٤٧هـ/٧١٤م) أن معاوية قال بعد ولايته:

«....فإني نظرت في أمركم فضعفت عنه، فابتغيت لكم رجلاً مثل عمر بن الخطاب حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر، فلم أجدها، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم، ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس، وتغيب حتى مات»[١٦]. وهذه إشارة بأن معاوية بن يزيد أبى أن يستخلف ولزم منزله. وفي هذا نفي لأي حق للسفيانيين في الخلافة.

ويذكر الواقدي (ت٢٠٧هـ/٨٢٢م) في روايته عن صالح بن كيسان (ت ١٤٠هـ/ ٧٥٧م)[١٧] بأن معاوية طلب من حسان بن مالك بن بحدل الكلبي أن يصلّي بالناس «إلى أن يرضى المسلمون بإمام يجتمعون عليه»[١٨].

ويذكر القاسم بن عضاه الأشعري في روايته، بأن معاوية أبى أن يستخلف وطلب من حسان أن يصلّي أربعين ليلة، وترك الأمر للتشاور[١٩].

ولعل الأربعين ليلة هنا تتصل بالرواية التي تجعل فترة خلافته أربعين يوماً. وينفرد الواقدي برواية أخرى بأن معاوية بن يزيد خطب لما مات أبوه وقال:

«إن كان خيراً فقد استكثر آل أبي سفيان منه، وإن كان شراً فلا حاجة لنا فيه، فاختاروا لأنفسكم إماماً تبايعوه هو أحرص على آل أبي سفيان مني، واخلعوني فأنتم في حلٍ من بيعتي واستمر حتى مات»(٢٠).

يلاحظ من هذه الروايات بأن معاوية بن يزيد لم يسمِ أحداً من بعده، ودعا إلى الشورى، وواضح أن الشورى هنا أموية شامية. وإذا كانت الرواية الأخيرة تتضمن الحرص على السفيانيين، فإن جل الروايات تبين أن معاوية بن يزيد رفض الوراثة المباشرة، وتخلى عن حق السفيانيين في الخلافة ودعى إلى الشورى. أليس هذا هو ما يفيد المروانيين في الوصول إلى الخلافة عن طريق الشورى الأموية الشامية؟.

وهكذا بدا الوضع قلقاً في الشام دون خليفة أموي، بينما بويع لابن الزبير في الحجاز سنة ٦٤هـ، بل إن دمشق بدت مرتبكة أو منقسمة في واقعها. ويحسن هنا استعراض الروايات وقراءتها بدقة، لملاحظة التيارات المختلفة التي تتصل بموضوع الخلافة، سواء أكانت إقليمية أم قبلية.

يعطي عوانة بن الحكم (ت ١٤٧هـ/٧٦٤م) صورة واضحة عن الأحداث في الحجاز والشام، فيذكر أن ابن الزبير كتب إلى عامله على المدينة بإخراج بني أمية منها، «فنفوا بعيالاتهم ونسائهم إلى الشام»(٢١).

ويشير إلى مواقف الأجناد في الشام من ابن الزبير، ويقول «فثار زفر ابن الحارث الكلابي بقنسرين يبايع لعبد الله بن الزبير، وبايع النعمان ابن بشير الأنصاري بحمص لابن الزبير، ...وخرج حسان بن مالك إلى الأردن واستخلف روح بن زنباع على فلسطين، فثار ناتل بن قيس بروح بن زنباع فأخرجه، فاستولى على فلسطين وبايع لابن الزبير...»(٢٢).

ويذكر الواقدي (ت٢٠٧هـ/٨٢٢م) أنه لما بويع لابن الزبير وقف ضد الأمويين وأمر بإخراجهم إلى الشام. ويذكر أن الحصين دعى ابن الزبير إلى البيعة، فأبى

ذلك[٢٣]. ولما رجع إلى الشام لاحظ الارتباك في وضع الأمويين كما يبدو من قوله لمروان والأمويين: «نراكم في اختلاط شديد، فأقيموا أمركم قبل أن يدخل عليكم شامكم فتكون فتنة عمياء صمّاء...»[٢٤].

ويتناول المدائني (ت٢٢٥هـ/٨٣٩م) الوضع بتفصيل أكثر، فيذكر أنه بعد موت يزيد وعودة الحصين بن نمير إلى الشام، كتب ابن الزبير إلى ابن مطيع في تسيير بني أمية من المدينة. ثم يذكر مواقف الأجناد بعد موت معاوية بن يزيد فيقول: «لما مات معاوية بن يزيد ابن معاوية... علم ابن الزبير أنه لم يبق أحد يضاده فولى الضحاك بن قيس الفهري دمشق، وكان صاغياً إليه وقد كاتبه فبعث إليه بعهده وكتاب إلى من قبله يدعوهم إلى طاعته، وبعث إلى النعمان بعهده على حمص، وكان النعمان مائلاً إليه، وولى ناتل بن قيس بن زيد الجذامي فلسطين، وكان لناتل فيه هوى، ويقال: بل كان عنده بمكة فقال له: ألا تكفيني قومك، فخرج ناتل حتى أتى فلسطين وكان واليها ووالي الأردن من قبل يزيد بن معاوية حسان بن مالك بن بحدل، فبقيتا في يده وفيهما عماله فأرسل إليه ناتل: إما أن تخرج من بلاد قومي وإما أن أدخل عليك فأقاتلك فعرف ابن بحدل أنه لا قوة له به وبقومه من جذام، فخرج ابن بحدل إلى الأردن...وبويع لابن الزبير بفلسطين، وضبط له الضحاك بن قيس دمشق وأخذ له بيعة أهلها وفرق عماله فيها وأخذ له النعمان بن بشير الأنصاري بيعة أهل حمص...»[٢٥]، وبايعه زفر بن الحارث في قنسرين بعد أن أخرج منها سعيد بن بحدل الكلبي[٢٦].

أما مؤلف النقائض فيذكر في روايته أن ابن الزبير أمر بإجلاء الأمويين بعد وفاة معاوية بن يزيد على يد عبد الله بن حنظلة الغسيل، وعلق عبد الملك على تصرف ابن الزبير قائلاً: «هذا رأي انفرد به ولم يشاور أهل حُزانته*، و لو استشارهم لأشاروا عليه بغيره»[٢٧].

---

* (الحزانة عيال الرجل الذي يتحزن بأمرهم ولهم، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣ص ١١٢)

ويبدو أن ابن الزبير استشار بعدئذٍ فنصح بإعادة الأمويين، ولكنهم بلغوا الدوم (على بعد خمسين ميلاً من المدينة)، فأرسل إلى مروان يحذره الفتنة ويأمره بالعودة إلى المدينة، ولكن مروان لم يرجع، رغم تهديد ابن الزبير له في حال رفضه العودة «...لا أدع لك خضراء إلاّ قطعتها ولا بيضاء إلاّ نسفتها»[٢٨].

ثم يذكر موقف الأجناد بعد وفاة معاوية بن يزيد فيقول: «وثب كل جند على عاملهم، فوثب زفر بن الحارث على سعيد بن مالك فأخرجه من قنسرين ودعا إلى طاعة ابن الزبير...وبايع النعمان بن بشير بحمص لابن الزبير وخلع بني أمية، واستخلف حسان بن مالك بن بحدل روح بن زنباع على فلسطين ولحق بالأردن، ووثب ناتل بن قيس الجذامي فيمن تبعه من جذام ولخم يدعو إلى ابن الزبير، وأخرج روح بن زنباع من فلسطين، وبقي الضحاك بن قيس بدمشق عاملاً عليها يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ويظهر طاعة بني أمية والشكر لمعاوية، ويدس إلى هذا الحي من قيس أن ابن الزبير أولى بالأمر ثم همّ بأن يبايع لابن الزبير»[٢٩].

وتبدو هذه الرواية وهي أموية في الأساس أقرب للدقة، ولكن الإشارة إلى عبد الله بن حنظلة غير مقبولة، لأن عبد الله قتل يوم الحرة، وقد تصدق على الإخراج الأول قبل الحرة[٣٠]. أما ثورة القيسية في قنسرين على العامل الكلبي، فتبدو تعبيراً عن سخط القيسية على الأمويين لتعيين عامل كلبي عليهم[٣١].

يتبين من الروايات أن هناك صراعاً بين الحجاز والشام أو بين أبناء المهاجرين الأولين وبين أرستقراطية قريش، هذا كله في جو استعلاء وارتفاع موجة العصبية القبلية بين القبائل والأمصار، فقد بويع لابن الزبير في الحجاز ابتداءً، ثم مال إليه أمراء الأجناد في الشام وهم النعمان بن بشير الأنصاري في حمص، وزفر بن الحارث القيسي في قنسرين، ثم ناتل بن قيس الجذامي في فلسطين، أما الضحاك بن قيس الفهري فكان متردداً، إذ مال لابن الزبير سراً ولكنه كان متحفظاً في الظاهر.

أما حسان بن مالك بن بحدل الكلبي وكان على الأردن وفلسطين، ثم على الأردن لوحدها (بعد أن أخرجه ناتل بن قيس الجذامي من فلسطين)، فقد بقي على ولائه لبني أمية وبدأ يتحرك سريعاً وراح يدعو للسفيانيين.

وترصد الروايات تحركات حسان بن بحدل في الأردن، فيذكر عوانة بن الحكم (ت ١٤٧هـ/٧٦٤م) أن حسان بن مالك كان يهوى هوى بني أمية ويدعو إليهم، وخطب في أهل الأردن فقال: «يا أهل الأردن ما تقولون في عبد الله بن الزبير وقتلى أهل الحرة قالوا: عبد الله منافق وقتلى أهل الحرة في النار. قال: فما تقولون في يزيد بن معاوية ومن قتل بالحرة من أهل الشام؟، قالوا: يزيد في الجنة وقتلانا في الجنة، فقال: لئن كان يزيد يومئذ على حق إن شيعته على حق، ولئن كان ابن الزبير يومئذ على باطل إنه اليوم لعلى باطل، قالوا: صدقت نبايعك على قتال من خالفك وأطاع ابن الزبير على أن تجنبنا هذين الغلامين: خالد بن يزيد وأخيه عبد الله، فإنهما حديثة أسنانهما ونحن نكره أن يأتي* الناس بشيخ ونأتيهم بصبي»[٣٢].

ويذكر المدائني (ت ٢٢٥هـ/٨٣٩م) أن حسان بن مالك بن بحدل الكلبي «أظهر الدعاء لخالد بن يزيد بن معاوية وعزم عليه» قبل التوجه إلى الجابية[٣٣].

يتبين أن حسان بن مالك دعا ابتداءً لخالد بن يزيد، وهذا ليس بغريب، باعتباره خال يزيد بن معاوية، وكان يسعى للحصول على تأييد أهل الأردن لخالد بن يزيد ولكن يبدو أن الناس لا يريدون تولية الصبية في ظروف حرجة، ووافقوا على تأييد مرشح أموي على أن يتخلى حسان بن مالك عن خالد وأخيه لصغر سنهما.

وفي دمشق تجمع وجهاء اليمانية وتحركوا للتداول في الوضع، ودارت بينهم مناقشات حول مشكلة الخلافة[٣٤]. وفكر البعض في دمشق بمروان وبدؤوا يتحركون لصالحه.

---

* (في الطبري يأتينا، انظر الطبري، تاريخ، ج٥ ص٥٣٢)

فيشير أبو مخنف (ت ١٥٧هـ/٧٧٤م) إلى دور عبيد الله بن زياد وعبد الرحمن بن عبد الله الثقفي (ابن أم الحكم أخت معاوية)، وعمرو بن سعيد، في تأييد مروان، فقال عبد الرحمن «يا مروان اجمع إليك موالي بني أمية فأنا أسلمهم لك أجمعين»، وقال عبيد الله بن زياد «وأنا أبذل لك من المال والقوة على عدوك ماشئت»، ثم قال بعد أن سمع أنه يفكر بمبايعة ابن الزبير: «أتنطلق وأنت شيخ قريش إلى أبي خبيب فتبايعه وهو منافق مضطرب الرأي». ودعى عمرو بن سعيد – هو يمثل شعبة مهمة من الأمويين– مروان للعمل للخلافة قائلاً «أنت سيد قريش وفرعها وأنت أحق الناس بهذا الأمر» ورفض ترشيح خالد بن يزيد لصغر سنه[٣٥].

ويشير الواقدي (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) إلى دور عبيد الله بن الزبير بن زياد في دعم مروان بن الحكم وثنيه عن التفكير بالبيعة لابن الزبير، وإلى اتفاق بني أمية ومواليهم وأهل اليمن وكانوا في دمشق على مروان [٣٦]، وقبول أهل الأردن بهذا الاتفاق بمبايعة مروان لاحقاً في الجابية[٣٧].

ويتحدث المدائني (ت ٢٢٥هـ/٨٣٩م) عن دور عمرو بن سعيد ومالك بن هبيرة وحصين بن نمير وعبيد الله بن زياد في تأييد مروان، وثنيه عن التفكير في البيعة لابن الزبير، فقالوا له:«أنت شيخ بني أمية، وأنت عم الخليفة، هلم نبايعك»[٣٨].

ويشير وهب بن جرير إلى دور عبيد الله بن زياد في التأثير على الأمويين في الأردن لمبايعة مروان بن الحكم[٣٩]، وهذه رواية مرتبكة، فعبيد الله لم يذهب إلى الأردن، والأمويون لم يكونوا هناك، ولم يسبق لهم الاتفاق على بيعة خالد بن يزيد.

ويشير مؤلف النقائض إلى دور عمرو بن سعيد وعبد الملك بن مروان في دعم مروان. فقال عمرو بن سعيد عندما سمع أن مروان يفكر بمبايعة ابن الزبير: «بينا أنت المرجو وشيخ قريش إذ صرت رسولاً لأخي فهر وما أنت من الأمر ببعيد»، وقال له عبد الملك ابنه: «لست أشك مع الاختلاف الذي أرى أن الأمر صايرٌ إليك»[٤٠].

إن هذه الإشارات لا يمكن إغفالها لأهميتها في الكشف عن تحرك دمشق المبكر في الاتجاه إلى مروان وترشيحه للخلافة. وقد يكون في تكرار الإشارة إلى تفكير مروان بمبايعة ابن الزبير بعض المبالغة.

وينفرد مؤلف النقائض بالإشارة إلى أن مروان بدأ يفكر بالخلافة ويعمل لها. وربما عزز هذا التفكير بالخلافة حديث عمرو بن سعيد -ممثل الفرع الأموي الثالث- معه وحثه له على العمل للخلافة(٤١)، ويبدو أن مروان بدأ يسعى بأسلوبه للوصول إلى الخلافة ووجد في روح بن زنباع مؤيداً له.

يوضح مؤلف النقائض أن مروان نادى روح بن زنباع وكان مع وجهاء القبائل في دمشق وجلهم يمانية، وقد اجتمعوا للتداول في الوضع، وسلم عليه وقال له: «يا أبا زرعة إنك من هذا الأمر بصدد وإني لا أعلمك من أمري إلاّ ما قد علمت، أنا ابن عم أمير المؤمنين عثمان وخليفته في الدار، والذي أوصى به بعده، فلا تدع من ذكرنا ما أنت أهله. ومهما نسيت من شيء فلا تنسين أن تذكر سني ونظري وتجربتي وقرابتي بأمير المؤمنين عثمان مع الشدة في الحدود والعفاف في الإسلام وبذل ذات اليد مع قصب* ابن الزبير وجمعه ومنعه» فقال روح «أمرت بالمعروف وأوصيت كافياً»(٤٢). ثم قال له مروان «.....واذكر رحمك الله فيما تذكر شأن فضالة بن شريك وقصته وأنشدهم ما قال في ابن الزبير»(٤٣).

واجتمع وجوه القبائل في دمشق فطرح اسم ابن عمر، واسم ابن الزبير، وطرح روح بن زنباع اسم مروان ابن الحكم قائلاً: « ما يمنعكم من هذا الشيخ من قريش وهو ابن عم أمير المؤمنين عثمان وقد أمر عشر مرات ونزع عشر مرات كل ذلك لا يسخط ولا يخالف ولايُعزل عن خيانة...... أما ابن عمر فرجل قد شغلته عبادته، وأم

* (القصب: القطع والمنع. انظر أبو تمام، النقائض، ص ١٣).

ابن الزبير فمن أكثر منه غلظة وتجهماً وبخلاً! وبنو أمية أسمح أخلاقاً وأعطى لهذا المال» . ثم أشار إلى فضالة وإلى شعره الذي هجا فيه ابن الزبير.

ويذكر روح أنه مرّ بمروان فشكره على ما قال وعلق على المرشحين «والله ما ابن عمر بأفقه مني إلاّ أنه أسن مني وكانت له صحبة، وما ابن الزبير بأصلب مني إلاّ بالخلاف على الأمراء وأنا لا استحل ذلك، والاستئثار بهذا المال وجمعه ومنعه أهله، وقد علمت قريش أني أصلبها وأشدها على المريب وأغلظها في ذات الله، ولا تنسين هاتين رحمك الله»(٤٤).

تشعر هذه الروايات بأن وجهاء اليمانية تجمعوا وكوّنوا مجلساً (ملأ) لمناقشة مشكلة الخلافة لئلا تخرج من الأمويين وبالتالي من الشام، وأن ممثلي الفرع الثاني (مروان) للأمويين والثالث (عمرو بن سعيد مع بعض أقطاب مؤيديهم) شاركوا في المناقشات لإبقاء الخلافة في بني أمية، واتفقوا على أرشدهم وأكبرهم سناً وأكثرهم خدمةً وهو مروان، وتجاوزوا فكرة الوراثة المباشرة المتمثلة في خالد بن يزيد.

وبقي حسان بن مالك في الأردن واتجهت أنظاره إلى دمشق عاصمة الأمويين. وكان صاحب الأمر فيها الضحاك بن قيس الفهري. ويبدو أن حسان بن مالك علم بأن الضحاك بايع لابن الزبير سراً خوفاً من بني أمية وقبيلة كلب، فلجأ إلى الحيلة ليكشف حقيقة موقف الضحاك.

يذكر عوانة بن الحكم (ت ١٧٤هـ/٧٦٤م) أن حسان بن مالك بن بحدل الكلبي أرسل إلى الضحاك كتاباً مع رجل من كلب* يشتم فيه ابن الزبير ويعظم حق بني أمية، وأعطى الرسول نسخة أخرى من الكتاب، وأمره أن يقرأها على الناس في دمشق إذا امتنع الضحاك عن قراءة كتابه.

---

* (يقال لهذا الرجل ناعصة من ولد تغلب بن وبرة إخوة كلب. انظر البلاذري، أنساب، ج٦ ص٢٦٤.
ويقال له ناغضة انظر الطبري، تاريخ، ج٥ ص٥٣٢)

ونفذ الرسول ما أمر به، وطلب من الضحاك في المسجد ثلاث مرات أن يقرأ الكتاب، فلم يفعل، فقام وقرأ الكتاب، فأيد بعض زعماء اليمانية مثل يزيد بن أبي النمس الغساني وسفيان بن الأبرد الكلبي ومعهم الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، ما جاء في كتاب حسان وشتموا ابن الزبير.

وقام أبو رجاء عمر بن زيد الحكمي* وهو من أنصار الضحاك، فشتم حسان ابن مالك وأثنى على عبد الله بن الزبير، واضطرب أمر الناس، فأمر الضحاك بسجن الوليد بن عتبة، ويزيد بن أبي النمس وسفيان بن الأبرد. وهنا تكلم خالد بن يزيد بكلام «أوجز فيه، لم يسمع مثله» فهدأ الناس.

ثم جاءت كلب وغسان فأخرجت يزيد بن أبي النمس وسفيان بن الأبرد من السجن، وجاء خالد وعبد الله ابنا يزيد ومعهما أخوالهما من كلب، فأخرجوا الوليد بن عتبة من السجن في اليوم الذي يعرف بيوم جيرون(٤٥).

واشتدت اليمانية على الضحاك وأثقلوا عليه لتعريضه بيزيد بن معاوية ومحاولة النيل منه. واضطر الضحاك إلى التراجع عن موقفه المؤيد لابن الزبير استرضاءً للأمويين، ودعاهم للتوجه إلى الجابية ليختاروا خليفة منهم(٤٦).

ويبدو أن عوانة انفرد بمعلوماته عن يوم جيرون، بما في ذلك دور حسان بن مالك في دفع الضحاك للكشف عن موقفه، وحضور خالد بن يزيد ذلك اليوم ودوره في تهدئة الخواطر.

أما بقية الروايات كروايتي الواقدي والمدائني فلا تذكر شيئاً عن يوم جيرون، فيشير الواقدي (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) إلى أن الضحاك كان يصلي بالجماعة «حتى يجتمع أمر أمة محمد»(٤٧). ويشير المدائني (ت ٢٢٥هـ/٨٣٩م) إلى دور الضحاك

---

* (جاء في الطبري أن اسمه عمر بن يزيد الحكمي، انظر الطبري، تاريخ، ج٥ ص٥٣٣).

في إقناع مروان ليكون رسوله ببيعة أهل الشام إلى ابن الزبير، وإلى اعتذار الضحاك لبني أمية عندما انتشر هذا الأمر(٤٨)، ودعوتهم للنزول إلى الجابية «ليستخلفوا رجلاً منهم»(٤٩).

وتتحدث الروايات عن التحرك إلى الجابية واتجاهات القوى الرئيسية فيها، وتطالعنا هنا أخبار عوانة بن الحكم (ت ١٤٧هـ/٧٦٤م)، وقد وردت في البلاذري والطبري مع بعض الاختلاف في المحتوى.

يذكر عوانة -كما جاء في البلاذري- أن الضحاك وبني أمية وأهل دمشق عزموا على التوجه إلى الجابية، وفي هذه الأثناء جاء ثور بن معن بن يزيد السلمي إلى الضحاك فقال له: «عجباً لك دعوتنا إلى طاعة رجلٍ* فبايعناك ثم أنت الآن تسير إلى هذا الأعرابي من كلب ليستخلف ابن أخته خالد بن يزيد وهو صبي غمر، قال الضحاك: فما الرأي؟ قال: أن تظهر ما كنا نستره من بيعة ابن الزبير، ونقاتل على طاعته» فسار الضحاك بمن معه إلى مرج راهط وأظهر بيعة ابن الزبير(٥٠).

وتجمع الأمويون - في رواية عوانة - مع أنصارهم من اليمانية في الجابية، وقدم حسان بن مالك بن بحدل الكلبي إلى الجابية من الأردن. وتباينت الأهواء في الجابية، فمال مالك بن هبيرة السكوني إلى أن تكون الخلافة في بني يزيد بن معاوية، ومال الحصين بن نمير السكوني إلى أن تكون الخلافة لمروان بن الحكم، وحاول مالك بن هبيرة إقناع الحصين بوجهة نظره قائلاً «هلم نبايع خالد بن يزيد فقد عرفت منزلتنا كانت من أبيه»، فقال الحصين: «لا والله لا يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي» فقال مالك:

«ويحك إن مروان وآل مروان يحسدونك على سوطك وشراك نعلك وظل شجرة تستظل بها، ومروان أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة وإن بايعتموه كنتم عبيداً لهم،

---

* (الإشارة في رواية عوانة في الطبري إلى ابن الزبير، الطبري، تاريخ، ج٥ ص٥٣٣).

ولكن عليكم بابن أختكم خالد. فقال حصين: «مروان شيخ قريش والطالب بدم الخليفة المظلوم وهو يدبرنا ويسوسنا ولا يحتاج إلى أن ندبره ونسوسه، وغيره يحتاج إلى أن يدبر ويساس»[٥١].

ويذكر عوانة أنه طرحت في الجابية أسماء أخرى، فذكر بعضهم عبد الله بن عمر، فاعترض عليه روح بن زنباع لضعفه وقال «إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وصحبته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقدمه في الإسلام، وهو كما تذكرون، ولكن ابن عمر رجل ضعيف وليس بصاحب أمة محمد الضعيف». وذكر اسم عبد الله بن الزبير ابن حواري رسول الله وابن أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين، ولكنه استبعد لأنه –من وجهة نظر روح بن زنباع– «منافق خلع خليفتين: يزيد وابنه معاوية بن يزيد، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين.....» ودافع روح عن حق مروان في الخلافة لأنه حسب قوله ما كان «في الإسلام صدع قط إلاّ كان مروان ممن يشعب ذلك الصدع، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار، والذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل» فبايعوه وبايعوا من بعده عمرو بن سعيد الأشدق وخالد بن يزيد ابن معاوية[٥٢]. يتضح من رواية عوانة أن القيسية دفعت الضحاك بن قيس الفهري إلى إعلان ولائه لابن الزبير. وأنه لم يكن هناك إجماع على مرشح من الأمويين، ولكن النقاش انتهى إلى الاتفاق على مروان أولاً، ومن بعده على خالد بن يزيد وعمر بن سعيد، وفي هذا ترضية للبيوت الرئيسة الثلاثة للأمويين.

وتؤيد رواية المدائني (٢٢٥هـ/٨٣٩م) ما جاء في رواية عوانة عن ضغط القيسية على الضحاك لإظهار بيعة ابن الزبير[٥٣]. وتشير إلى النقاش بين حسان بن مالك الذي يرشح خالد بن يزيد، وبين الذين يرشحون مروان، فيذكر أن حسان اجتمع في الجابية إلى وجوه اليمانية ومنهم: الحصين بن نمير السكوني، ومالك بن هبيرة السكوني، وروح بن زنباع الجذامي، وزمل بن عمرو العذري، وعبد الله بن عضاه الأشعري، وأبو كبشة حيويل بن يسار السكسكي لعرض وجهة نظره، كما اجتمع إلى

شخصيات أموية مثل مروان بن الحكم وخالد بن يزيد وعمرو بن سعيد الأشدق وغيرهم من الأمويين. وأشار إلى ما دار من نقاش فذكر أن ابن عضاه الأشعري اعترض على ترشيح خالد ابن يزيد لصغر سنه، فقال حسان «إنه معدن الملك ومقر السياسة والرئاسة» لكن ابن عضاه لم يقتنع بذلك، وقرر هو وجماعة من وجوه اليمانية التأكد من أهلية كل من خالد بن يزيد ومروان بن الحكم للخلافة.

فذهبوا إلى خالد بن يزيد فوجدوه نائماً متصبحاً فقال: «ياقوم أتجعل نحورنا أغراضاً للألسنة والسهام بهذا الغلام وهو نائم في هذه الساعة؟ وإنما صاحب هذا الأمر المجد المشمر الحازم المتيقظ». ثم جاؤوا إلى مروان فوجدوه مستعداً بأدوات الحرب والمصحف بين يديه يقرأ القرآن، فعلق ابن عضاه «ياقوم هذا صاحبنا الذي يصلح له الأمر، وهو ابن عم عثمان أمير المؤمنين وشيخ قريش وسنها».

وعندئذٍ رجعوا إلى حسان ليخبروه بما رأوا من خالد ومروان، «واعلموه إنهم مجمعون على مروان لأنه كبير قريش وسنها». فقال ابن بحدل: «رأي لرأيكم تبع، إنما كرهت أن تعدل الخلافة إلى ابن الزبير وتخرج من أهل هذا البيت»، ووقف خطيباً وذكر مروان فقال «هو كبير قريش وسنها، وابن عم الخليفة المظلوم والطالب بدمه مثل الناس أجمعين، فبايعوه... فهو أولى بميراث عثمان وأحق بالأمر من الملحد ابن الزبير الذي خلع الخلافة وجاهر الله بالمعصية».

وعندئذٍ بايعوه «والتفّت إليه بنو أمية فقالوا: الحمد لله الذي لم يخرجها منا»(٥٤).

يلفت النظر هنا موقف حسان بن مالك بن بحدل، فقد سبق وأظهر البيعة لابن أخته خالد بن يزيد في الأردن، ولكن أهل الأردن لم يروا البيعة للصغار، وذلك قبل المسير إلى الجابية، كما أشار في روايته إلى أن مروان لم يكن يفكر بالخلافة عند الوصول للجابية، وهذا ما تنقضه المناقشات في دمشق كما جاء من قبل. والمهم في رواية المدائني أنها أكدت أن حسان بن مالك وافق في الجابية على البيعة لمروان بتأثير ابن

عضاه الأشعري ووجوه اليمانية إضافة إلى الأمويين. وهذا يشعر بحرص الأمويين ومؤيديهم على أن تبقى الخلافة فيهم دون التقيد ببيت «الحمد لله الذي لم يخرجها منا».

ويورد مؤلف النقائض معلومات مشابهة لمعلومات عوانة، عن دور حسان بن مالك وبني أمية في الجابية ولكن دون تفصيل، ثم عن موقف الضحاك والقيسية من ابن الزبير [٥٥].

يلاحظ هنا ضغط القيسية على الضحاك للبيعة لابن الزبير، في حين كان اتجاه اليمانية نحو مروان، واليمانية هم أهل الشام قبل الفتح، أما القيسية فهم حديثو عهد بالشام، والأولون أحرص على أن يبقى السلطان في الشام، كما أن جماعة دمشق أرسلوا إلى حسان بن مالك وجماعته ليأتوا إلى الجابية. ولكن الضحاك دُفع من أنصاره القيسية إلى تغيير موقفه والإعلان لابن الزبير، ومن ثم الذهاب إلى مرج راهط. ووافى حسان وجماعته إلى الجابية، وهناك وبعد نقاش تم الاتفاق على اختيار مروان خاصة وأن أهل الأردن لم يرتاحوا لتسمية الصغار، على أن يخلف مروان خالد بن يزيد بن معاوية، وعمرو بن سعيد، وفي هذا ترضية للفروع الأموية الثلاثة.

بويع مروان بالجابية يوم الثلاثاء لثلاث خلون من ذي القعدة سنة (٦٤هجرية)[٥٦]، الموافق ٢٢ حزيران ٦٨٤م[٥٧].وسار بمن معه من بني أمية وأتباعهم من الجابية إلى مرج راهط لمحاربة الضحاك بن قيس الفهري.

يذكر عوانة بن الحكم (ت ١٧٤هـ/٧٦٤م) أن مروان «نزل مرج راهط على الضحاك في أهل الأردن من كلب، وأتته السكاسك والسكون وغسان، وربع حسان بن مالك بن بحدل إلى الأردن»[٥٨].

وتنسب إلى مروان أبيات من الشعر[٥٩] قالها يوم مرج راهط[٦٠]، يذكر فيها القبائل التي كانت معه وهي: غسان وكلب والسكاسك ومذحج والقين وتنوخ وطي[٦١].

ويذكر أبو مخنف (ت ١٥٧هـ/٧٧٤م) أن مروان كان في ستة آلاف[٦٢]، في حين

يذكر المدائني (ت ٢٢٥هـ/٨٣٩م) أن اليمانية الذين ساروا مع مروان إلى مرج راهط بلغوا نحو سبعة آلاف[٦٣].

ويذكر مؤلف النقائض أن بني أمية خرجوا من دمشق ومعهم السكاسك وعنس وأفناء اليمن وقضاعة جل الناس، وعشرة آلاف رجل من موالي معاوية، حتى وافوا حسان بن مالك بن بحدل بالجابية[٦٤]. ثم يفصل في قوات مروان بعد بيعته في الجابية، فقد عسكر مروان «ومعه هذه القبائل من اليمن والسكاسك وعنس وشعبان(من همدان)، وكلب وغسان وموالي معاوية، وليس معه من قيس إلاّ ثلاثة نفر...»[٦٥] ويضيف أن مروان كتب إلى أهل الأردن فأتاه يزيد بن شجرة الرهاوي في أربعة آلاف رجل جلهم من مذحج، وأكثرهم بعد مذحج القين، فلما قدم هؤلاء وقدم عليه ما أمده به يزيد بن أبي النمس الغساني من مال دمشق والخزائن عز مروان وكثف أمره»[٦٦].

وكان يزيد بن أبي النمس الغساني قد ثار بأهل دمشق وعبيدها، فتغلب على دمشق واستولى على بيت المال، وبايع لمروان وأمده بالأموال والرجال والسلاح[٦٧].

أما الضحاك بن قيس الفهري فجل قوته قيس، ويرد ذكر سليم وعامر وذبيان (غطفان) بين القبائل التي كثرت قتلاها[٦٨]، وينتظر أن يكون بينهم ناس من جذام (قبيلة ناتل بن قيس) وبعض لخم ومركزهم فلسطين.

ويذكر عوانة بن الحكم (ت ١٤٧هـ/٦٦٤م) أن الضحاك جاء إلى مرج راهط «وأظهر البيعة لابن الزبير وخلع بني أمية...» وكتب إلى أمراء الأجناد يستمدهم، وكانوا على طاعة ابن الزبير، فأمده النعمان وكان على حمص بشرحبيل بن ذي الكلاع، وأمده زفر وكان على قنسرين بأهل قنسرين وأمده ناتل وكان على فلسطين بأهل فلسطين فاجتمعوا في مرج راهط[٦٩].

ويشير المدائني (٢٢٥هـ/٨٣٩م) إلى أن أعداد اليمانية الذين كانوا مع الضحاك قد بلغ نحو ثلاثين ألفاً[٧٠].ويبدو في هذا الرقم مبالغة واضحة إلاّ إذا كانت الإشارة إلى أعداد المقاتلة في كلا الطرفين.

ويعطي مؤلف النقائض معلومات إضافية عن الإمدادات للضحاك، فيذكر أن نـاتل بن قيس الجذامي وجه ابنه في ألفين من أهل فلسطين، ووجه النعمان بن بشير إليه ابن أبي شمر الألهاني في ألفين، وأمده زفر بـن الحـارث بطريـف بـن حسـان فـي ألفين...»(٧١).

ودارت معارك بين مروان والضحاك عشرين ليلة، هزم بنهايتها الضحـاك سـنة ٦٤هـ/ ٦٨٤م، وقتل ثمانون من الأشراف. وكانت الخسارة كبـيرة فـي الجـانبين، ولكنها ضخمة في القيسية(٧٢).

وكانت مرج راهط أول مجابهة عامة بين القيسية واليمانيـة أورثـت الحـزازات والأحقاد، قال زفر بن الحارث الكلابي:

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى	وتبقى حزازات النفوس كما هيـا
أتذهب كلب لـم تنلـها رماحنـا	وتترك قتلى راهط هي مـا هيـا
لعمري لقد أبقت وقيعـة راهـط	لحسان صدعـاً بيّنـا متنائيـاً(٧٣)

وكانت مرج راهط بداية التكتلات القبلية بين قيس ويمن، وتحول العصبية القبليـة إلى عصبية سياسية، ولكن هناك أساس يكشف عن عدم وجود مفهوم دولة مع وجـود الخلافات القبلية والتكتلات.

وربما كان من صالح الأمويين أن تنشغل القبائل فيما بينها وأن يقفوا هـم فـوق الخلاف، ولكن الخلفاء الأمويين انجرّوا في دوامة العصبية القبلية.

وقررت معركة مرج راهط أن تبقى الشام مركز السلطة، وأن تبقى الخلافة بيـن الأمويين دون الالتزام ببيت كما أراد معاوية بن أبي سفيان، وجاء مروان بن الحكـم إلى دمشق، فبايعه الناس بيعة عامة في محرم سنة ٦٥هـ(٧٤)، الموافـق آب سـنة ٦٨٤م(٧٥).

خلاصة

حاول الباحث أن يرسم تسلسل الأحداث، والظروف المحيطة بها، للتوصل إلى اختيار مروان بن الحكم للخلافة، من خلال الإحاطة بالروايات المتعلقة بالموضوع وتحليلها لإعطاء فكرة شاملة عنه.

ويتبين من البحث أن الصراع بدأ بعد وفاة يزيد بن معاوية، بين الحجاز والشام أو بين أبناء المهاجرين الأولين وأرستقراطية قريش، هذا كله في جو استعلاء وارتفاع موجة العصبية القبلية بالنسبة للقبائل والأمصار.

ويركز البحث على المفاهيم والأسس التي اتخذت في اختيار مروان بن الحكم، من حيث السن، والتجربة، والخدمة السابقة، والثبات على الموقف؛ هذا إضافة إلى التمسك بالمبادئ الإسلامية.

وهذا يعني أن مفهوم الوراثة المباشرة لم يتركز، بل كان الاتجاه إلى تركيز مبدأ الأفضل والأصلح من بني أمية ليتولى الخلافة.

فالتأكيد كان على حفظ الخلافة في بني أمية واستمرار السلطة فيهم دون التزام بآل أبي سفيان، هذا إلى رفض محاولة نقل الخلافة إلى مركز آخر غير الشام، وهكذا اختير الخليفة من الفرع الثاني للأمويين.

ويتبين من موقف القبائل في الشام، أن الأحداث أدت إلى أول تمحور بين القبائل اليمانية والقبائل القيسية، نتيجة المواجهة المسلحة بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس الفهري، فقد التف اليمانية في الأخير حول مروان في حين أخذ القيسية جانب الضحاك وابن الزبير.

ويذكر هنا أن اليمانية كانوا في الشام قبل الفتح، وأن أكثر القادمين الجدد مع الفتح وبعده كانوا يمانية، في حين يغلب على القيسية حداثة مجيئهم إلى الشام مع الفتح وبعده.

وكأن الصراع صار بين القدماء (اليمانية) وبين القادمين الجدد(القيسية).

هذا وتكشفت الأحداث عن عدم وجود مفهوم دولة بوجود الخلافات والتكتلات القبلية.

الحواشي

١- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)

أنساب الأشراف، (١٣) جزءاً، حققه وقدم له سهيل زكّار، رياض زركلي، إشراف مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر، ط١، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م. ج٥ ص٢٣.

وسيشار إليه على النحو التالي: البلاذري، أنساب.

الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م).

تاريخ الرسل والملوك، (١١) جزءاً، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ج٥ ص٣٢٩.

وسيشار إليه على النحو التالي: الطبري، تاريخ.

٢- الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٣٠٨.

٣- الدوري، عبد العزيز.

مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ط٣، دار المشرق، ١٩٨٤م، ص٦٠.

وسيشار إليه على النحو التالي: الدوري، مقدمة.

٤- البلاذري، **أنساب**، ج٦ ص٢٦٠.

٥- أبو تمام، حبيب بن أوس (ت ٢٣١هـ/٨٤٥م)

نقائض جرير والأخطل، عني بطبعها لأول مرة عن نسخة الأستانة الوحيدة وعلق حواشيها الأب أنطون صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٢م، ص٤.

وسيشار إليه على النحو التالي: أبو تمام، النقائض.

٦- انظر: الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٣٠٢-٣٠٤، ٣٢٢-٣٢٣.

٧- **المصدر نفسه**، ج٥ ص٣٤٧-٣٤٩، ٣٨٢-٣٩٠.

٨- **المصدر نفسه**، ج٥ ص ٤٧٤-٤٧٦.

٩- **المصدر نفسه**، ج٥ ص٤٩٤.

١٠- أبو تمام، **النقائض**، ص١٤.

١١- البلاذري، **أنساب**، ج٥ ص٣٨١.

١٢- **المصدر نفسه**، ج٥ ص٣٧٩-٣٨٠.

١٣- **المصدر نفسه**، **أنساب**، ج٥ ص٣٧٩. وانظر الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٠٣. أبو تمام، **النقائض**، ص١.

١٤- الخطيب التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني (ت ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م)

شرح ديوان أشعار الحماسة التي اختارها من أشعار العرب العرباء، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، جزءان في جزء واحد، المكتبة الأزهرية، ١٢٩٦هـ/١٩٢٧م، ج٢ ص٩٩.

وسيشار إليه على النحو التالي: الخطيب التبريزي، الحماسة.

١٥- البلاذري، **أنساب**، ج٥ ص٣٧٩.

١٦- الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٣٠-٥٣١.

١٧- الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، (٨) أجزاء، ط٦، دار العلم للملايين، ١٩٨٤م، ج٣ ص٩٥؛

وسيشار إليه على النحو التالي: الزركلي، الأعلام.

١٨- البلاذري، **أنساب**، ج٥ ص٣٨٢.

١٩- أبو تمام، **النقائض**، ص٦.

٢٠- البلاذري، **أنساب**، ج٥ ص٣٨٢.

٢١- الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٣١.

٢٢- البلاذري، **أنساب**، ج٦ ص٢٦٣-٢٦٤. الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٣١.

٢٣- انظر الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٣٠.

٢٤- **المصدر نفسه، تاريخ**، ج٥ ص٥٣٠.

٢٥- البلاذري، **أنساب**، ج٦ ص٢٥٨-٢٥٩.

٢٦- أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد بن الهيثم البغدادي (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)

كتاب الأغاني، (٢٤) جزءاً، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٣م، ج١٩ ص١٩٥.

وسيشار إليه على النحو التالي: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني.

٢٧- أبو تمام، **النقائض**، ص١١.

٢٨- **المصدر نفسه**، ص١١.

٢٩- **المصدر نفسه**، ص٦.

٣٠- الطبري، تاريخ، ج٥ ص٤٨٥-٤٨٦.

٣١- فلهوزن، يوليوس

تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، نقله عن

الألمانية وعلق عليه محمد عبد الهادي أبو ريدة. راجع الترجمة حسين مؤنس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ١٦٧.

وسيشار إليه إلى النحو التالي: فلهوزن، تاريخ الدولة العربية.

وانظر عاقل، نبيه

خلافة بني أمية، ط٣، دار الفكر، ١٣٩٤هـ/١٩٧٥م، ص١٢٢.

وسيشار إليه على النحو التالي: عاقل، خلافة بني أمية.

٣٢- البلاذري، **أنساب**، ج٦ ص٢٦٤. الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٣١-٥٣٢.

٣٣- البلاذري، **أنساب**، ج٦ ص٢٥٩.

٣٤- أبو تمام، **النقائض**، ص١٢-١٣.

٣٥- البلاذري، **أنساب**، ج٦ ص٢٧٢، ٢٧٥.

٣٦- الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٣٠.

٣٧- **المصدر نفسه**، ص٥٣٤.

٣٨- أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ج١٩ ص١٩٥.

٣٩- البلاذري، **أنساب**، ج٦ ص ٢٧٨.

٤٠- أبو تمام **النقائض**، ص٦, ٧، وانظر الخطيب التبريزي، **الحماسة**، ج٢ ص ٩٨.

٤١- أبو تمام، **النقائض**، ص٦.

٤٢- **المصدر نفسه**، ص١٣.

٤٣- يذكر مؤلف النقائض في رواية له عن هشام الكلبي أن فضالة قدم على ابن الزبير فلم يعطه شيئاً، فقال شعراً يهجو ابن الزبير ويمدح كرم بني أمية،

انظر: أبو تمام، **النقائض**، ص١٣-١٤.

٤٤- **المصدر نفسه**، ص١٣-١٤.

٤٥- البلاذري، **أنساب** ج٦ ص٢٦٤-٢٦٥، الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٣٢-٥٣٣.

٤٦- البلاذري، **أنساب**، ج٦ ص ٢٦٥-٢٦٦. الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٣٣.

٤٧- الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٣٠.

٤٨- أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ج١٩ ص١٩٥-١٩٦.

٤٩- أبو تمام، **النقائض**، ١٤.

٥٠- البلاذري، **أنساب**، ج٦ ص٢٦٦. الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٣٣-٥٣٤.

٥١- **المصدر نفسه**، ج٦ ص٢٦٦-٢٦٧. **المصدر نفسه**، ج٥ ص٥٣٥-٥٣٦.

٥٢- **المصدر نفسه**، ج٦ ص٢٦٧. **المصدر نفسه**، ج٥ ص ٥٣٦-٥٣٧.

٥٣- أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ج١٩ ص١٩٦.

٥٤- البلاذري، **أنساب**، ج٦ ص٢٥٩-٢٦٠.

٥٥- أبو تمام، **النقائض**، ص١٥. الخطيب التبريزي، **الحماسة**، ج٢ ص٩٨.

٥٦- البلاذري، **أنساب** ج٦ ص٢٧٣. الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٣٤.

٥٧- فلهوزن، **تاريخ الدولة العربية**، ص ١٧٨.

٥٨- الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٣٧.

٥٩- قالها مروان لما بويع وقوي أمره، أنظر **الطبري**، تاريخ، ج٥ ص٥٣٨، أبو تمام، النقائض ص١٧.

٦٠- البلاذري، **أنساب** ج٦ ص٢٧١.

٦١- البلاذري، **أنساب**، ج٦ص٢٧١، الطبري، **تاريخ** ج٥ ص٥٣٨. ويحذف مؤ

النقائض طي وتنوخ، انظر أبو تمام، **النقائض**، ص١٧.

٦٢- الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٣٩.

٦٣- أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ج١٩ ص ١٩٦.

٦٤- أبو تمام، **النقائض**، ص١٥.

٦٥- **المصدر نفسه**، ص١٦.

٦٦- **المصدر نفسه**، ص١٧.

٦٧- الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٣٧.

٦٨- **المصدر نفسه**، ج٥ ص٥٤٢.

٦٩- **المصدر نفسه**، ج٥ ص ٥٣٥.

٧٠- أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ج١٩ ص١٩٦.

٧١- أبو تمام، **النقائض**، ص١٥.

٧٢- البلاذري، **أنساب**، ج٦ ص ٢٦٩، الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٣٧.

٧٣- الطبري، **تاريخ**، ج٥ ص٥٤٢.

٧٤- **المصدر نفسه**، ج٥ ص ٥٣٤.

٧٥- فلهوزن، **تاريخ الدولة العربية**، ص١٧٨.

تاريخ الفكر العلمي اليوناني وأثره على الفكر العربي الإسلامي

«من القرن (٩-١٠) ميلادي»

الدكتور إبراهيم رزوق
قسم الفلسفة ـ جامعة تشرين

تاريخ الفكر العلمي اليوناني وأثره على الفكر العربي الإسلامي

«من القرن (٩ـ١٠) ميلادي»

مقدمة:

يهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على جذور الفكر العلمي المادي الطبيعي عند اليونانيين القدماء وأثره على الفكر العلمي العربي- الإسلامي، في القرون الوسطى، والدور الذي قام به العرب في تمثل واستيعاب العلوم اليونانية «علوم الأوائل» ومن ثم نقدها وتطويرها، وبالتالي الإبداع فيها بما يكفي لسد الحاجات المتزايدة للإمبراطورية الإسلامية الجديدة. فبالرغم من أن الإغريق أخذوا الكثير من المعارف والخبرات من الحضارات القديمة، من مصر وبابل وبلاد الشام وفارس، إلا أن الفضل الأساسي يعود إليهم في وضع المنهج العلمي الصحيح، فهم الذين أعطوا الإنسانية مثل الفلسفة والتأمل الفلسفي، حتى أن كل فيلسوف ومصلح اجتماعي جاء بعدهم مازال ينهل من ينابيع سقراط وأفلاطون وأرسطو.

فطالِس الملطي الأيوني هو أول من استطاع تكوين نظرة كونية شاملة، وأول من حاول تفسير الكون المحيط بنا بأسبابه الطبيعية، «الماء هي المادة الأصلية التي ينشأ عنها كل شئ ويعود إليها كل شيء». والفيثاغوريون هم أول من استخدم لغة الأعداد، في تفسير الكون المحيط بنا، وكان ذلك إيذانا» بميلاد لغة العلم الحديث القائمة على التكميم، حيث كانوا يعتقدون بأنه يمكن تفسير جميع ظواهر الطبيعة بدلالة العلاقات العددية. ولا شك أن التلاحق بين الثقافة اليونانية القديمة والعربية الإسلامية والتفسير الساذج والبسيط لظاهرة حركة نقل العلوم من اليونانيين إلى العرب الذي درج عليه المؤرخون منذ «ابن النديم» والذي يربط تلك الظاهرة «بمنام المأمون» الذي رأى فيه

أرسطو، والذي كان دافعاً أساسياً لنقل العلوم اليونانية إلى العرب، يعتبر تفسيراً ذاتياً بسيطاً ولا يعكس حقيقة الظاهرة المعقدة، حيث أهمل حركة التاريخ وما خلفته من ضروريات اجتماعية وتفاعلات فكرية وحاجات ضرورية، كانت وراء عقد الصلة بصورة موضوعية بين الفكر العربي الإسلامي والفكر اليوناني.

فالعلم هو نتاج ثقافي لحضارة معينة، وهو لا يظهر ويتطور إلا ضمن مجتمع وصل إلى مرحلة متقدمة من التطور الاقتصادي والاجتماعي، والشيء الهام الذي يجعل انبثاق العلم في هذا المجتمع في لحظة تاريخية معينة هو حاجة موضوعية وليس اختياراً ذاتيا وأنه تعبير عن الحاجة إلى معرفة علمية تؤدي إلى فهم أكبر لظواهر الطبيعة. فالفكر العربي – الإسلامي تأثر بالفكر الإغريقي، ولكنه لم ينقل العلم الإغريقي نقلاً حرفياً، بل أعاده إلى الحياة من جديد بعد هضمه ومزجه بالثقافة الإسلامية.

فالعرب لم يكتفوا بالترجمة والشرح والتفسير لعلوم اليونان «علوم الأوائل». بل قاموا بتمثيل واستيعاب هذه العلوم، ونقدها والتشكيك بها، وبالتالي تطويرها، والإبداع فيها بما يخدم الحاجات المتزايدة للإمبراطورية الإسلامية الجديدة.

فعصرنا الذي نعيشه هو عصر التحول، عصر الانتقال من ثقافة» الكلمة» إلى ثقافة العلم المؤدي إلى عمل، عمل في دنيا الصناعة الآلية الحديثة.

فطريقة التحول من تخلف إلى عصرية يتمثل بانتقالنا من» معرفة» قوامها الكلام إلى « معرفة» قوامها الآلة التي تصنع.

فنحن العرب نملك إرثا ثقافياً فكرياً غنياً ومتطوراً، فمن منا لا يعتز باشتراكية أبي الذر الغفاري وعلي بن أبي طالب والقرامطة، وعقلانية المعتزلة ومادية ابن سينا وابن رشد، وطروحات ابن خلدون المادية والتاريخية وديالكتيك «إخوان الصفا» وغيرهم من المفكرين القائلين بالتطور. ولكي نتطور ونقلص الفوارق العلمية بين أمتنا العربية

والأمم الأخرى يجب أن نحتك بكافة الثقافات والحضارات القائمة كما فعل أجدادنا قديماً، نأخذ منها العلوم والمعارف التي تناسبنا وتسهم في تطورنا بجهودنا وعقولنا التي أثبتت أنها متفوقة في كل شئ عندما يحسن استخدامها. فنحن العرب نظرتنا إلى الحياة ديناميكية، نظرة من يؤمن أن المعرفة الإنسانية في تزايد وتطور دائم.

أولاً: معالم في تاريخ الفكر المادي »الطبيعي« اليوناني القديم.

إن البحث عن المعرفة قديم قدم التاريخ البشري، فمع بداية التجمع الاجتماعي واستخدام الأدوات من أجل مزيد من الإرضاء للحاجات اليومية نشأت الرغبة في المعرفة، مادامت المعرفة لا تنفصل عن السيطرة على موضوعات بيئتنا من أجل تسخيرها لخدمتنا. فالعقل البشري لا يتوقف عند الحدود التي يعرفها بل يحاول أن يتعداها ليتعمق في معرفة جوهر الأشياء وطبيعتها. فهو في حركة مستمرة للوصول إلى الحقيقة المطلقة.

ومنذ القديم حاول الإنسان قهر الطبيعة والسيطرة عليها من خلال معرفته لقوانينها، لكن الإنسان لا يستطيع أن يمارس تأثيره المادي على الطبيعة إلا إذا نشأت لديه معارف صحيحة عنها[١].

وإذا كانت الطبيعة هي موضوع المعرفة الإنسانية بالدرجة الأولى، فهذه الطبيعة صنعها الإنسان أو بدل معالمها، لذلك فإن الصراع النشيط الفاعل مع الطبيعة يعد شرطاً لمعرفتها.

ومعرفتها بالتالي تتطلب صياغة قوانين موضوعية تمكن الإنسان من التحكم بها، لأن القوانين إمكانيات يخضع تحقيقها لتوافر شروط معينة[٢].

فالإنسان لا يعرف العالم من خلال التكيف البيولوجي مع الطبيعة بل يعرفه بالدرجة الأولى عندما يشرع بممارسة تأثيره العقلي عليها ويغيرها. والفكر الإغريقي

كجزء من الفكر الإنساني لعب دوراً أساسياً هاماً في بناء الحضارة الفكرية الرفيعة الأولى.وعلى الرغم من أن الإغريق أخذوا الكثير من المعارف والخبرات من الحضارات القديمة، من مصر وبابل وبلاد الشام وفارس، إلا أن الفضل الأساسي يعود إليهم في وضع وصوغ المَنهج العلمي، وفي تمييز العلم عن مجموعة الخبرات الإنسانية والمعارف الأخرى؛ فهم الذين أعطوا الإنسانية مثل الفلسفة والتأمل الفلسفي، حتى أن كل فيلسوف ومصلح اجتماعي جاء بعدهم ما زال ينهل من ينابيع سقراط وأفلاطون وأرسطو. إن هؤلاء الثلاثة مازالوا إلى اليوم رغم ما تبدى على مر القرون من نقائض فيهم وأوهام عندهم فلاسفة كل مجتمع متحضر[٣].

فمن المعروف أن أول من حاول تفسير الكون المحيط بنا تفسيراً طبيعياً هم فلاسفة اليونان القدماء. فطالِس الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد رد العالم إلى علة طبيعية واحدة هي الماء. إن الماء عنده هي المادة الأصلية التي ينشأ عنها كل شئ ويعود إليه كل شئ[٤].

فقد استطاع طالِس الملطي الأيوني أن يؤلف نظرة كونية شاملة قائلاً: بأن العالم مركب من مادة بسيطة تنمو وتتطور من تلقاء ذاتها وهي الماء[٥].

فالفلاسفة الرياضيون اليونان كانوا علماء حقاً، وهذا ما يتضح من أرصادهم الحاذقة للسماء، ومن تأملاتهم التي لا تنتهي ومن ابتكاراتهم الرياضية[٦]. ومازلنا حتى تاريخه نقدر اليونانيين جداً لأعمالهم الهامة في الرياضيات وأرصادهم الفلكية ومستوى تأملاتهم[٧].

فرغم أن الرياضيات ليست فرعاً من الفيزياء إلا أن الهندسة التي هي فرع مهم من الرياضيات والتي برع اليونانيون فيها لها صلة وثيقة بالفيزياء، وإن أهمية الهندسة للفيزياء تأتي من أن قوانين حركة الأجسام لا يمكن التعبير عنها إلا في سياق هندسي

واليونانيون القدماء لم يعرفوا سوى الهندسة الأقليدية التي لم تقتصر عملية بنائها على إسهامات اقليدس وحده، بل أسهم فيها أيضاً فيثاغورث وأود كسوس(٨).

إذ أسس فيثاغورث (٥٦٠-٤٨٠ ق.م) مدرسة للفلاسفة استمرت ما يقرب من مئتي عام وتركت أثراً عظيماً في التفكير اليوناني.

الفيثاغوريون هم أول من استخدم لغة الأعداد، في تفسير الكون المحيط وكان ذلك إيذاناً بميلاد لغة العلم الحديثة القائمة على التكميم، وقد رأوا في العدد عنصراً عاماً كلياً، لم يعد مقصوراً على ميدان خاص من البحث، بل انبسط على الوجود بأسره(٩).

والعدد عند الفيثاغوريين كل شئ، حيث كانوا يعتقدون بأنه يمكن تفسير جميع ظواهر الطبيعة بدلالة العلاقات العددية. وإن شهرة فيثاغورث تقوم اليوم على قانونه الهندسي أو نظريته الشهيرة «مربع الوتر في المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الضلعين الأخريين»، هذه النظرية التي سبقه إليها بقرون عديدة المصريون الذين كانوا يستخدمون النسبة، ٣:٤:٥ :في تعيين الزاوية القائمة في هذا البناء(١٠).

وقد جرى تعميم هذه العلاقة البسيطة التي أثبتها فيثاغورث في حالة المثلث القائم المستوي على أي عدد من الأبعاد وعلى الهندسة اللاقليدية أيضا وبتعميمها أصبحت أساساً لتأويل قوانين الطبيعة تأويلاً هندسياً، بل إن نظرية فيثاغورث في صورتها الأكثر عمومية هي بالفعل نقطة البدء في نظرية النسبية عند أنشتاين وكذلك في جميع المحاولات الساعية إلى توحيد قوانين الطبيعة على أساس من تجليات الهندسة «الزمان -المكان»(١١).

وعظمة فيثاغورث ترجع إلى أنه ومنذ القرن السادس قبل الميلاد أنشأ مدرسة فكرية أنجبت فيثاغوريين كثر، يعزى إليهم جل ما وصل إلينا مما وضعه الفكر الإغريقي من الأعداد وأنواعها فردية وزوجية، أولية ومركبة، ناقصة وزائدة، تامة

ومتحابة، ومن متواليات عددية وهندسية وتأليفية وتشكيلية، وغير ذلك مما هو معروف اليوم، الأسس الأولية لنظرية الأعداد والفحوى الجوهرية للمتواليات(١٢).

ونظراً لعظمة فيثاغورث ودوره في تطور الفكر الرياضي فقد وصفه هيراقليطس بأنه على علم غزير وحكمة قليلة، أما هرودوتس فقد اعتبر فيثاغورث من أعظم فلاسفة الإغريق الأقدمين في حين أن أرسطو يروي عنه أقاصيص مسهبة يبدو أنه هو نفسه غير واثق من صحتها(١٢).

أما اقليدس الذي عاش في الإسكندرية حوالي سنة (٣٠٠ق.م) فيعتبر أعظم رياضيي عصره ولعله أول من لقب بالرياضي. ومن أهم منجزاته كتاب وضعه في ثلاثة عشر جزءاً سماه العرب كتاب الأصول أو المبادئ « Elements »(١٣).

وقد جمع فيه معرفة اليونان كلها في الرياضيات، فكان تأثيره هائلا حتى أن الهندسة الثلاثية الأبعاد ظلت مقبولة لمئات السنين على أنها الهيكل الهندسي الصحيح الذي تصاغ في ضوئه قوانين الطبيعة. ولم يضعف شان الهندسة الاقليدية إلا عندما بدأ اعتبار رياضيي القرن التاسع عشر أمثال» نيكولاي لوباتشوفسكي، وجورج ريمان « بالتصدي لمسلمة اقليدس الخامسة التي تنص على أنه «من نقطة خارج مستقيم لا يمكن رسم سوى مستقيم واحد موازٍ له». وقد أدى نفي هذه البديهية إلى الانتقال من الهندسة الاقليدية إلى اللاقليدية الحديثة التي استنبط منها عدد من النظريات الحديثة في الهندسة(١٤).

وفي مجال الاهتمام بالظواهر الفيزيائية فقد كان ارخميدس «٢٨٧-٢١٢ ق.م» من بين جميع الفلاسفة اليونانيين الذين اهتموا بمعالجة هذه الظواهر حيث كان أجدرهم بالتقدير وأكثرهم اتصافاً بما يعد اليوم من صفات العالم. وقد أمضى أرخميدس شطراً من شبابه في مصر يتعلم الرياضيات من تابعي اقليدس المباشرين ثم عاد بعد ذلك إلى موطنه سرقسطة وأمضى بقية حياته فيها(١٥).

لقد كان أرخميدس مجرباً عظيماً ومخترعاً وتلميذاً حازقاً للطبيعة وأكثر ما اشتهر به هو اكتشافه مبدأ « الطفو» المسمى باسمه كما أنه عرف على الأرجح قانون انعكاس الضوء على المرايا في الهواء، وبرهن على مهارته الرياضية عندما بين كيف يمكن استنتاج قيمة العدد الأصم «Π» «بي» هندسياً، «أي نسبة محيط الدائرة إلى قطرها « بأي دقة يرغب بها. وقد فعل ذلك بأن قارب محيط الدائرة إلى محيط مضلع منتظم مرسوم فيها أو عليها ثم زاد عدد أضلاع هذا المضلع زيادة مستمرة وساوى بين محيط هذا المضلع ومحيط الدائرة فحصل على سلسلة لانهائية لها للعدد»[١٦].

في حين أن أرسطو «٣٨٤-٣٢٢» ق.م، أشهر تلاميذ أفلاطون الذي سبق أرخميدس بما يقرب من مائة عام، كان يعتقد بأن «الملاحظة» هي أساس دراسة العلم، مما دفعه إلى جمع المواد اللازمة لإقامة «متحف طبيعي ومكتبة للخرائط والمخطوطات»، بما في ذلك مقالاته الخاصة وآملي محاضراته. ونظم برنامجاً للبحث، مهد السبل لتأسيس تاريخ الفلسفة اليونانية الطبيعية كلها، بما في ذلك الرياضيات والفلك والطب. وكانت الرياضيات في نظر أرسطو المفتاح الذي يقدم لنا نموذجاً يحتذى فيه لتنظيم العلم، وهذا شعور ربما تكون لديه حين كان في أكاديمية أفلاطون، حيث كانت تدرس جدياً الرياضيات والمناقشات الجدلية الموجهة نحو اختبار الفروض التي وضعها العقل. وكان أرسطو يرى إن بنية العلم هي نظام بديهي تستنتج فيه النظريات استنتاجاً سليماً من المبادئ الأساسية التي بعضها خاص بالعلم «الفرضيات والتعاريف على غرار تعاريف اقليدس». وقد استحق أرسطو الثناء لما قدمه في البيولوجية من تصنيفات «نظام التصنيف» والذي ترك أثراً عميقاً في تطور علم الحياة «البيولوجيا». كما أن مذهبه في العلل الذي وضعه ليفسر به آلية حدوث الظواهر، هذا المذهب اختصر العلل إلى أربع علل مادية، صورية، فاعلة، غائية. وكان أرسطو ملاحظاً ماهراً، وهذا ما يتضح من خطط تصانيفه الحيوية، حيث ظلت إسهاماته هذه حتى الآن صالحة وجديرة بالاهتمام[١٧].

وبالرغم من أن معظم الفلاسفة اليونانيين حاولوا استخدام رياضيا تهم ليفهموا ما كانوا يتخيلون أنه بنية الكون «الهندسية» وتحيزهم للعمل الرياضي الفكري البحت « في مقابل تطبيقاته العملية» لم يمنع عدداً من الفلكيين اليونانيين من أن يظهروا فائدة التقنيات الرياضية وتطبيقاتها العملية، فقد أقدموا على حساب بعض الأشياء مثل قطر الأرض وعدد حبات الرمل حين ذاك، وقد كانت هذه الوقائع توحي بأن الرياضيات يمكن أن تكون عوناً للفلكيين تزودهم بوسائل التعبير كما عن ظواهر فيزيائية منفصلة[١٨].

فبرغم من أن فيثاغورث وأتباعه وضعوا الأرض في مركز الكون، إلا أنهم صورها على أنها كرة تتحرك على محيط دائرة صغيرة كل ٢٤ ساعة مرة.

بعد ذلك جاء أرسطوخوس الساموزي «٣١٠-٢٣٠» ق.م، الذي يعد أول من قدم نظرية تقول بمركزية الشمس في الكون، وأول من قام بمحاولة جدية بقياس بعدي الشمس والقمر عن الأرض. ولا شك أن ملاحظات كهذه هي التي قادته في النهاية إلى نموذج مركزية الشمس في المنظومة الشمسية. وقد كان لهذا النموذج تأثيرٌ كبيرٌ على « كوبر نيق « الذي يمكن التحدث عنه على أنه أرسطرخوس الحديث[١٩].

في حين أن «أبو لونيوس» البرجي «من Perga» « ٢٦٢-٢٠٠» ق. م يعد أحد كبار الرياضيين الأوائل، الذي قضى معظم حياته في الإسكندرية، حيث طور هندسة حركات الكواكب الظاهرية التقهقرية التي أدخلها بَطْلَيُمس بعدئذ بأسرها في نظريته عن مركز الأرض. كما كان لنظريته في القطوع المخروطية تأثيرها بعد ما يقرب من ١٣٠٠ عام في يوهانس كبلر «الذي رأى أن مدارات الكواكب حول الشمس هي مخروطية ناقصة»[٢٠].

وان ما أنجزه الهندسي اليوناني العظيم «ايراتوستين الاسكندراني» ٢٧٦-١٩٤ ق.م. كان عظيماً حيث تمكن من قياس محيط الأرض بدقة قريبة من المعطيات الحالية وهي «٢٤٥٠٠» ميل[٢١].

في حين أن هبارخوس «١٩٠-١٢٠» ق.م كان أعظم الفلكيين اليونانيين الأوائل، حيث مهدّت أعماله الرصدية والنظرية لعمل بطليمُس في كتابه «المجسطي»، الذي أصبح مرجع الفلكيين لمدة ١٥٠٠ عام ومن أشهر اكتشافات هبارخوس هي الاعتداليين. الاعتدال الربيعي والخريفي(٢٢). ومع أن هبارخوس كان أعظم راصد فلكي في العصر اليوناني القديم إلا أن عمله كان في طريقه إلى الضياع لولم يكتب بطليموس (١٠٠-١٧٠) ب.م كتابه «المجسطي» الذي نقل من خلاله كافة الأعمال والمكتشفات الفلكية التي قام بها اليونان الأوائل. وإن أهمية هذا الكتاب لا تقوم على معلوماته الفلكية بقدر ما تقوم على منهجيته التي أدخلها في العلم، ألا وهي التوفيق بين الأرصاد المتأنية الدقيقة والرياضيات، ومما يشهد على مهارة بطليموس الرياضية العظيمة وقوة حجته وتفكيره أنه ما من أحد استطاع أن يعرض طريقة أفضل من طريقته التي اعتمدها «طريقة دوائر التدوير لتفسير حركة الكواكب» وأن طريقته في تصنيف النجوم استمر العمل بها حتى عام ١٨٥٠ م(٢٣).

ويعد جالينوس(١٩٩) م. نهاية تلك الفترة العلمية الطبيعية الخصبة، ومكانته في الطب تماثل مكانة بطليموس في الفلك والجغرافية. وقد تأسست شهرته من خلال اتباعه لمبادئ أبقراط. وقد جمع كتاباته عن موضوعات عديدة مختلفة فيما يقرب من مائة مؤلف تحت عناوين مستقلة(٢٤).

ولا تكمن أهمية هؤلاء المفكرين اليونان الطبيعيين في ما قدموه من فكر طبيعي مادي، ولكن أهميتهم تكمن في كونهم أول من قام بوضع وصوغ المنهج العلمي الصحيح، وأول من دعى إلى تفسير الكون المحيط بنا تفسيراً طبيعياً يتجاوز الغيبيات والفكر الإسطوري الديني، الذي كان مهيمناً على البشرية. فأسهموا بذلك في توجيه الفكر البشري نحو الطبيعة عن طريق معرفة قوانينها التي من خلالها يستطيع الإنسان السيطرة عليها ووضعها في خدمته وتسخيرها لمصلحته.

ثانياً: العوامل والمؤثرات الأساسية في نشوء العلم العربي -الإسلامي:

لا شك أنه من الصعوبة بمكان الإحاطة التامة بالعوامل الأساسية في نشوء ظاهرة العلم العربي الإسلامي في عصر النهضة، وتحديداً في القرنين التاسع والعاشر للميلاد. وبغية تحديد تلك العوامل لابد من التطرق لمجموعة من القضايا والمسائل التي لها صلة بهذا الموضوع المعقّد الذي يخضع لعوامل متعددة ومتنوعة. ومن القضايا أو الأسئلة المطروحة بهذا الخصوص، مسألة ما إذا كان نشوء ظاهرة العلم العربي الإسلامي وقيام المؤسسات العلمية من مراكز الترجمة ومؤسسات تعليمية، ومراصدَ فلكية، ومستشفيات، ودوائر علمية هو تعبيرٌ عن تطور حضاري حتمي، يعكس ما وصلت إليه الحضارة العربية-الإسلامية، في ذلك الوقت، أم أنه مجرد ظاهرة ثانوية، لا تتعدى ترجمة وتكرار وشرح علوم (الأوائل) دون تمثلها ودون الإسهام في تراكم المسألة المعرفية على الصعيدين النظري والعملي ؟. وهل كانت الغلبة دائماً للعلوم الدينية النقلية على حساب العلوم الفلسفية، (العقلية) ؟. وهل مسألة الصراع بين العلوم العربية والعلوم الأجنبية، علوم المسلمين وعلوم «الأوائل»، علوم اليونان وعلوم الرحمن، المؤسسة الدينية ورجالها والمؤسسة العلمية ورجالها هي مسألة تمسّ قضية توازن القوى الاجتماعية والفكرية، أم أنها مسألة مبالغ فيها. وأن تلك المسألة، مسألة العلاقة بين الدين والعلم أو الدين والفلسفة لم تكن بالحدة التي يتصورها كثير من الباحثين ؟[٢٥].

فالباحث في تاريخ العلم العربي الإسلامي يواجه صعوبات متنوعة، ربما يكون أهمها هو أن دراسة العلوم العربية الإسلامية هي دراسة مازالت تحبو في أول طريقها في المؤسسات العلمية وفي اهتمامات الباحثين العرب المعاصرين. وإن الصورة التي أمامنا لطبيعة تطور العلم العربي الإسلامي مازالت ناقصة من جوانب عديدة، أضف إلى ذلك أن المتعامل مع ظاهرة العلم العربي الإسلامي يبدو، وكأنه يسير فوق حقل من الألغام في وسط ركام هائل من المناقشات والحوارات في مسألة العلم والحضارة

والتراث والمعاصرة وغيرها. وهذه المناقشات والحوارات لا تتم في مناخ صحي موضوعي، بل تتم وسط ضغوط حضارية ونفسية واجتماعية لا يمكن الاستهانة بها، باعتبار أن دراسة تاريخ العلم العربي الإسلامي ضمن منظور موضوعي يرتبط بحالة التردي العام للوضع الحضاري الراهن في العالم العربي، وبمشكلة البحث عن خلاص لمثل هذه الحالة، وبمشكلة الفجوة العلمية والتكنولوجية الهائلة بين العرب والمسلمين من جهة وبين الغرب المتقدم من جهة أخرى[٢٦].

لقد تطور الاهتمام بتاريخ العلم العربي وبالحضارة العلمية الإسلامية برمتها بعد الحرب العالمية الثانية ومع بداية حركة التحرر الوطني ــ حيث كان البحث عن الهوية الوطنية والقومية في مواجهة ثقافات المستعمر المتطورة الشغل الشاغل للمفكرين العرب. وفي هذا الإطار ظهرت تيارات فكرية عربية متنوعة لمعالجة ظاهرة نشوء الفكر العربي الإسلامي ــ تيارات تدعو إلى قطع الجذور مع ماضي الأمة وتراثها، أي إعلان الطلاق مع كل التراث العلمي العربي الإسلامي وتطرح مسألة الارتباط بالفكر الغربي كمخرج من الأزمة.

وتيارات أخرى تقدس التراث وترى أن كافة المسائل الملحة من «طبيعية رياضية، طبية» قد حلّها الأجداد. فالماضي بالنسبة إلى هؤلاء هو مخدة الريش المريحة التي نضع فوقها رؤوسنا المتعبة[٢٧].

وبالرغم من التفسيرات المتعددة والمتنوعة لنشوء ظاهرة العلم العربي – الإسلامي، فانه من غير المقبول الأخذ بالتفسيرات الساذجة وغير المنطقية لنشوء هذه الظاهرة المعقدة. حيث أنه من المستبعد أن يكون مرض خليفة من الخلفاء المسلمين سبباً «كافياً» لدخول علم الطب وترجمة كتبه وفتح «البيمارستانات». أو أن تكون رغبة خليفة أو حاكم معين سبباً كافياً لنشوء العلم. أو أن ظهور كتاب الغزالي «تهافت الفلاسفة» كان هو السبب المباشر لوقف النشاط الفلسفي في الحضارة الإسلامية[٢٨].

«فابن النديم» يقدم تفسيراً ساذجاً لنشوء الفكر العربي الإسلامي لا يمكن الأخذ بـه. حيث يعتقد أن سبب ترجمة الكتب العلمية والفلسفية ونقلها من اللغات الأخرى وخاصة اليونانية منها، يعود لذلك الحلم الجميل الذي حلمه «المأمون» ذات ليلة فيقــول : «أن المأمون رأى في منامه رجلاً أبيض مشرباً جمرةً واسع الجبهة مقرون الحاجب أصلع الرأس، أشهل العينين، حسن الشمائل، جالس على سريره ...قال المأمون: وكأني بيـن يديه قد ملئت له هيبة فقلت له من أنت، قال أنا ارسطاليس، فسررت وقلت أيها الحكيم أسألك ؟ قال : سل، قلت ما الحسن. قال: ما حسن في العقل. قلت ثم ماذا؟ قــال مـا حسن في الشرع. قلت: ثم ماذا ؟ قال ما حسن عند الجمهور. قلت ثم ماذا؟ قــال ثـم لا... ثم. فكان هذا المنام من أوجه الأسباب في إخراج الكتب[٢٩].

إن هذه التفسيرات الساذجة وغيرها تتجاهل الجـــذور الاجتماعيـــة والاقتصاديـــة والسياسية لنشوء العلم العربي الإسلامي. فالعلم العربي الإسلامي هو نتـــاج مباشـــر لحاجات اقتصادية واجتماعية، تستمد جذورها من طبيعة التطور الذي شهدته الحضارة العربية الإسلامية الصاعدة، في عصر النهضة الإسلامي في القرنين التاسع والعاشـــر الميلاديين[٣٠].

لقد عمل الإسلام على نشر العلم، وجاء وهو يحمل في طياته الدعوة لإشاعة العلـم بين الناس. حيث اعتبر الإسلام العلم عبادة، كما اعتبره فريضة، جعلت فدية الأســـير تعليم عدد من صبيان المسلمين. ففي الإسلام لم يقم كنهوت يحتكر العلم، ومع هذا بقي المتعلمون قلة، وظل العلماء ندرة، وبقي العلم بعيداً عن رتبة القيادة، لأن الحفظ هـــو السائد، والكتب ظلت تخط باليد، رغم أن المسلمين من عهد الحكم الأموي تعلموا مـــن الأسرى الصينيين فن الطباعة بالقوالب[٣١].

فمع قيام الإمبراطورية الإسلامية، انطلق المترجمون بحثاً عن كل مصادر المعرفة المتاحة في عصرهم ونقلوها إلى العربيـــة. وفـــي غضـــون قرنيـــن(٧٥٠-٩٥٠م)

(١٣٣-٣٣٩هـ)، تيسّر لحكام العرب بواسطة رعاياهم من مسيحيين ويهود أن يزودّوا لغتهم بخير ما أنتج الإغريق من علم. كما أفادت الحملات البعيدة إلى الشرق في نقل تراث الهند والصين إلى دار الخلافة حيث أقبل عليها الباحثون بالترجمة والدرس.فتزاوجت ثقافات متباينة وأثمرت مركباً ثقافياً جديداً. فلم يكن نقلاً أذن، بل تلاقحاً بين تلك المنابع المتعددة، فنسجت خيوطا مختلفة، وارتبط بعضها بالآخر، وأضيفت إليها صبغة جديدة[٣٢].

وقد نشأ العلم العربي في أحضان شروط ثقافية مواتية، وهي كما أشار إليها «سارتون»: سماحة الدين الجديد وبساطته واعتداله، ومرونة اللغة العربية وتمكنها من أن تكون لغة معرفة ومنطق. فقد استمرت تلك اللغة لمدة قرون طويلة لغة عالمية. وكذلك الحج كان وسيلة لجمع المسلمين على ثقافة موحدة، وأخيراً الاعتراف بالامتياز الثقافي للشعوب المغلوبة، والإفادة منها والاستعانة بها[٣٣].

فالفتوحات العربية فرضت على المجتمع خروجاً على العلاقات القبلية البدوية المحدودة الآفاق، فخلقت احتياجات أنشأت بدورها علاقات إنسانية واسعة. ونشأت مصالح تجارية متطورة وولّد اتساع الرقعة الحاجة إلى خبرات الأمم الأخرى. ولم تبدأ النهضة العلمية العربية إلا بعد انتقال الخلافة إلى بغداد، حيث التقت العقلية العربية بالفارسية وحدث تلقيح العقلية العقائدية بالعقلية النظرية.فالحسن بن الهيثم (+١٠٢٠م - ٤١١ هـ) كان عالماً رياضياً وفيزيائياً جمع بين الاستقراء والقياس في البحث العلمي، وقدّم الأول على الثاني، وحدّد الشرط الأساسي للبحث العلمي، وهو الموضوعية في طلب الحق دون تأثر بأي رأي أو عاطفة سابقة. وقد أسمى التجربة «بالاعتبار» وأسمى من يقوم بها «بالمعتبر»[٣٤].

وقد تيسّر للعرب والمسلمين بهذا المنهج أن يصلوا إلى نتائج علمية هامة. ولا تعنينا هنا تلك النتائج المباشرة بقدر ما يعنينا إضافتهم الإيجابية إلى المنهج العلمي،

فضلاً عن قيامهم بدور المعبر والجسر الذي مكّن المعرفة من اللإستمرار والنمو. وعندما تدهور السلطان السياسي للمسلمين ولحقه الكسل والتشاؤم، تأخر العلم العربي بدوره[٣٥].

وكثيراً ما يردد القول بأن رسالة العلم العربي لم تكن تعدو وسيلة مواصلات نقلت علم اليونان إلى الغرب فانطلق في تقدمه في العصور الحديثة. ولو صح ذلك لكان أصحاب العلم الأصليين هم أولى بالتقدم، ولم يحدث ذلك. بل أن الغرب نفسه لم تكن تعوزه اللغة في قراءة التراث اليوناني والإفادة منه، ولم يكن في حاجة لمن يترجمه إلى لغة أخرى، فالعربية، أشق عليه من لغة اليونان والرومان. والواقع أن العلم القديم كان في حاجة إلى حاضنة ثقافية جديدة يفرخ من خلالها في ظل أوضاع مختلفة. ولم يكن العرب مجرد ضمين لهذا العلم، بل لقد استطاعوا أن ينقلوا عن غيرهم ثم تمثلوه ثم أبدعوا شيئاً جديداً. والعلم العربي هو إحدى حلقات السلسلة الثقافية التي نعيشها اليوم. وقد كانت الثقافة العربية جسراً، أو بالأحرى الجسر الوحيد الرئيسي بين الشرق والغرب. فأوصلت الرياضيات الهندية والورق الحرير والخزف الصيني إلى أوربة. وربطت بين البوذية في أقصى الشرق وبين اليهودية والمسيحية في الغرب[٣٦].

فالعلم، هو نتاج ثقافي لحضارة معينة، ولا يمكن أن يتطور إلا ضمن مجتمع وصل إلى مرحلة متقدمة من التطور الاقتصادي والاجتماعي، والذي يجعل انبثاق العلم في هذا المجتمع في لحظة تاريخية معينة حاجة موضوعية، وليس اختياراً ذاتياً، وأنه تعبير عن الحاجة إلى معرفة علمية تؤدي إلى فهم أكبر للظواهر الطبيعية والإنسان.

فتطور علم الجغرافية على يد الجغرافيين المسلمين لا يمكن أن يعود إلى مجرد الاهتمام الشخصي لهؤلاء في معرفة أحوال البلاد والعباد، أو لترجمة كتب بطليمُس الجغرافية أو غير ذلك من الأسباب الأحادية، وأن تطور هذا العلم يعود لتوسيع حدود الدولة الإسلامية، الذي يتطلب معرفة جغرافية بتضاريس البلدان الجديدة وممراتها.

المائية وأحوال سكانها الاقتصادية ... الخ فعلى سبيل المثال، فان قتيبة بن مسلم الباهلي عند غزوه لمدينة بخارى واجهته مشكلة عدم معرفة لهذه البلاد وتضاريسها وعاداتها، فأرسل إلى الحجاج بن يوسف الذي كتب لقتيبة أن يرسم صورة أو خريطة لمدينة بخارى والمدن المحيطة بها ليسهل عليه دخولها(٣٧).

وفي وصف ابن حوقل لمدينة برقة مثلا، تفاصيل كثيرة عن تجارة هذه المدينة فهي: «...بها من التجارة وكثرة الغرباء في كل وقت مالا ينقطع طلابا لما فيها من التجار وعابرين عليها مغربين ومشرقين، وذلك أنها تنفرد في التجارة بالقطران الذي ليس في كثير من النواحي، والجلود المجلوبة للدباغ بمصر والتمور الواصلة إليها»(٣٨).

فعلم الجغرافية بدأ بدراسة كتب بطليمس وغيرها ودراسة الخرائط التي وضعها اليونان، لكن المسلين الذين كانوا بحاجة إلى علم الجغرافية لأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية، فارقوا اليونان وطوروا هذا العلم بحسب حاجاتهم على يد ابن خرداذبة والأصطخري والهمداني وغيرهم. وسار تطور علم الجغرافية بخط متواز مع تطور علوم الفلك والحساب والهندسة وصناعة الاصطرلاب والبوصلات والسفن البحرية وإقامة المراكز الفلكية(٣٩).

وإن ما ينطبق على علم الجغرافية ينطبق على كافة العلوم الرياضية برمتها، من فلك وهندسة وجبر وغبرها......

فاخوان الصفا في بغداد، في «القرن العاشر الميلادي الرابع الهجري»، صنعوا مثل ما صنع فيثاغورث، فوضعوا تعاليم فكرية وثقافية تبادلوها في حلقة مغلقة قاصرة على المريدين، محاطة بسياج من السرية، وبسبب هذه السرية لم تلق حركة اخوان الصفا، في العلم الإسلامي ترحيبا، بل لقيت ريبة وحذرا، مخافة أن يكون في باطنها

أفكار مذهبية أو سياسية هدامة. وقد وضع أخوان الصفا إحدى وخمسين رسالة نجدها اليوم في أكثر من طبعة ونجد حولها أكثر من دراسة(٤٠).

والرياضيات تطورت على يد أبي يونس والخوارزمي وأبي الحسن الإقليدي والكاشاني والكرخي والطوسي وابن الهيثم وغيرهم. فهؤلاء لم يكونوا مجرد نقلة أو شارحين للعلوم الرياضية عند اليونان، بل إن حاجات التطور الاقتصادي والاجتماعي للحضارة العربية الناشئة، لعبت دورها كقوة ضاغطة لتطور العلوم الرياضية سواء من الناحية النظرية أو العلمية.

وفي علم الفلك، فإن أول الترجمات العربية التي قام بها العرب في علم الفلك هي التي تناولت المصادر الهندية والفارسية مثل زيج السند ـ الهند، وزيج الشهريار. ثم بعد ذلك ترجموا التراث اليوناني الفلكي وخاصة نظام بطليموس، وقاموا بعد ذلك بمقارنات ودراسات عديدة للقيم العددية التي يذكرها الهنود والفرس واليونان في المراصد الفلكية الإسلامية في ذلك الوقت، وكان من نتيجة هذه الدراسات العملية والمقارنات، أن طرحوا أنظمة جديدة مبتكرة وقامت أرصاد مهمة مثل أرصاد يحي بن أبي منصور وحبش الحاسب لمواقع الكسوف والخسوف، بل والكواكب السيارة في بغداد وأرصاد أبي يونس في القاهرة وأرصاد الخوارزمي في خوارزم وغيرها(٤١).

أما في الحساب، فقد اعتمد العرب على ثلاث مصادر أجنبية: هي الحساب الهندي، والحساب الستيني ذي الأصل البابلي – الذي نقل عن طريق اليونان – ثم حساب ما يسمى حساب اليد أو حساب الكتاب.

وكان من نتيجة ذلك، أن أوجد العرب نظاماً رياضياً موحداً نجده واضحاً في كتاب أبي الحسن الإقليدي وفي كتاب مفتاح الحساب لغياث الدين الكاشي. وربما يكون المثل الأكثر وضوحاً هو علم الجبر، الذي كتبه الخوارزمي بطريقة مبتكرة تختلف عما كتبه

اليونان والهنود وغيرهم.فجاء كتابه في الجبر ليشق طريقاً جديداً في العلم الذي تطور بعد ذلك على يد أبي كامل المصري والكرخي والسموأل والطوسي[٤٢].

فالدراسة التي قام بها روبرنتسي وكيندي في عام ١٩٥٧ أكدت بأن الهيئة التي عرضها الطوسي في تذكرته لحركة القمر والزهرة والكواكب العليا الثلاثة، المريخ، والمشتري، وزحل، كانت مجرد بداية أتمها علماء مراصد «مراغة» وعلى رأسهم قطب الدين الشيرازي ومن بعدهم ابن الشاطر في دمشق. واكتشف الباحثان أن هيئة كوبرنيكس تشبه إلى حد كبير هيئة ابن الشاطر، وأن الحيلة الهندسية التي استعملها كوبرنيكس هي نفس الحيلة التي استنبطها الطوسي[٤٣].

ونتيجة لتطور الطب بشقيه النظري والعملي في الحضارة الإسلامية، فقد أدى هذا التطور إلى ظهور الموسوعات الطبية الكبيرة، مثل كتاب الحاوي للرازي أو، كتاب القانون لابن سينا، كما اشتهرت الكتب المبسطة التي يستطيع العامة استخدامها دون اللجوء إلى أطباء، مثل كتاب «إلى من لا يحضره الطبيب» ويعرف بكتاب «طب الفقراء»[٤٤].

وفي هذا المجال، قام يوحنا بن ماسويه بتشريح القرود بهدف الدراسة، واستخرج الأطباء المسلمون أمعاء الحيوانات لخياطة الجروح. ولدينا كتب حول هذه المواضيع مثل كتاب «ثابت بن قرة» كتاب في تشريح بعض الطيور[٤٥].

لذلك نرى أن التطور الحضاري للإمبراطورية الإسلامية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وتوسعها وتعدد الأجناس فيها، والأقوام، ودخول العلوم الجديدة إليها لأول مرة، منقولة إليها من الفارسية والهندية والسريانية واليونانية عبر حركة الترجمة الواسعة، التي كانت في حد ذاتها تعبيراً عن الحاجة لعلوم جديدة تتفق مع طبيعة التطور الذي شهده ذلك العصر. وبذلك كانت الحضارة الإسلامية بحق الوريث الشرعي للمراكز العلمية التي كانت مزدهرة في عصور سابقة على قيام الحضارة

العربية الإسلامية.فقد استفاد المسلمون من تراث مدرسة الإسكندرية ومن المراكز العلمية في إنطاكية وحران ونصيبيين والرها وجنديسابور، وكانت مدرسة الإسكندرية من أهم مراكز الحضارة الهيلينية ـ البيزنطية. حيث كان الفكر الأرسطي الفلسفي ومؤلفات أيقراط وجالينوس الطبية أساس المنهج التعليمي هناك. وفي الإسكندرية سيطرت رياضيات إقليدس وكتابه «أصول الهندسة» الذي يدرسه اقليدس نفسه. وكذلك كتاب المجسطي لبطليمس. وقام أرخميدس بتدريس العلوم الميكانيكية في تلك المدرسة، التي أثرت تأثيرا هائلا في انتقال العلوم اليونانية للمسلمين. كذلك نقل المسلمون من مدرستي إنطاكية وحران وما ورثاه من تقاليد مدرسة الإسكندرية. ومن حران بالتحديد انتقل إلى بغداد عدد من العلماء، مثل ثابت بن قره وولده سنان والبتاني. وعن طريق مدرسة جنديسابور في فارس، انتقل التراث العلمي الهندي والتراث اليوناني بعد هجرة عدد من العلماء من أثينة إلى هذه المدرسة. وقد نقل المسلمون إلى عاصمتهم الجديدة عددا كبيرا من الكتب من جنديسابور. كما لعب علماؤها دورا هاما بعد انتقالهم إلى بغداد، وخاصة في الطب وفي حركة الترجمة، فقد اشتهر من أطبائها ومترجميها في بغداد جورجيس بن بختشوع وجبرائيل بن بختشوع ويوحنا بن ماسويه.

والى جانب كون الحضارة العربية الإسلامية شكلت وريثا شرعيا للمراكز العلمية السابقة عليها، فإن حاجات التطور الجديدة فرضت على هذه الحضارة إقامة مؤسساتها العلمية الخاصة بها[٤٦].

فالعلماء المسلمون لم يكونوا مجرد شارحين ناقلين مكررين لعلم الأوائل، بل أنهم ترجموا هذه الكتب ودرسوها وتمثلوها ونقدوا نتائجها وأصلحوا ما أمكن إصلاحه، وأقاموا معرفة جديدة بما يتفق مع إمكاناتهم وحاجاتهم ومستوى التطور الاقتصادي والاجتماعي لعصرهم، الذي عاشوا فيه. لذلك فقد عبر واحد من أشهر مؤرخي العلم في عصرنا عن هذه الحقيقة بالقول: «إن العلم الإسلامي لم ينقل العلم الإغريقي نقلا

حرفياً بل أعاده إلى الحياة من جديد بعد هضمه ومزجه بالثقافة الإسلامية، أي أنه مـو بنفس العملية التي مر بها تراث الشرق القديم عندما هضمه وتمثله الفلاسفة الإيونيـون الأوائل(٤٧)».

لذلك نرى أن نشوء الدولة الإسلامية الجديدة وتطورهـا الحضـاري فـي كافـة المجالات الحياتية «الاجتماعية والرياضية والفلكية والطبية»، يتطلب تطـوراً علميـاً مرافقاً في خط متصاعد مع هذه التطورات الكبيرة، في نمط حياة دولة جديدة توسـعت أركانها وأصبحت عاصمتها منطقة جذب حضاري لكل العقول القـادرة علـى سـد الاحتياجات المتزايدة للدولة في شؤون الإدارة والطب والجغرافيا والفلـك والجيـش والصناعة والزراعة وغيرها. فلم تعد علوم الخطابة والشعر، بـل لـم تعـد العلـوم الإسلامية وحدها كافية لسد حاجات التطور الجديدة، ولم يعد التنظيم الاجتماعي القديـم والنشاط الرعوي والاقتصادي البدائي المعتمد على نظام التبادل والمقايضة قادراً على الاستمرار في دولة مدنية تعتمد على نظام اقتصادي جديد يعتمد على التجارة. لذلـك كان لا بد من أن تتطور كافة العلوم لسد الحاجات المتنامية للدولة الإسلامية الجديدة.

ونتيجة لهذا التطور، لم تعد الخرافات «الكرامات» تلقـى رواجـاً كبـيراً بيـن الجماهير، وبالتالي فان وجود تيار عقلاني يأتي ضمن منطق الضرورة رغم ما يثـار من شكوك حول الدوافع الحقيقية لنقل الفلسفة والعلوم.

فظاهر الأمر أن الأمراء العباسيين تفهموا الحضـارات الأخـرى وأرادوا إغنـاء العلوم العربية بالعلوم الفارسية والهندية واليونانية. وخصوصـاً «اليونـان»، وكـان الفارق كبيراً بين ما ينزع إليه الناس بحكم الطبع الموروث، وبين ما نقل من الثقافـة اليونانية، وبرغم هذا الفارق الكبير نقلت ثقافة اليونان، ورحبت بها الصفوة المفكـرة كما رحبت بها الدولة الرسمية. وحدث بذلك تعارض بين صوفية الدراويش وعقليـة العلماء. فالأسلاف نقلوا عن اليونان فلسفتهم وعلومهم وسرعان ما أطلق عليها اسـم «علم الأوائل» تلك صنوف العلم على اختلافها، من علوم رياضية وعلوم طبية وفلكية

والهية، ورحب بتلك العلوم جماعة أرادت أن تستخدمها دفاعاً عن دين الإسلام ضد أعدائه(٤٨).

وجماعة أخرى استفادت من هذه العلوم وقامت بإعادة صياغتها بقوالب علمية جديدة تلبي الحاجات المتزايدة للدولة العربية الإسلامية الناشئة، في كافة المجالات والاختصاصات العلمية المتنوعة، الهندسية، والطبية، والرياضية، والاجتماعية ...»

ثالثاً: موقف فقهاء الإسلام ورجال الدين من العلوم الجديدة » الدخيلة على علوم المسلمين:

من المعروف أن ظهور العلم مشروطاً بالرحم الحضاري الذي ينشأ فيه، وبتوفر الرعاية اللازمة لنشوئه وتطوره. هذا العلم الذي نشا في حضارة معينة وتتوفر له شروط التقدم سيجد نفسه في الوقت ذاته في صراع مع أطراف معينة من الموروث الثقافي لتلك الحضارة، وخاصة الدين. فالموروث الثقافي، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يرحب بالقادم الجديد ويحتفل بقدومه. وهذا الأمر لا ينطبق على الحضارة الإسلامية فقط، بل هو قاعدة عامة، كما حدث في أوروبة أثناء صراع العلم الحديث إبان الثورة الصناعية الكبرى بزعامة الطبقة البرجوازية الجديدة، وبين الموروث الثقافي بأشكاله الإيديولوجية بوجه عام، والدينية بوجه خاص(٤٩).

فالعلم عندما يتقدم فأنه يكسب أرضاً ثابتة على حساب أطراف أخرى في الموروث الثقافي والحضاري للثقافة التي نشأ فيها، وهذا ما حدث في الحضارة الإسلامية دون شك. فمدلول «العلم» لدى الفقهاء المسلمين يعني بوجه عام «العلم الديني». فابن تيمية يؤكد على أن «العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يستحق أن يسمى علماً. وما سواه، أما أن يكون علما فلا يكون نافعاً، وأما ألا يكون علماً وأن يسمى به......ولئن كان علماً نافعاً فلا بد أن يكون في ميراث محمد صلى الله عليه وسلم»(٥٠).

فالمتطرفون من أهل السنة وأتباع السلف، لم يكونوا ينظرون نظرة الرضى إلى أي فكر دخيل، «فالعلم» عندهم لفظة لا تعرف إلا معنى واحد، وهو العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم، أما عدا ذلك فهو إما خارج عن مجال العلم إطلاقاً، وإما هو معرفة لا تنفع ولا تستحق التحصيل، لا، بل إن مثل هذه المعرفة الدخيلة التي لا تنفع، قلما يقف أمرها عند هذا الحد السلبي، إذ يغلب أن تجاوزه إلى ضرر فعلي، لأنها كثيراً ما تميل بحاملها إلى الاستخفاف بالدين ودراسته[٥١].

فالعلم المقصود عند الغزالي هو العلم بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله. فالمقصود الأقصى هو «العلم بالله»[٥٢].

ومما لا ريب فيه أن المتعصبين من الفقهاء ورجال الدين الإسلامي يدينون النظر الفلسفي، بشكليه المادي والمثالي على السواء. فالفلاسفة كما يقول أبو بكر الخوارزمي، «أجهل خلق الله وأحمق الناس» فأساس الإلحاد والزندقة مبني على مذهبهم، والكفر كله شعبة من شعبهم، ورئيسهم أفلاطون الملحد[٥٣].

وهناك أقوالٌ كثيرة منسوبة إلى السلف، تعارض النظر العقلي الكلامي، وتصف المتكلمين إنهم «شر الخليقة»، الغالب عليهم الزندقة[٥٤].

ويتهم ابن الجوزي أصحاب الكلام بأن علمهم «أفضى بأكثرهم إلى الشكوك، وببعضهم إلى الإلحاد[٥٥]». فابن الصلاح معروف بعدائه للفلسفة وللفلاسفة، وفي مقالته المشهورة «الفلسفة أس السفه والإنحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة. ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهّرة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة، ومن تلبس بها تعليماً وتعلماً قارنه الخذلان ...والحرمان واستحوذ عليه الشيطان.. وأي فن أخزى من فن يعمي صاحبه عن نبوّة نبينا محمد[٥٦]».

لم يكتف ابن الصلاح بالهجوم على الفلاسفة والمشتغلين بها بل يحرض الحكام على اضطهاد الفلاسفة فيقول: «فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شرّ هؤلاء المياشيم، ويخرجهم من المدارس ويبعدهم ويعاقب على الاشتغال بفنهم، ويعرض من ظهر عنه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام لتخمد نارهم ويمحى أثارها وأثارهم. يسر الله ذلك وعجله، ومن أوجب هذا الواجب عزل من كان مدرس مدرسة، من أهل التصنيف فيها والإقرار لها ثم سجنه وإلزامه منزله. وإن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم، فان حاله تكذيبه، والطريق في قلع الشر قلع أصوله وانتصاب مثله مدرساً من العظائم جملة...[٥٧]».

أما الإمام الصنعاني فيربط بين علوم اليونان وبين البدع فهو يشكو في كتابه «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» من أنه نبغ في هذا الزمان من عادى علوم القرآن... وحثّ الرجوع في ذلك إلى معرفة قوانين المبتدعة اليونان[٥٨].

ويصف ابن المرتضى، الحسن البصري بأنه «كان للبهاشمة عنده نفرة لأمرين أحدهما أنه دنس نفسه بشيء من الفلسفة وعلوم الأوائل»[٥٩].

وابن تيمية معروف بعداوته للفلسفة والمنطق وله مؤلفات في الرد عليهما، وتاج الدين السبكي يقف في خصومة الفلسفة موقفاً حاسماً، وإن يكن قد خفف هجمته بالنسبة إلى المنطق، فلم يحرّمه تحريماً كاملاً، فيكفي أن اشتغل به أئمة سابقون كالغزالي، وأما السيوطي فيحرم الإشتغال بالمنطق قائلاً عن نفسه: «كنت في مبادئ الطلب قرأت شيئاً في علم المنطق، ثم ألقى الله كراهيته في قلبي، وسمعت أن ابن الصلاح الشهرزوري أفتى بتحريمه، فتركته لذلك، فعوضني الله تعالى عنه علم الحديث الذي هو أشرف العلوم»[٦٠].

وبالرغم أن ابن تيمية من أكثر الشخصيات السلفية تهجماً على العلوم الفلسفية، فانه في الوقت ذاته يفرق بين العلوم المختلفة فيستحسن العلوم الطبيعية ويؤكد أن كلام

الفلاسفة في الطبيعيات غالبه جيد وهو كلام كثير واسع ولهم عقول عرفوا بها ذلك، وهم يقصدون الحق لا يظهر عليهم العناد ولكنهم جهّال بالعلم الإلهي إلى الغاية[٦١].

أما العلوم الرياضية فان ابن تيمية يؤكد أهميتها ويعتبرها من العلوم التي تشحذ العقل وليست من الأشياء المذمومة، بل إنه يعتبرها ضرورية لعلوم الفرائض وقسمة التركة والمواريث وغيرها. لهذا السبب نجد أن دوافع ابن تيمية الحقيقية من مدافعة ومعاداة بعض العلوم الفلسفية هو تأثير هذه العلوم على الإيمان الديني وخاصة البحث في مسائل ما بعد الطبيعة، أما البحث في الطبيعيات والرياضيات والطب وغيرها فإنها من الأمور المحمودة لدى ابن تيمية[٦٢]. وإن ما قام به...ابن تيمية من نقد لمنطق الأرسطي لم يكن يطمح من خلاله الوصول إلى معرفة جديدة، أو لوضع مناهج بحث جديدة على أنقاض المنهج القديم، فإن نقد ابن تيمية كان يهدف العودة للمصادر الأصلية للإسلام من قرآن وحديث والعودة للعلوم الشرعية كالفقه والأصول وغيرها. لكن هذه المحاولة الجريئة و الصاخبة لابن تيمية وخاصة في كتابه كتاب الرد على المنطقيين، كتاب نقض المنطق[٦٣]. وكتاب «درء تعارض العقل والنقل»[٦٤]. وكتابه «كتاب نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان»[٦٥].

ولا شك بأن عدم اكتفائه بتحريم المنطق كانت بحد ذاتها خطوة إيجابية لإزالة روح الرهبة التي عامل بها علماء المسلمين منطق أرسطو وعلوم الأوائل، وكانت خطوة إيجابية ساعدت على نشر المنطق الأرسطي نفسه في الدوائر الفقهية غير المطلعة عليه[٦٦].

والإمام الغزالي الشخصية الدينية الهامة التي كان لها أثر كبير في الفكر العربي الإسلامي، يعّد من أكثر الفقهاء المسلمين عداوة للفلسفة من خلال كتابه «تهافت الفلاسفة». وعلى الرغم من نظرته الموضوعية التي فرقت بين علوم وعلوم، فلم تجد بأساً من دراسة الرياضيات والمنطق من بين فروع الفلسفة، لكونها دراسة لا تتعرض

في حد ذاتها للأمور الدينية نفياً ولا إثباتاً. وعلى الرغم من موقفه هذا، فقد حذّر من خطر الرياضيات والمنطق من آفات قد تنجم عنها تضر بالعقيدة، لهذا السبب لم يشأ الغزالي أن يستخدم كلمة «منطق» في صورتها اللفظية الصريحة، كعنوان لمؤلفاته المنطقية، كأنما أراد لها ألا تلفت النظر بعنوانها، مادام مثل هذا اللفظ قد اقترن في أذهان المحافظين بالمقت والكراهية، لذا أخذ يختار لمؤلفاته المنطقية أسماء مثل «معيار العلم» و«محك النظر»[٦٧]......الخ.

مع كل هذا، فقد حرص الغزالي في دراسته المنطقية أن يبين بطريق غير مباشر نفع المنطق في الدراسات الفقهية، بأن جعل يسوق أمثلته من الفقه، وهذا ما كان واضحا في كتابه «المستصغى» الذي جمع فيه ما أراد أن يقوله في أصول الفقه، وقدم للكتاب بمقدمة لخص فيها جوانب المنطق الأساسية[٦٨].

فالغزالي كان يدافع عن العلوم الرياضية بشدة، فهي علوم «ليس يتعلق شيء فيها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً، بل هي أمور برهانية لا سبيل لمجاهدتها بعد فهمها ومعرفتها»[٦٩].

وهو يحذّر من معاداة العلوم الرياضية باسم الدين «لقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه للأمور الدينية»[٧٠].

أما بالنسبة للعلوم الطبيعية، فان الغزالي يقسمها إلى علم السماء، علم النجوم، علم الحيوان، علم النبات علم المعادن، والعلاقة بين هذه الأقسام وأسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها. ودراسة العلوم الطبيعية هو أمر محمود، لكن الغزالي يحذر فقط من مسألة واحدة تتعلق بالإيمان الديني، وهي مشكلة الإيمان بالسببية الطبيعية بمعزل عن كون الله علة وسبب حدوث الأشياء وتغيرها في الطبيعة[٧١].

أما موقفه من المنطق فإنه شبيه بموقفه من العلوم الرياضية، فالمنطق لا يتعلق بالدين نفياً أو إثباتاً، بل هو كما يقول الغزالي في مقاصد الفلاسفة يحث على تعلم

المنطق، فإن فائدة المنطق اقتناص العلم، وفائدة العلم حيازة السعادة الأبدية. فإذا صح رجوع السعادة إلى كمال النفس بالتزكية والتحلية، صار المنطق لا محالة عظيم الفائدة[٧٢].

أما الإمام «ابن حزم» رأس المذهب الظاهري في الأندلس فانه كان من المؤيدين لكافة العلوم بدون استثناء، لكونها لا تتعارض مع الدين. حيث يرى أنه «ليس في الشرائع علة أصلاً بوجه ما من الوجوه، ولا شيء يوجبها إلا الأوامر الواردة من الله عز وجل فقط، إذ ليس في العقل ما يوجب تحريم شيء ما في العالم وتحليل آخر، ولا إيجاب عمل وترك إيجاب آخر، فالأوامر موجبة لما وردت به فإذا لم ترد فلا سبب يوجب شيئاً أصلاً ولا يمنعه»[٧٣].

والعلوم في رأي ابن حزم تنقسم أقساماً سبعة عند كل أمة وفي كل زمان ومكان. وهي على شرعية كل أمة، وعلم أخبارها، وعلم لغتها، والعلوم الأربعة الباقية تتفق فيها الأمم كلها وهي علم النجوم، وعلم العدد، والطب وعلم الفلسفة، وهي معرفة الأشياء على ما هي عليه من حدودها[٧٤]. فالعلوم برأي ابن حزم حاجة موضوعية لا بدّ منها. وهي حاجة ماسة للجماعة، ومن هنا دافع ابن حزم عن العلم وطالب المسلمين بالنظر في العلوم المختلفة بروح التسامح وبتجرد عن الأهواء ودون إطلاق الأحكام المتسرعة فيقول: أنه رأى «طوائف من الخاسرين شاهدهم أيام عنفوان طلبه وقبل تمكن قواه في المعارف ...يقطعون بظنونهم الفاسدة من غير يقين، نتيجة بحث موثوق به، على أن الفلسفة وحدود المنطق منافية للشريعة[٧٥]».

فالشيء الذي لا يمكن نكرانه، أن المسلمين نقلوا عن اليونان فلسفتهم وعلومهم وسرعان ما أطلق عليها اسم «علوم الأوائل»، أو علوم القدماء، ليعارضوا بينها وبين ما هو «علم العرب». وكانت علوم الأوائل تشمل مختلف صنوف العلم على اختلافها، رياضية وطبيعية، وإلهيات، وما اشتملت عليه هذه الأقسام من طب وفلك وموسيقى

وغيرها. وقد رحبّت «بعلوم الأوائل» أو ما يسمى «العلوم الدخيلة» جماعة من الفقهاء والمفكرين المسلمين، وأرادت أن تستخدمها دفاعاً عن دين الإسلام عقيدة وشريعة ضد أعدائه. وجماعة أخرى، رأت في تلك «العلوم الدخيلة» خطراً كبيراً على الدين الإسلامي وشرائعه. وبالرغم من تلك المواقف فان الدولة الإسلامية الجديدة التي نشأت وتطورت في مختلف جوانب الحياة، كانت بحاجة ماسة إلى تطور علمي يواكب هذه التطورات في حياة الدولة الجديدة ويسد احتياجاتها المتزايدة، في كافة شؤونها الإدارية، الطبية، الزراعية، الصناعية، الفلكية، الجغرافية، العسكرية. فالعلوم الإسلامية كافة من خطابة وشعر وغيرها لم تعد كافية لسد حاجات التطورات الجارية في جسد الدولة العربية الإسلامية الفتية.

لذلك كان لا بد من تشجيع للعلوم المتنوعة لهذه الغاية. الرياضيات ضرورية لمعرفة أوقات الصلاة، وتقسيم المواريث، والفلك ضروري لتطور علم البحار والزراعة والجغرافية، ولهذا السبب انتشرت المراصد الفلكية التي لعبت دوراً في حياة الإمبراطورية الإسلامية، فالهندسة ضرورية لأعمال المساحة، ومعرفة أوضاع العقارات، وتطور علم الحيل «الميكانيك» دليل على التطبيقات الواسعة للعلم العربي الإسلامي على الواقع، هذا الأمر تنبه إليه عدد من المفكرين المسلمين حيث نوهوا إلى ضرورة ارتباط العلم بالواقع والتطبيق، وتطور العلم مرتبط بتطور الحضارة، هذا الرباط الذي لا فكاك منه والذي يؤكد على مسيرة الارتباط بين تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية للدولة الإسلامية بتطور العلوم وتطبيقاتها الميدانية.

رابعاً : دور العلماء المسلمين في تطور الحضارة الإسلامية :

إن التفسير الساذج البسيط لظاهرة حركة نقل العلوم من اليونانيين إلى العرب، الذي درج عليه المؤرخون منذ ابن النديم، والذي يربط تلك الظاهرة «بمنام» المأمون الذي رأى فيه أرسطو، فسأله بعض الأسئلة، فلما نهض المأمون من منامه طلب

ترجمة كتب أرسطو، يعتبر تفسيراً ذاتياً وبسيطاً ولا يعكس حقيقة هذه الظاهرة المعقدة، ولفهمها فهماً صحيحاً يجب الالتفات إلى حركة التاريخ وما خلفّته من ضرورات اجتماعية وتفاعلات فكرية وحاجات ضرورية، هي التي عقدت الصلة، بصورة موضوعية بين الفكر العربي ــ الإسلامي والفلسفة ليونانية ... فما كان لأرسطوطاليس أن «يحظى بلقاء المأمون» في منامه لولا أن هذا الفيلسوف كان موجوداً بالفعل في العالم الفكري لمجتمع الخلفاء العباسيين الذين سبقوا المأمونُ حلمه «الخلاّق» وليس هذا الكلام استهزاء بالمأمون نفسه، وهو الذي أدى دوره العظيم حقاً في تطوير تلك الصلة، ولكنه أداة استجابة لظروف مجتمعه وعصره الموضوعية، لا استجابة لحلم طارئ أو لمصادفة عابرة أو إرادة ذاتية[٧٦].

فالعلم هو نتاج ثقافي لحضارة معينة. وهو لا يظهر ولا يتطور إلا ضمن مجتمع وصل إلى مرحلة متقدمة من التطور الاقتصادي والاجتماعي، والشيء الهام الذي يجعل انبثاق العلم في هذا المجتمع في لحظة تاريخية معينة هو حاجة موضوعية وليس اختياراً ذاتياً، وأنه تعبير عن الحاجة إلى معرفة علمية تؤدي إلى فهم أكبر لظواهر الطبيعة والحياة والإنسان[٧٧].

فالعلماء المسلمون لم يكونوا مجرد ناقلين لعلوم اليونانيين أو الشارحين لها، بل أن أكثرهم قام بنقد العلم اليوناني وشككوا بنتائجه بشكل علمي، وكانت هذه خطوة هامة للانطلاق نحو معرفة جديدة، فلقد كان تقديس علوم السابقين هو أحد معوقات التطور العلمي، سواء في الحضارة الإسلامية أو في أوربة في العصر الوسيط، حيث سيطر الفكر الأرسطي على حركة الفكر والعلم، وكانت مرحلة إزالة التقديس عن المنهج الأرسطي القديم فاتحة لتطور المعرفة الجديدة وتقدمها. فهذا ثابت بن قرة الحراني، يكتب كتاباً في إصلاح المقالة الأولى من كتاب «أبلونيوس» في قطع النسب المحدودة[٧٨].

والكندي يكتب كتبا عديدة في هذا المجال مثل «رسالة في إصلاح كتب اقليدس، رسالة في إصلاح المقالة الرابعة عشرة والخامسة عشرة في كتاب إقليدس، رسالة في تصحيح قول اسقلاسي في المطالع»(٧٩).

أما ابن الهيثم فيقول عن كتب بطليمس، أننا وجدنا فيها علوما كثيرة ومعاني غزيرة... ولما خصمناها وميزناها وتحرينا إنصافه وأنصاف الحق منه، وجدنا فيها مواضع مشبهة وألفاظا بشعة ومعان متناقضة ... فرأينا أن الإمساك عنها هضما للحق وتعديا عليه(٨٠).

إن هذا النقد من قبل علماء المسلمين لعلوم اليونان «علوم الأوائل» دليل أكيد على أن العلماء المسلمين لم يكونوا مجرد شارحين ناقلين مكررين لعلوم الأوائل، بل أنهم ترجموا هذه الكتب ودرسوها وتمثلوها ونقدوا نتائجها وأصلحوا ما يمكن وأقاموا معرفة جديدة بما يتفق مع إمكاناتهم وحاجاتهم ومستوى التطور الاقتصادي والاجتماعي لعصرهم الذي عاشوا فيه(٨١).

هذا الكلام أكده أشهر مؤرخي العلم في عصرنا بالقول: «أن العلم الإسلامي لم ينقل العلم الإغريقي نقلا حرفيا بل أعاده إلى الحياة من جديد بعد هضمه وتمثله الفلاسفة الإيونيون الأوائل»(٨٢).

إذن يمكننا القول أن العرب لم يكتفوا بالترجمة والشرح والتفسير لعلوم اليونان «علوم الأوائل»، بل قاموا بتطوير تلك المعارف والعلوم واستخدموها في مختلف مجالات الحياة ضمن إمبراطوريتهم الإسلامية، وقد برع العرب في مختلف العلوم، فهذا الرياضي العبقري أبو الحسن بن الهيثم قد ترك بغداد للمشاركة في إقامة سد على نهر النيل في مدينة أسوان المصرية بالرغم من الصعاب التي حالت بينه وبين تنفيذ مشروعه الذي كان يسعى لتحقيقه. أما أحمد بن كثير الفرغاني فقد أسهم في حفر النهر

المعروف بالجعفري في بغداد بعد أن أسند له ذلك المهندسان المعروفان محمد وأحمد ابنا موسى، اللذان كلفهما المتوكل ببناء السد المذكور[٨٣].

وكان عضد الدولة يرجع إلى «الأعلم»، وهو عالم بالهيئة «في أنواع التسييرات وعمل «زيجه المشهور» عند أهل زمانه»[٨٤].

أما سند بن علي المنجم «خبير بتسيير النجوم» وعمل آلات الأرصاد والإسطرلاب فكان أحد الفضلاء في وقته، اتصل بخدمة المأمون، وندبه المأمون لإصلاح آلات الرصد، ويرصد بالشماسية ببغداد ففعل ذلك وامتحن موضع الكواكب[٨٥].

ولما عزم شرف الدولة بن عضد الدولة على رصد الكواكب ببغداد واعتمد في ذلك على «ويجن بن رستم الفوهي» كان من جملة من يحضروه من العلماء بهذا الشأن «ابراهيم بن هلال»[٨٦].

في حين أن أحمد بن محمد الصاغاني المهندس في بغداد، كان يحكم صناعة الإسطرلاب والآلات الرصدية غاية الإحكام وآلاته مذكورة بأيدي أرباب هذا الشأن[٨٧].

ولو تمت مراجعة قوائم الكتب التي كتبها العلماء المسلمون لوجدناها حافلة بعناوين تدل على مدى إسهام هؤلاء العلماء، ومدى ارتباط العلوم بأنواعها بالتطور وبحاجات الحضارة الإسلامية الناشئة. فعلى سبيل المثال لو استعرضنا قائمة بأسماء مؤلفات الكندي، لتأكدت صحة أقوالنا تلك، لأن هذه القائمة كما ذكرها ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء تشمل عناوين هامة في هذا الحقل منها: رسالة في صنعة الإسطرلاب، رسالة في استخراج خط منتصف النهار، وسمة القبلة بالهندسة، مسائل في مساحة الأنهار، رسالة في علم نفث الدم، رسالة في وجع المعدة والنقرس، رسالة في العطر وأنواعه، رسالة في المد والجذر، رسالة في الحشرات ...[٨٨].

هذه القائمة مختارة من عالم إسلامي واحد تعالج مشكلات الكون والانسان والنبات والحيوان وجميع الظواهر الطبيعية لتدل دلالة هامة على الدور الريادي للعلم في حيلة المسلمين والدور الذي لعبه العلماء العرب المسلمون في معالجة مشكلات الحضارة وحاجاتها، وتعاملها مع هذه المشكلات والتحديات الحضارية بشكل يدعو إلى الإعجاب[٨٩].

فالتطور العلمي كان شاملاً وقد جاء كي يلبي الحاجات المتعددة للإمبراطورية الإسلامية في مختلف المجالات العلمية «الكيميائية، الطبية، الصيدلانية، التكنولوجية العسكرية، صناعة النسيج والورق والتاريخ الطبيعي، وقد ظهرت الكتب الموسوعية، والقواميس وكتب الحدود، والتعريفات، وتصنيفات العلوم، وكتب الجغرافية والطب والعمارة، والنحت والطبخ، والكيمياء والهندسة والموسيقى والفنون، وتطور مع هذا كله نظام الإدارة والقضاء والحسبة والبريد، وكان هذا التطور مرتبطاً أشد الارتباط بطبيعة التحولات الحضارية للجماعة الإسلامية[٩٠].

ولقد تنبه الكثير من المفكرين المسلمين لمسألة ارتباط تطور العلم بتطور الحضارة، هذا الربط المتين يبين تطور الحياة اللإقتصادية والاجتماعية للحضارة الإسلامية وتطور العلوم وتطبيقاتها أمر لا فكاك منه على الطلاق. فالفيلسوف العامري يؤكد قضية نشوء العلم وتطوره وارتباطه بحاجات المجتمع الإنساني فيقول:

«وأما بابل فمنه ابتدأ علم النجوم.. وسببه أنهم كانوا مقبلين على صناعتي الفلاحة والملاحة، ولن يستغنى فيهما عن أحكام النجوم. وأما مصر فمنه ابتدأ علم الهندسة وسببه أن ماء النيل كان يغرق مزارعهم كل سنة فيحتاجون إلى المساحة في قسمتها. وأما الشام فمنه ابتدأ علم الطبائع، وسببه أن الوباء في نواحيه كان يكثر ويعم فيضطرون إلى الاستعانة بالقوى الطبيعية»[٩١].

والعلوم كما يرها ابن خلدون تكثر بالعمران وتعظم بالحضارة ويقول ابن خلدون: «واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان، والبصرة والكوفة، لما كثر عمرانها صدر الإسلام واستقرت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى آربوا على المتقدمين، وفارقوا المتأخرين، ولما انتقض عمرانها وقل سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة وفقد العلم والتعليم[٩٢].

ولم يكتف العلماء والمفكرون العرب بشرح وتفسير العلوم الدخيلة «علوم الأوائل» أو كما تسمى علوم اليونان، بل قاموا بتحليل ونقد هذه العلوم وإصلاح حالها في أكثر الأحيان وبذلك انتقلوا من مرحلة الشرح والتفسير إلى مرحلة النقد ومن ثم الإبداع، حيث أبدع العلماء العرب المسلمون في المجالات كافة العلمية، الطبيعية منها والفكرية، وقاموا بتطوير العلوم بما يتلاءم وحاجة الإمبراطورية الإسلامية الجديدة.

فالاكتشافات والإبداعات العلمية التي قام بها العرب كانت مثار اهتمام الجميع وإعجابهم. وقد سبق أن أشار إلى ذلك الفيلسوف الماركسي «فريدريك أنجلز» في كتابه «ديالكتيك الطبيعية» حيث رأى: «أنه وبخلاف حدسيات القدامى العبقرية في الفلسفة الطبيعية واكتشافات العرب التي كانت بالغة الأهمية، والتي جاءت متقطعة وضاع معظمها بدون نتائج[٩٣]».

هذا القرار والاعتراف من «انجلز» بما قدمه العرب المسلمون للبشرية من اكتشافات هامة في كافة المجالات الحياة، يعكس إلى حد بعيد اهتمام العرب: بتطوير العلوم وبمدى أهمية العلم في الحضارة البشرية. ويؤكد في الوقت ذاته ما كان أشار إليه الدكتور أحمد سعيدان: بأننا كأمة عربية وكعرب: نظرتنا إلى الحياة ديناميكية، نظرة من يؤمن بأن المعرفة الإنسانية في تزايد مستمر وتطور دائم[٩٤].

وكما يرى د.زكي نجيب محمود: بأن عصرنا هو عصر التحول أي الانتقال من ثقافة «الكلمة» إلى ثقافة العلم المؤدي إلى عمل يحمل في دنيا الصناعة الآلية الحديثة[٩٥].

فطريق التحول من تخلف إلى عصرية، هو أن ننتقل من معرفة قوامها الكلام إلى معرفة قوامها الآلة التي تصنع[٩٦].

والانفتاح الثقافي على كافة التيارات الفكرية والعلمية أمر هام وضروري في حياتنا العربية المعاصرة، فالعالم الكبير أصبح قرية صغيرة بعد الثورة المعلوماتية الحديثة.

والتوجه نحو الماضي السلفي والتغني به لم يعد مجديا في هذا العصر الذي يتميز بالسرعة والديناميكية. لذلك فالتلاقح الثقافي العربي مع الثقافات الأخرى الغربية منها والشرقية أصبح من الضرورات الحتمية. وهذا ما أشار إليه الدكتور زكي نجيب محمود في أكثر من موضع في كتابه «تجديد الفكر العربي». وحتى لا يكون الإنسان العربي غريبا عن ثقافته، ويؤمن بالتواصل الثقافي والحضاري بين الشعوب، وحتى يكف عن اعتبار الأفكار الماركسية وصلتها بالفكر العربي ـ أفكارا غريبة عليه. يجب أن تعرض له هذه الأفكار في صورة، تبدو معها وكأنها نابعة من صميم ماضينا وتراثنا، من أعماق تاريخنا وفكرنا: من «اشتراكية» أبي ذر وعلي بن أبي طالب والقرامطة وعقلانية المعتزلة، ومادية ابن سينا وابن رشد، وطروحات ابن خلدون المادية التاريخية، وديالكتيك «اخوان الصفا»، وغيرهم من مفكرينا القائلين بالتطور في الطبيعة[٩٨].

وإذا كان أجدادنا من المفكرين والعلماء المسلمين القدماء قد أخذوا من اليونانيين علومهم ومعارفهم، فانهم لم يكتفوا بنقل هذه المعارف والعلوم، بل قاموا بتمثلها ومن ثم نقدها وصياغتها من جديد بمنهج علمي استطاعوا من خلاله اكتشاف الكثير من

القضايا والمسائل التي كانت تحتاجها الإمبراطورية الإسلامية. حيث أبدعوا في كافة المجالات والفروع العلمية، طبيعية كانت أم فكرية، ساهمت في صناعة الحضارة الإسلامية. وقد أشار الكثير من المفكرين الأجانب والمستشرقين إلى إبداعات العرب واكتشافاتهم التي أغنت الحضارة القديمة.

ونحن العرب يتميز عصرنا الحالي بأنه عصر العلم والمعرفة. فالرجوع فقط إلى الماضي والتغني بأمجاد الأجداد لن يجدي، بل يجب علينا أن نتفاعل مع ثقافات وحضارات هذا العصر كما فعل أجدادنا قديماً. وأن نحاول قدر المستطاع تمثل ثقافات وعلوم هذا العصر، ومن ثم صياغة هذه العلوم بمنهجية جديدة تلائم ظروفنا وحياتنا العربية. وتسد الثغرات والفجوات الحضارية التي تزداد اتساعاً بيننا وبين الحضارات العلمية الراهنة.

فهرس الحواشي والمصادر المراجع

١- نايف بللوز، **مناهج البحث في العلوم الطبيعية**، الجزء الثاني، مطبعة الإنشاء، دمشق ١٩٨٦ ــ ص١٣.

٢- **المرجع نفسه**، ص٢٥.

٣- أحمد سليم سعيدان، **مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد١٣١، ١٩٨٨ ــ ص١١٧.

٤- نايف بللوز، **مناهج البحث في العلوم الطبيعية**، مطبعة الإنشاء، دمشق ١٩٨٦، ص١٧٤.

٥- صلاح قنصوه، **فلسفة العلم**، دار التنوير، ببيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣ ص١٠٢.

٦- **قصة الفيزياء**، تأليف لويدمتز وجيفرسون هين ويفر، ترجمة د.طاهر تربدار ووائل الأتاسي، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٤ ــ ص١٧.

٧- **المرجع نفسه** ص١٨.

٨- **المرجع نفسه** ص١٨.

٩- صلاح قنصوه، **فلسفة العلم**، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٣ ــ ص١٠٣.

١٠- أحمد سليم سعيدان ــ **مقدمة لتاريخ العلمي في الإسلام**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٣١، ١٩٨٨ ــ ص٥٧.

١١- **قصة الفيزياء**، ترجمة د.طاهر ترابدر ووائل الأتاسي، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٣، ص١٩.

١٢- احمد سليم سعيدان، **مقدمة لتاريخ العلم في الإسلام**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٨، ١٣١، ص٥٧.

١٣- **نفس المرجع**، ص٦٣.

١٤- **قصة الفيزياء**، ترجمة د.طاهر ترابدر ووائل الأتاسي، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٤، ص١٩-٢٠.

١٥- **نفس المرجع**، ص٢٠.

١٦- **المرجع نفسه**، ص٢١.

١٧- **نفس المرجع**، ص٣٢ـ٣٣.

١٨- **المرجع نفسه**، ص٢٥.

١٩- **قصة الفيزياء**، ترجمة طاهر تربدار ووائل الأناسي، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٤، ص٢٦.

٢٠- **نفس المرجع**، ص٢٨.

٢١- **المرجع نفسه**، ص٢٩

٢٢- **المرجع نفسه**، ص٣٠.

٢٣- **المرجع نفسه**، ص٣١.

٢٤- صلاح قنصوه، **فلسفة العلم**، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٧، ص١١٠.

٢٥- أحمد الربعي، **محاولة نحو تفسير اجتماعي لنشأة العلم العربي الإسلامي**، المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، ١٩٨٧، الأردن، ص٢٠١.

٢٦- **نفس المرجع**، ص٢، ٣.

٢٧- **المرجع نفسه**، ص٦، ٧.

٢٨- **نفس المرجع**، ص٩.

٢٩- ابن النديم، **الفهرست**، دار المعارف، بيروت، ١٩٨٧، ص٣٣٩.

٣٠- أحمد الربعي، **محاولة نحو تفسير اجتماعي لنشأة العلم العربي الإسلامي**، المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، الأردن، ١٩٨٧، ص١٠.

٣١- صلاح قنصوه، **فلسفة العلم**، دار التنوير بيروت، ١٩٨٣، ص١١١.

٣٢- **نفس المرجع**، ص١١٢.

٣٣- جورج سارتون، **مقال العلم العربي الإسلامي في الشرق الأدنى**، مجتمعه وثقافته، تحرير كويلر يونغ، ترجمة عبد الرحمن أيوب، دار النشر المتحدة، القاهرة، ١٩٥٧، ص١٣٨-١٤٠.

٣٤- علي سامي النشار، **منهاج البحث عن الفكر الإسلامي**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦، ص٣٧٤.

٣٥- جورج سارتون **العلم الإسلامي في الشرق الأدنى، مجتمعه وثقافته**، دار النشر المتحدة، القاهرة، ١٩٥٧، ص١٥١.

٣٦- صلاح قنصوه، **فلسفة العلم**، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٣، ص١١١.

٣٧- أحمد الربعي، **محاولة نحو تفسير اجتماعي لنشأة العلم العربي الإسلامي**، المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، الأردن ١٩٨٧، ص١٢.

٣٨- أحمد فؤاد باشا، **التراث العلمي للحضارة الإسلامية**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص١١٦.

٣٩- أحمد الربعي، **محاولة نحو تفسير اجتماعي لنشأة العلم العربي الإسلامي**، المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، الأردن، ١٩٨٧، ص١٤.

٤٠- أحمد سليم سعيدان، **مقدمة لتاريخ الفكر العلمي الإسلامي**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٨، العدد١٣١، ص٥٨.

٤١- عبد الحميد صبرا، **تاريخ العلوم عند العرب، أهدافه ومشكلاته**، أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، معهد التراث العلمي العربي، حلب ١٩٧٧، ج١، ص٦٢-٦٣.

٤٢- نفس المرجع ص٦٥-٦٦.

٤٣- روبرتسي وكيندي، **ابن الشاطر فلكي عربي من القرن الثامن الهجري «الرابع عشر الميلادي»** معهد التراث العلمي بجامعة حلب، ١٩٦٧.

٤٤- القفطي، **أخبار العلماء بأخبار الحكماء**، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٦، ص١٣٠.

٤٥- ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، مكتبة الحياة بيروت، (ب، ت) ص٢٠٠.

٤٦- أحمد الربعي، **محاولة في تفسير اجتماعي لنشأة العلم العربي الإسلامي** المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، الأردن، ١٩٨٧، ص٣٠.

٤٧- ج. د. برنال، **موجز تاريخ العلم في التاريخ**، دار الفارابي، بيروت ١٩٨٢، ص٧٥.

٤٨- زكي نجيب محمود، **تجديد الفكر العربي**، دار الشروق القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٧، ص١٦٦-١٦٧.

٤٩- أحمد الربعي، **محاولة نحو تفسيرٍ اجتماعي لنشأة العلم العربي الإسلامي**، المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، الأردن، ١٩٨٧، ص٣٣.

٥٠- ابن تيمية **مجموعة الرسائل الكبرى**، المطبعة الشرقية، القاهرة ١٣٢٤هـ، ج١، ص٢٣٨.

٥١- زكي نجيب محمود، **تجديد الفكر العربي**، دار الشروق، القاهرة الطبعة الثامنة، ١٩٨٧، ص١٦٦-١٦٧.

٥٢- **المرجع نفسه**، ص١٨١.

٥٣- أبو بكر الخوارزمي: «**مفيد العلوم و مبيد الهموم**»، القاهرة ١٨٩٢، ص٦١-٦٢.

٥٤- موفق الدين المقدسي: «**تحريم النظر في كتب أهل الكلام**»، تحقيق جورج لندن، ص١٧-١ ٥.

٥٥- ابن الجوزي: «**تلبيس أبليس**»، القاهرة، ١٩٢٨، ص٨٤.

٥٦- جولد تسهر، «**موقف أهل السنة القدماء، إزاء علوم الاوائل**». انظر عبد الرحمن البدوي، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، وكالة المطبوعات، الكويت،، ١٩٨٠.ص١٦٠-١٦١.

٥٧- أنظر فتاوى ابن الصالح، **إدارة الطباعة المنيرية**، القاهرة، ١٣٤٨ه.

٥٨- الصنعاني، «**ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان**»، القاهرة، ١٣٤٩. ص٧.

٥٩- ابن المرتضى، **المنية والأمل، شرح الملل والنحل**، كلكتا، ص٩٦.

٦٠- زكي نجيب محمود، **تجديد الفكر العربي**، دار الشروق، القاهرة الطبعة الثامنة، ١٩٨٧، ص١٧٠-١٧١

٦١- ابن تيمية، **الرد على المنطقيين**، دار المعرفة، بيروت (ب، ت).

٦٢- أحمد الربعي، **محاولة نحو تفسير اجتماعي لنشأة العلم العربي الإسلامي**، المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، الأردن، ١٩٨٧، ص٣٩.

٦٣- ابن تيمية، **كتاب نقض المنطق**، دار الكتب العلمية، بيروت (ب، ت).

٦٤- ابن تيمية، **درء تعارض العقل والنقل**، جامعة الإمام محمد بن مسعود، السعودية، ١٩٨١.

٦٥- ابن تيمية، **نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان**، أنظر مختصر السيوطي لهذا الكتاب، دار الكتب العلمية، بيروت (ب، ت).

٦٦- أحمد الربعي، **محاولة تفسير اجتماعي لنشأة العلم العربي الإسلامي**، المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، الأردن، ١٩٨٧، ص٢٤.

٦٧- زكي نجيب محمود، **تجديد الفكر العربي**، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٧، ص١٦٨-١٦٩.

٦٨- **نفس المرجع**، ص١٦٩.

٦٩- الغزالي، **المنقذ من الضلال**، مؤسسة ناصر الثقافية، بيروت ١٩٨٠، ص٦١.

٧٠- **نفس المرجع**، ص٦٣.

٧١- أحمد الربعي، **محاولة نحو تفسير اجتماعي لنشأة العلم العربي الإسلامي**، المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، الأردن، ١٩٨٧، ص٤٥.

٧٢- الغزالي، **مقاصد الفلاسفة**، مطبعة الكردي، القاهرة، ١٣٣١ه، ص٧.

٧٣- ابن حزم، **التقريب لحد المنطق** تحقيق إحسان عباس بيروت، ١٩٥٩، ص١٦٨٩.

٧٤- **ابن حزم رسائل**، تحقيق إحسان عباس، القاهرة مجموعة (١)، ص٨٧.

٧٥- ابن حزم، **التقريب لحد المنطق**، تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٥٩، ص١١٥-١١٦.

٧٦- د.حسين مروة : **«النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية»**، ج١، بيروت، ١٩٧٨، ص٥٤.

٧٧- أحمد الربعي، **محاولة نحو تفسير اجتماعي لنشأة العلم العربي الإسلامي**، المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، ١٩٨٧، الأردن، ص١١.

٧٨- ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص٣٠٠.

٧٩- **أنظر قائمة كتب الكندي في فهرست ابن النديم**، ص٣٥٨-٣٦٥.

٨٠- ابن الهيثم، **الشكوك على بطليموس**، تحقيق عبد الحميد صبره، نبيل الشهابي، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧١، ص٣-٣.

٨١- أحمد الربعي، **محاولة نحو تفسير اجتماعي لنشأة العلم العربي الإسلامي**، المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، الأردن، ١٩٨٧، ص٢٧.

٨٢- ج.د.برنال، **موجز تاريخ العلم في التاريخ**، دار الفارابي بيروت، ١٩٨٢، ص٧٥.

٨٣- ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص٢٨٦-٢٨٧.

٨٤- القفطي، **أخبار العلماء، بأخبار الحكماء**، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٦هـ. ص١٥٧.

٨٥- **نفس المرجع**، ص١٤٠-١٤١.

٨٦- **المرجع نفسه**، ص٥٤.

٨٧- **نفس المرجع**، ص٥٦.

٨٨- أحمد الربعي، **محاولة في تفسير اجتماعي لنشأة العلم العربي الإسلامي**، المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، الأردن، ١٩٨٧، ص٢٣-٢٤.

٨٩- **نفس المرجع**، ص٢٤.

٩٠- **نفس المرجع**، ص٥٨.

٩١- أبو الحسن العامري، **الأمد إلى الأبد**، «مخطوط» مكتبة السليمانية، ٢/١٧٩.

٩٢- ابن خلدون، **المقدمة**، الجزء الثالث، ص١٠٢٤-١٠٢٥.

٩٣- فريدريك، انجلز، **ديالكتيك الطبيعة**، ترجمة د.توفيق سلوم، دار الفارابي، بيروت، ص٢٥.

٩٤- أحمد سليم سعيدان، **مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٨، العدد ١٣١، ص٢٦.

٩٥- زكي نجيب محمود، **تجديد الفكر العربي**، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٧، ص٢٣٤،

٩٦- **نفس المرجع**، ص٢٣٩.

٩٧- **المرجع نفسه**، ص١٨٩.

٩٨- توفيق سلوم، **نحو رؤية ماركسية للتراث العربي**، دار الفكر الجديد، بيروت، ١٩٨٨، ص٣٦.

أثر الضرائب في ثوابت ومتغيرات سياسة الخلافة الفاطمية في مرحلتها المغربية

الدكتورة بوبة مجاني

قسم التاريخ - جامعة قسنطينة

أثر الضرائب في ثوابت ومتغيرات سياسة الخلافة الفاطمية في مرحلتها المغربية

قسّم القاضي النعمان المجتمع الذي كان يحكمه المذهب الإسماعيلي إلى خمس طبقات: الطبقة الأولى هي طبقة الجند، والثانية الخراج، والثالثة الكتاب والعمال والقضاة، والرابعة التجار ذوو الصناعات، والطبقة الأخيرة كان يسميها الطبقة السفلى، وهي طبقة أهل الحاجة والمسكنة المبتلون بالحاجة إلى جميع الناس[١]. ولم تكن هذه الطبقات الخمس حسب رأي القاضي النعمان يصلح بعضها إلا ببعض.كما بيّن نوعية العلاقة التي كانت تربطها ببعضها بعضاً، وكان الجند عنده في الدرجة الأولى من ناحية الأهمية، فهم عز السلطان، وهم سبب المن والاستقرار وانضباط الأمور غير أن أمرهم لا يستقيم إلا بتوفير المال لتلبية متطلباتهم. فبالمال يقوون على جهاد عدوهم ويوفرون الأمن والاستقرار لمجتمعهم وسلطانهم، فهم زين الملك، على حد تعبيره[٢].

أما أهل الخراج فقد أوصى القائمين على الأمور بصلاحهم، فهم الذين كانوا يمدّون السلطة والمجتمع بالأموال اللازمة، وبذلك توجب على السلطة أن تسهر وتعمل على تعمير أراضيهم،لأن عمران الخزائن لا يكون إلا بعمران الأرض[٣]. وأمر الدولة لا يستقيم إلا بالجند، و هؤلاء لا يستقيم أمرهم إلا بالأموال التي تأتي من مصدرين، كما حددهما النعمان، الأول: هو الفيء، أي ما يوفره الجند لأنفسهم عن طريق جهادهم،المصدر الثاني هو الخراج[٤].

وينبغي لأمور الطبقتين المتقدمتين الجند، وأهل الخراج أن تنظم علاقتهما طبقة الكتاب والعمال والقضاة، فهم المنفذون لسياسة الدولة، والمتولون لأمورها الإدارية

كجبي الضرائب، وهذا الدور الذي يقوم به العمال بمساعدة الكتاب، أما القضاة فــــهم الذين يسهرون على حفظ مصالح السلطة وكذلك المجتمع بإعطاء كل ذي حق حقـــه، كما ينظرون في الخصومات بين الناس(٥).

أما طبقة التجار فان أهميتها في هذا المجتمع لا تتعدى الانتفاع بما يصنعون ومـــا يكفون به الطبقات الثلاث الأخرى ليتفرغ هؤلاء لمهامهم التي أنيطت بـــهم، والطبقـــة الأخيرة وهي فئة المحرومين وأهل الحاجة، فإنها كانت تحتاج إلى الطبقات الأربـــع(٦) لأنها طبقة غير منتجة ولا ذات منفعة.

وينطوي هذا التقسيم، أو النظرة للمجتمع على بعد اقتصادي في المشروع السياسي الفاطمي، الذي لا يتحقق إلا بالعمل العسكري وهذا يحتاج إلى الأموال الطائلة لتجـهيز الجيوش وإعدادها،وهذه الأموال تأتي مما يغنمه الجيش نفسه في حروبه أو جهاده ضد الآخر وهم المصدر الأول للتمويل، أما المصدر الثاني فهو الضريبة. كما أن العمـــل العسكري جهاد في سبيل الله "عند الشيعة"، فرضه الله على عباده ودعاهم الأئمة إليـــه لهذا جعلهم –أي الأئمة– أسباب رحمته ونعمته عليهم(٧) وهو مكمّل للعمل السياسي أو عمل الدعاة الذين ظلوا يعملون لسنوات طويلة يروجون للمذهب الشيعي الإسـماعيلي، ويجمعون حقوق الإمام المالية من الأتباع.

ومما يلفت الانتباه في هذا التقسيم هو نظرة مشرع الدولة لطبقة التجار التي جعلها موفّرة فقط لحاجات المجتمع. وبذلك تكفي كل الطبقات مؤونة ما يحتاجونه في حياتــهم اليومية، ولم يتحدث عن الضرائب التي تفرض عليهم، علـــى الرغـم مـن أن هـذه الضرائب كانت من الركائز الأساسية في السياسة المالية الفاطمية على مستوى الواقـع التاريخي.

وكانت طبيعة السلطة العسكرية في المرحلة المغربية من حياة الخلافة الفاطميـــة، هي خطوة على طريق المشروع السياسي الفاطمي، فالثابت أو الهدف الأسمى في هذا

المشروع هو إسقاط الخلافة العباسية المغتصبة لشرعية آل البيت. وما التنويه بأهمية أصحاب الخراج إلا شعور بمدى أهمية الأرض والزراعة في حياة المجتمعات. وقام هذا التوزيع للأدوار في المجتمع الإسماعيلي، وكما رآه مشرع الدولة وفقيهها على ثلاث ركائز أساسية: الركيزة الأولى الجيش، وهو الحامي للعقيدة "الإيديولوجية"، وكذلك الأرض التي هي الركيزة الثانية في هذا المشروع أو الثابت، أما الركيزة الثالثة فهي الإرادة المترجمة والمطبقة للإيديولوجية الإسماعيلية.

وكانت الطبقات الخمس في المجتمع الإسماعيلي تخضع إلى سلطة الإمام، الذي طاعته واجبة كطاعة الله ورسوله، والمرء لا يكون مسلماً إلا بهذه الطاعات الثلاث[٨]، لأن رضا الإمام موصول برضا الله، وسخطه مقرون بسخطه، وبذلك على الفرد أن يسعى إلى رضا الله الذي جعل ثوابه الجنة[٩]. ووجوب طاعته وفرْضِها في المذهب الإسماعيلي جاء في القرآن الكريم بناء على تفسيرهم للآية الكريمة ﴿ ...أطيعوا الله أطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم...﴾[١٠]. فأولو الأمر هم الأئمة الاسماعيليون في تأويل الآية عندهم، وكانت هذه الطاعة واجبة في كل شئ كما كانت طاعة الرسول ﷺ واجبة في زمانه. وإذا كانت مرتبة الإمامة لا تعلو عن مرتبة النبوة فان الطاعة جاءت واحدة ومقرونة بطاعة الله ورسول، وبذلك لا يكون الفرد مسلماً حقيقياً إلا بطاعة الله والرسول والإمام[١١].

كما أن هذه الطاعة تكون في كل شئ يخص حياة الفرد، وأمر الإمام لا يُـرَدّ ولا تجوز معارضته ولا الاعتراض عليه، وكل من حاول فعل ذلك عُـدَّ مرتداً ودمه حلال[١٢]. ولقد قُدمّت الإمامة الإسماعيلية للناس كبرنامج ثوري اصلاحي اقتصادي واجتماعي نتيجة الفساد الذي عرفه المجتمع الإسلامي بعد أن حكمه المغتصبون للشرعية، وبذلك اغتصبوا كل حقوق الأئمة وواجباتهم من بينها جباية الأموال (كالصدقة على الإبل والبقر والغنم وما يجب على الأموال وما أخرجت الأرض وصدقة الفطر)[١٣]، هذه الأموال بعد موت رسول الله ﷺ لم يمتنع المسلمون عن

دفعها، وأصبحت تدفع إلى من تولى أمر المسلمين بعده واستأثر بها بنو أمية وصرفوها في غير أوجهها المحددة لها ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾[١٤].

وعليه يجب دفعها إلى من أمر الله بدفعها إليهم وهم آل البيت. ومن هنا يتبين أن من واجب الأئمة أخذ الصدقات لأن الله أمرهم بذلك وعدم جبايتها هو إخلال بالواجب.

ومن ناحية أخرى أمر الله الناس أو المسلمين بدفع خمس أموالهم إلى الأئمة، وهو المال الذي عوّض الله به عليهم عن أموال الصدقات التي جاءت في الآية صريحة في أوجه صرفها. ولقد حرمت الصدقات على أهل البيت، حتى وإن كانوا فقراء أو مساكين أو عاملين عليها أو غارمين أو من المؤلفة قلوبهم، أو أبناء السبيل أو المجاهدين.[١٥] لهذا جعلهم الله أمناء على قبضها وصرفها في أوجهها المحددة بالنص وعوض عليهم ذلك بالخمس استنادا إلى قول الإمام جعفر الصادق: «الخمس لنا أهل البيت ليس للناس معنا فيه شئ ونحن شركاؤهم في أربعة أخماس الغنائم فيما شهدناه معهم والخمس لنا دونهم يعطى منه أيتامنا وفقراءنا ومساكيننا وابن سبيلنا وليس لهم ولا لنا في الصدقات شئ»[١٦]. وقول الله عز وجل: ﴿واعلموا أن ما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾.[١٧] يقسم هذا الخمس بدوره إلى خمسة أسهم: سهم للرسول ﷺ ويصرف منه على نفسه وعلى أزواجه ومصالحه ومصالح المسلمين، وسهم لذوي القربى، ثم ثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وأبناء السبيل كما جرى في حياة الرسول ﷺ.

ولقد اختلفت الآراء حول الخمس بعد وفاة الرسول ﷺ فحول إلى بيت مال المسلمين. وتذكر بعض الراويات أن سهم الرسول ﷺ وذوي القربى سقط بعد موت الرسول ﷺ واصبح يدفع إلى بيت المال، ولم تبق إلا ثلاثة أسهم الأخرى. وهذا موقف

كل من الإمام مالك وأبي حنيفة. أما الشافعي فلقد أسقط سهم الرسول ﷺ فقط بعد وفاته، وأبقى على سهم ذوي القربى، أي حق بني هاشم. وأرجع بعضهم هذا الحق إلى الخليفة بعد موت الرسول ﷺ. وفيهم من رأى أن السهمين يصرفان في الكراع والسلاح.[١٨]

ولقد خالف المذهب الشيعي المذاهب السنية خلافا كليا في مصير هذا المال (خمس الغنيمة)، حيث رأى أنه كان يعود إلى الرسول ﷺ لما كان حيا، ولما انتقل إلى جوار ربه عاد إلى الإمام من أهل بيته، يعطي منه قرابته وأهل بيته الذين يراهم بحاجة إلى ذلك، ويضعه فيما أحب.[١٩] فالشيعة بذلك يريدون استرجاع حق اغتصبه منهم الخلفاء الذين حكموا بعد وفاة الرسول ﷺ، وذهب الفقهاء الشيعة إلى أبعد من ذلك، فالخمس عندهم ليس خمس الغنيمة أي المال الذي يؤخذ من المشركين بالحرب، بل هو خمس كل ما كسبه المرء.[٢٠] وكانوا يستندون في ذلك إلى قول الإمام جعفر الصادق: «أوجب الله تعالى لنا الخمس في أموال عباده المؤمنين وجعله لنا حقاً عليهم فمن منعنا حقنا ونصيبنا في ماله لم يكن له عند الله من حق ولا نصيب»[٢١].

لقد أمر الله الإمام بجمع الصدقات أو الزكاة وصرفها في أوجهها والزكاة فريضة دينية وركن من أركان الإسلام أوجب على الإمام تطبيقها، أما الخمس فإن الله لم يأمر الإمام بالسعي إلى أخذه كالزكاة، بل أمر المسلمين بأن يسعوا إلى دفعه لإمام الزمان وهو واجبهم، ويقول القاضي النعمان: «وأما الخمس فلا يكره الأئمة الناس عليه إذ كان حقهم وهم مخيرون بين تركه وأخذه، ولم يتعبدهم الله عز وجل بأخذه من أيدي الناس كما تعبدهم بأخذ الزكاة، ولكنه تبارك اسمه تعبد الناس بدفعه إليهم بقوله: ﴿واعلموا أن ما غنمتم من شئ فإن لله خمسه...﴾.[٢٢]

ويبين هذا للدارس أن السلطة الفاطمية حاولت أن تجد للضرائب التي فرضتها على الأتباع سندا فقهيا وشرعيا، وجعلتها ثبتاً من ثوابت مذهبها، أي فريضة دينية لا يجوز تركها.

ولم يتحدث القاضي النعمان عن كل الضرائب المذهبية التي كان يأخذها الإمام من الأتباع، كضريبة الهجرة والبلغة والألفة[٢٣]. وربما يعود ذلك إلى أنّ ما جاء في كتاب الهمة هو ما كانت تسمح بمعرفته كتب الباطن أو ما جاء في كتب الظاهر، أما باقي الضرائب فلقد تضمنتها كتب الباطن فقط[٢٤]. كما أن الانشقاق الذي حدث في المذهب وظهور فرقة القرامطة التي أصبح لها مبادؤها وأيديولوجيتها وتشريعاتها اختلفت في كثير من القضايا مع المذهب الأساسي، ولهذا يمكن أن تكون هذه التشريعات خاصة بالقرامطة.

لقد كان التبّاع يبعثون بما فرض عليهم من ضرائب إلى إمام الزمان من كل الجزر[٢٥]. فتجمعت بذلك أموال طائلة جعلت بعض المؤرخين يذهبون إلى أن ما كسب الإمام في مرحلة الدولة يعد جزءا بسيطا مما كان عنده في أيام الدعوة[٢٦]، وكانت أموال الأتباع بالمغرب ترسل إليه عندما كان بسلمية مع رجال كتامة يخرجون مستترين مع الحجاج بها حتى يوصلوها إلى المهدي [٢٧].

وكانت الأموال التي يجمعها الدعاة في جزرهم يبعثون بها نقدا أو يشترون بها وبأمر من الإمام ما كان يطلبه من مباهج الحياة، فأحد الدعاة بالمشرق كان يكلف بشراء المسك للخليفة المعز لدين الله، وكان هذا الداعي معروفا بإخلاصه وأمانته المفرطة، فكان يدفع للإمام من ماله ثمن رائحة المسك التي تعلق بثوبه عندما يفرغه ليزنه [٢٨].

ولم يكن أصحاب الثروة من الأتباع الذين يدفعون للإمام واجب أموالهم فقط، فلقد كان الدعاة يقبلون من ذوي الاقلال بالرغم من ضيق معايشهم ما يدفعونه للإمام ظنا منهم أن هذا يزيدهم تقربا من الله. وكان الإمام يرى في صدقتهم هذه أفضل من صدقة ذوي السعة [٢٩]. وهذا يبين أن الإمام والصبغة الدينية التي أعطاها للضرائب التي فرضها على الأتباع جعل هؤلاء يعطون من مالهم حتى ولو لم يكونوا من أهل السعة.

وبذلك كان يحقق هدفه الأساسي وهو توفير الأموال اللازمة لتجييش الجيوش وتجهيزها لأنها هي التي سوف تفتح له العالم وترد له الشرعية التي اغتصبتها السلطة الجائرة.

عندما كان الداعي أبو عبد الله يعمل على الترويج للمذهب الإسماعيلي ببلاد كتامة كان يأخذ من الأتباع الزكاة والعشر[٣٠]، فتجمعت لديه أموال كثيرة، تركها بأيدي الدعاة والمشايخ من كتامة لكي يزيد من تمسكهم بالمذهب ودفاعهم عنه إلى أن أخذها المهدي منهم عندما قدم من سجلماسة إلى رقادة [٣١]. وفي سجلماسة التي سجن بها وقبل أن يغادرها أمر الدعاة بها أن يحضروا له الأموال التي جمعوها، فأخذها وعاد إلى رقادة[٣٢]، بعد أن قام بمصادرة أغنياء اليهود [٣٣].

لقد كان الدعاة حريصين على أموال الإمام، فلا ينفقون منها على أنفسهم حتى عندما يكونون في أشد الحاجة إليها. فالداعي أبو عبد الله وعلى الرغم من الأموال الكثيرة التي كانت في يده كان يكتفي بالقليل في نفقاته، بل كان يلجأ إلى بيع ما عنده لينفق منه، ولا يأخذ من أموال الدعوة، أو الإمام، ولا يتصرف إلا بما كان يأمره به الإمام[٣٤].

كان الداعي أبو عبد الله يريد أن يظهر لكتامة أنه لا يبتغي من عمله هذا إلا وجه الله ورضاه وذلك بإيصال الإمام إلى السلطة ليلغي الظلم والجور عن الناس. ولقد ربى رجال كتامة وعودهم على الاكتفاء بالقليل والعيش عيشة تقشف وزهد تأسيا بأصحاب الرسول ﷺ أيام الدعوة [٣٥]. ووفرت هذه السيرة التي سار بها الداعي في كتامة، وكذلك سيرة رجال كتامة المال الكثير له، وجعلته ينشئ جناحا عسكريا قادرا على إسقاط كل القوى السياسية التي كانت تحكم بلاد المغرب في تلك الآونة، بل أصبحت الدعوة تعمل على تكوين مال حرب واحتياطي يسمح لها بإقامة أو نقل السلطة إلى مصر[٣٦]. إلى جانب القوة المالية، كونّ الفاطميون من بلاد كتامة قوة بشرية.[٣٧] وبذلك استولت على مصر بسيوف وأموال المغرب.

وكان مال الدعوة هو الذي أنفق على التنظيم العسكري، وعندما أصبح هذا التنظيم يمارس نشاطه أصبح هو الآخر يشكل موردا من أهم موارد الدولة.

لقد كان سعي الأئمة في جمع الأموال كبيراً، ففي عـــهد الخليفـــة الأول عبـــد الله المهدي، وعندما كانت جيوشه تستولي على بلاد المغرب مدينة مدينة، كان أحد قـــواده يفتح له مدينة عنوة غير أنه لم يجد فيها المقدار الذي يرضي الإمام، فخاف أن يتهمـــه بأخذ الأموال فتمنى أنه لو لم يستطع فتحها، فعرض عليه خاصة جيشه بأن يعطوه من المال الذي معهم ليبعث به إلى الإمام على أنه مال غنيمة[٣٩]. يدل هذا علـــى مـــدى اهتمام السلطة الفاطمية بجمع الأموال، لهذا أرى أن عبد الحي شعبان كان محقا فيمـــا ذهب إليه من أنه لا يمكن فهم تاريخ الفاطميين بدون فهم كـــامل لجميـــع مضـــامين سياستهم الاقتصادية البعيدة المدى التي قيل عنها القليل جدا[٣٩]. ووضعت أسس هـــذه السياسة في مرحلة الدعوة، والدعاة لم تكن مهمتهم نشر المذهب فقط، بل السهر علـــى خدمة الإمام في كل ما يحتاج إليه، وشغلوا بذلك بأمور الجباية عـــن مباشـــرة مـــهام الدعوة (بل لم يجدوا حرجا في تبديل مبادئها وعقائدها بما يخدم أغراضهم في جمـــع المال وتحصيله)[٤٠].

هذا فيما يتعلق بالجانب النظري والمذهبي للسياسة الضريبية، أما علـــى مســـتوى الواقع التاريخي فإن السلطة الفاطمية وضعت نظاماً ضريبياً يخدم مصالحـــها العليـــا وتحقيق مشروعها السياسي، وهو توفير المال اللازم للسيطرة على بلاد المشرق، بعـــد أن استطاعت أن تجد له سنداً شرعياً، وهذا لم يكن ليتســـنى لـــها إلا بإعـــادة تقديـــر الضريبة على الأرض، وحسب ما كانت تراه موائماً، وبالسيطرة كذلك على مســـالك تجارة الذهب[٤١] ومراقبة القوافل التجارية العابرة لأراضيها والنشاط التجاري الـــذي كان يجري داخل حدودها مراقبة مالية شديدة، بحيث لم تسمح لأحـــد بالتـــهرب مـــن دفعها.

وقدرت السلطة الفاطمية الضريبة على الأرض الزراعية حسبما كانت تراه عاكسا لقيمة ما تنتجه الأرض، ولم تكن ترى في هذا تجاوزاً، بل كان في نظرها فهم صحيح للنصوص الشرعية، فالخراج تقديره أدناه وأقصاه اجتهاد. كما أنه كان يفرض على الأرض العامرة والأرض الغامرة، وما كان يراعى في تقديره هو ظروف الري والبعد عن الأسواق فقط.

أما الطريقة التي قدرت بها الدولة الفاطمية الخراج فقد عرفت بالتقسيط[٤٢] أو المقسط[٤٣]. فقامت في البداية بمسح الأرض، وعرف هذا الإجراء بالتعديل[٤٤]، ثم نظرت في أوفر مال جمع في سنة وفي أقله، ثم قامت بعدها بجمع المالين وفرضت نصفه أو شطره على كل ضيعة[٤٥]. وفي سنة ٣٠٥هـ، قام الخليفة عبد الله المهدي بإصلاح هذا النظام بفرض ضريبة سماها التضييع، وقال إنها من بقايا التقسيط [٤٨]، وبلغ مقدارها على ضيعة زيتون أحد علماء المالكية، وهو أبو جعفر أحمد بن أحمد ابن زياد (ت ٣١٨) ستون مثقالاً[٤٧]، مما يبين ثقل هذه الضريبة على أصحاب الضياع، فلم يرضوا بها وعجزوا عن دفعها مما حدا ببعضهم طلب التخفيف، ووسطوا كبار رجال الدولة لذلك. غير أن الخليفة رفض التخفيف [٤٨] فنعته (علماء المالكية) بذلك في كتب طبقاتهم بالجور ونقموا عليه ووقفوا موقف العداء وأخذت المعارضة منه في البداية شكل مناظرات بينهم وبين الدعاة، ثم تعاونوا مع الخوارج في القيام بالثورة عليه ومن جاء بعده [٤٩].

عندما كان الداعي يستولي على بلاد المغرب لصالح الإمام المنتظر، وعندما استولى على مدينة طبنة بالزاب في سنة ٢٩٣ هـ، رفض أن يأخذ أموال الجباية من عشر وزكاة وجزية مخالفة للشرع وأمر بردّها على أصحابها لتعاد جبايتها حسبما حددته النصوص الشرعية. أما الخراج فقد أمر الجباة برده إلى أهله وقال لهم: «لا قبالة ولا خراج على المسلمين».[٥٠] غير أن الإمام الفاطمي عبد الله المهدي عندما تولى السلطة لم يلغ الخراج بل أبقى عليه. واستحدث طريقة جديدة لتقديره كما

ذكرنا من قبل. ولم يف بما وعد به أو أعلن عنه الداعي أبو عبد الله. ربما لأن الداعي لم يكن هو صاحب القرار، أو أن جور السلطة الأغلبية سوف يلغيه عَدلُ الإمام المنتظر.

وعندما تولى الإمام السلطة لم يعد الناس بتأمين أموالهم، آمنهم فقط في أنفسهم وذويهم. وعندما سألوه التأمين في الأموال أعرض عنهم [٥١]. وينطوي عدم الالتزام هذا على نظرة المذهب الإسماعيلي للأموال، فهي أموال الإمام له الحق فيها، ولذلك هو الذي يشرع سياستها بناء على تأويله للنصوص.

ولقد اتبع الفاطميون في جباية الضرائب نظام القبالة، على الرغم من أن الداعي أعلن للناس أنه لا قبالة ولا خراج. والقبالة أو الضمان هي طريقة لجبي الضرائب كان المتقبل يتعهد بموجبها بدفع مبلغ معين للدولة سنوياً، وكان يتولى هو جباية الضرائب المفروضة على الإقليم. وغالبا ما يكون مبلغ التعهد أقل من المبلغ الذي يجبيه. والفائض يعود لحسابه الشخصي، ويذكر ابن حوقل: أن كل المغرب في العصر الفاطمي كان يعمل بالأمانة، حتى تقبلت برقة وليس جميع المغرب ضمان غيرها [٥٢] غير أن برقة لم تكن الإقليم الوحيد الذي تقبل، فولاية المسيلة كانت تعمل بهذا النظام أيام حكمها من طرف جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي [٥٣]، لكنه كان دون عهد أو دون أن يتفق معه الإمام على مبلغ معين، لهذا أراد المتقبلون أن يزيدوا على المبلغ الذي كان يدفعه وبعقد، إلا أن الخليفة رفض هذا العرض تقديراً لجهود أبيه [٥٤]. كما أن المهدية عاصمة الخلافة تقبلت هي الأخرى ولم يلغ نظام القبالة بها إلا بعد أن شكا أهلها للخليفة المعز لدين الله من ثقل الضرائب، فألغاها لكونهم أهل طاعته وحرم آبائه [٥٥].

ونظام القبالة هذا لم يستحدثه الفاطميون. فقول الداعي لا قبالة ولا خراج على المسلمين يعني أن هذا النظام كانت تعمل به الدولة الأغلبية. لهذا وصف السياسة

المالية الفاطمية بالجائرة، لأنها استحدثت ضرائب وعملها بنظام القبالة فيه نوع من الغلو، ويرجع ذلك إلى ما كتبه المالكية عن الدولة الفاطمية، وإلى الصورة التي رسموها لسياستها بسبب العداء المذهبي، بالإضافة إلى ثقل هذه الضرائب التي أرادت السلطة أن تجعلها شرعية وبدون أية تجاوزات، لأنها حسب رأيهم أمر الله.

لقد وضعت الدولة الفاطمية ضرائب على كل النشاطات الاقتصادية بالإضافة إلى الضرائب الشرعية المعروفة من خراج وجزية وعشر وزكاة. ففي المناطق التي تعد مناطق عبور للقوافل أو محطات تجارية مهمة، كان للسلطة الفاطمية موظفون يتولون جباية الضرائب التي تفرض على المتاجر. ومن هذه المراكز والمعابر مدينة اجدابية بولاية برقة التي كانت معبرا مهما من المعابر التجارية إلى بلاد السودان. فكانت قوافلها العابرة إلى بلاد السودان، أو العائدة منها إلى بلاد المغرب، تدفع ضرائب(٥٦). أما معابر ومراكز تجارة العبور مع المشرق فكانت مدينة صبرة، شرقي طرابلس، هي التي تدفع بها الضرائب على المتاجر المتجهة إلى الشرق من الغرب أو العكس. وهذا المرصد لم يكن موجوداً في الحقبة المتقدمة على حقبة الخلافة الفاطمية وإنما استحدثه الفاطميون عندما حكموا بلاد المغرب (٥٧). ولكي لا يتهرب أي تاجر من الضرائب التي فرضت عليه، أنشأت الدولة مراصد للمراقبة، فبمدينة سرت كانت تتم مراقبة القوافل التجارية مراقبة دقيقة، وذلك من خلال السجلات التي تحملها لكي يتعرفوا على دافع الضرائب من الذي تهرب منها في أفريقية.(٥٨)

وإذا اتجهنا ناحية الغرب يذكر ابن حوقل أن الدولة الفاطمية أنشأت بمنطقة الأوراس وبمدينة دار ملول مرصداً لدفع الضرائب على حمولة القوافل(٥٩). وهذا يبين أن الدولة الفاطمية وضعت المرصد تلو الأخر لمراقبة كل الطرق التي ارتادها التجار، حتى تتمكن من استخلاص الضرائب التي فرضتها عليهم، مما يبين دقة النظام الجبائي الذي سخرت له كل الوسائل، حتى تتمكن من تطبيقه على الوجه الذي تريده.

هذا بالنسبة للطرق البرية، أما بالنسبة للمعابر والمراكز البحرية فإن المراسي التي كانت تستقبل السفن القادمة من المشرق، أو المغرب، أو بلاد الأندلس فقد كان التجار يدفعون بها الضرائب الواجبة عليهم كمرسى المهدية و طبرقة وطرابلس وتنس (٦٠) على كل ما يدخل إليها وما يخرج منها من بضائع.

ولقد كان يراعى في تقدير هذه الضرائب حمولة القافلة، فعندما أهدى والي برقه أفلح الناشب في عهد الخليفة المعز لدين الله عشرين بعيراً للأستاذ جوذر محملةً بالهدايا، بعث هذا الأخير إلى الخليفة يطلب منه أن يكتب له سجلا بالإعفاء من الضرائب يكون بيد المتصرف في هذه الجمال حتى لا يدفع عليها ضريبة عند أبواب المدن والرحاب، لأن حملها كان ثقيلا، فأمر له الخليفة بما أراد (٦١). ويمكن أن نستدل على مدى مقدار الأموال التي كانت تدخل بيت مال الدولة من الضرائب التي كانت تفرض على المتاجر، ما بلغه دخل باب واحد من أبواب مدينة المنصورية وفي يوم واحد بلغ ٢٦ ألف درهم (٦٢)، مع أن هذه الرواية قد جاءت في صيغة تشكيكية، فراويها قال والله أعلم بالصواب. إلا أنها على الرغم مما تنطوي عليه من مبالغة تعكس مدى ما كان يدخل بيت المال من أموال، كما أن تقدير ابن حوقل لإيراد الدولة، وبناء على قول الذين كانوا يتولون بيت المال بلغ ما بين ٧٠٠ ألف و ٨٠٠ ألف دينار، ويقول أنهم لو أرادوا بسط أيديهم لبلغ الضعف، يبين أن الدولة الفاطمية كان بيدها أن تستغل كل الموارد المالية من خراج وعشر وصدقات ومراع وجوال ومراصد بالمقدار الذي تريده.(٦٣)

لقد مسّت هذه الضرائب الحجاج كذلك، فالخليفة عبد الله المهدي فرض عليهم أن لا يسلكوا طريقاً إلى الحج إلا طريق المهدية، ليدفعوا بها مغرماً، وربما يكون هذا الإجراء من الخليفة الفاطمي ليزيد من النشاط الاقتصادي في عاصمته حتى يستطيع أن يجبي من المال ما استطاع. وكانت هذه الضرائب تلاحق الحجاج أينما توجهوا في

بلاد المغرب، فعندما خرج أبو يزيد النكاري حاجاً كان يطالب بالضرائب في كل موضع يمر به مما جعله يقول: «ليس لله علينا أن نشتري حجة».[٦٤]

ولا بد أن هذه الضرائب التي مست أبا يزيد قد مست أباه كذلك الذي كان تاجرا يختلف إلى بلاد السودان بالتجارة [٦٥]، على الرغم من عدم إفصاح أبي يزيد عن ذلك، لهذا أعلن ثورته على السلطة الفاطمية التي مسَّه جورها وشططها الضريبي. فقام ليلغي هذه الضرائب عن الرعية.

وكانت ثورة أبي يزيد في مظهرها عامةً على الرغم من صيغتها المذهبية، جمعت إلى جانبه السنة التي مسّها جور السياسة الضريبية الفاطمية كذلك [٦٦]، وجاءت أسبابها اقتصادية، فالجور الضريبي مسّ كل أهل المغرب من غير الشيعة، لهذا توحدت أهدافهم وأجمعوا على إسقاط الخلافة الفاطمية، وعمل أبو يزيد على تخريب المصدر الذي كان سبب ثراء الفاطميين بإفساده المزروعات في منطقة الأوراس منطلق ثورته[٦٧]، كما أنه بإعلانه الثورة أشاع عدم الأمن في المنطقة، وبذلك كان يحدّ من تنقل التجار ونشاطهم، وعليه فلا يمكن للدولة أن تفرض الضرائب عليهم.

ومما يؤكد الدوافع الاقتصادية للثورة نص الحوار الذي دار بين الخليفة المنصور وصاحب الحمار عندما قبض عليه، ومما جاء في هذا الحوار: (... فقال الإمام تكلم أمامنا بملء فيك، ما الذي نقمت فيه على أمير المؤمنين ؟ فسكت، فقال له الإمام: «عم» تكلم! فسكت أيضاً، فقال له الإمام: «والله لتقولن، فرفع المارق رأسه ثم قال: نعم كان أبو القاسم كريما حوله قوم سوء هجنوه، فقال الإمام: بماذا؟، فسكت،فقال الإمام: لتقولن، قال المارق: هذه القبالات التي فيها الجور على المسلمين فقمت منكرا لذلك أريد إصلاح أمور الناس، قال: فهل علمت أن ذلك عن رأي أمير المؤمنين وأمره؟قال المارق: لا أعلم، إلا أنهم قد فعلوا، قال: فهلا كنت تشكو ذلك إلى أمير المؤمنين وتطلعه إن غيَّر المنكر، كان الذي أردت وإن لم يفعل اتخذت بذلك عليه الحجة»).[٦٨]

إن الناظر في هذا النص يتبين له أن الرواية الفاطمية الرسمية تريـــد أن تحمـل موظفي الدولة مسؤولية فرض الضرائب الجائرة، وأن الخليفة لم يكن يعلم ذلك، ومما يؤكد ذلك قول الخليفة القائم للاتباع عندما خرج صاحب الحمار عليه، إن هذا الخروج كان بسببهم لأنهم لم يمتثلوا لأوامره ويقصد بالاتباع "كتامة".(٦٩)

وقام الخليفة المنصور، وبعد أن انتصر على أبي يزيد في القيروان سنة٣٣٥هـــ وأخرجه من أفريقية بعدة إجراءات مالية مغايرة لما كان يتبعه من قبل، فتصدَّق علـى الفقراء، وأمر قاضي القيروان المالكي محمد بن أبي منظور بتوزيع هذه الصدقـة(٧٠)، وكان الخليفة المنصور قد ولاه قضاء القيروان ليسكن به نفوس أهل السنَّة، ولكـي لا يدفعهم إلى الثورة عليه مرة أخرى(٧١).

لقد ضمّن الخليفة المنصور الإجراءات المالية التي اتخذها للتخفيف عن الرعيـــة، خطبته التي قرأها حاجبه جعفر بن علي، فأعلن عن إعفاء جميع الناس مـــن الجبايـــة لسنة ٣٣٥هــ المسلم والذمي على حد سواء لكي يساعدهم على إعادة تعمير أرضـهم، وعودة الذين تركوا أراضيهم من أهل البوادي، كما وعدهم بالرجوع في المستقبل إلـى أحكام الشرع في جباية الضرائب، فلا يأخذ إلا العشر والصدقة، الطعام من الطعـــام، والشاة من الغنم، والثور من البقر، والبعير من الإبل، كما وعدهـــم بإظـــهار العـدل وإحياء الحق وإماتة الظلم والباطل (٧٢).

هذه الإجراءات التي اتخذها الخليفة المنصور وفي الخطبة نفسها التي قرأها حاجبه جعفر تبيَّن بأنه اتخذها بعد النصر، حتى لا يفسر الجهَّال على حد تعبيره بأنها استمالة لقلوب الرعية وخوف من العدو بل هذا الإجراء هو شكر لله على ما منّ به عليه مـــن نصر على العدو(٧٣).

ومن الثابت بالنسبة للسياسة الفاطمية، أن ثورة صاحب الحمـــار لـــم تســتطع أن تجعلها متغيرة. فعلى الرغم من شدة الثورة وظهورها بمظهر العنف والقـــوة، حتـــى

كادت أن تقوض الدولة بهجومها على عاصمتها، وإقدام الخليفة على إلغاء الضريبة لسنة حتى يعود الناس إلى بواديهم، وبذلك يعود للأرض عمارها، هذا الإجراء ينم عن تمسك الدولة بثوابتها، وهو توفير الأموال لتحقيق المشروع السياسي. فعندما لا تنتج الأرض فإن بيت المال لا يعمّر، وبذلك تعجز الدولة عن تحقيق أهدافها، كما أن إلغاء الضرائب لسنة واحدة إجراء لا يوحي مطلقاً بتغير في ثوابت الدولة، وإنما هو تعامل مع الوضع بذكاء حتى يتمكن الإمام من الوصول إلى أهدافه. ولقد أثبت الخلفاء الفاطميون مع كل المشاكل التي واجهتهم، أن المتغيرات التي تعاملوا بها مع هذه المشاكل جعلتهم يحققون الثابت في مشروعهم السياسي، لهذا نجد الخليفة المنصور ما إن سكنت الأوضاع حتى قام بتشريد أهل الجبال تحسباً لقيام أية ثورة ضده[1]. كما أعاد للدعاة الإسماعيلية حلقاتهم المذهبية التي كانوا يعقدونها في المساجد بعد أن منعهم وأخرجهم من المغرب وقتل الغلاة منهم[٧٤]. وهذا يبيّن أن الإجراءات التي اتخذها المنصور لإخماد الثورة لم تكن إلا إجراءات وقائية مؤقتة، لكي يتمكن من تحقيق أهدافه العليا، بل بهذه المتغيرات تمكن من تثبيت الثابت في هذه السياسة، وهو إقامة الدولة الشيعية وبإمامة أبناء محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

ومما يدعم ما ذهبنا إليه، الإجراءات التي عالج بها الخليفة عبد الله المهدي الثورة التي قامت ضده بسبب سياسته المالية في مدينة طرابلس، بالسماح لواليها ماكنون ابن ضبارة الأجاني ببسط أيدي كتامة على الناس[٧٥]، فأخذوا أموالهم وتطاولوا حتى على الحرم مما أدى إلى الثورة، فبعث لهم الخليفة بولي العهد القائم بأمر الله سنة ٣٠٠هـ فقضى على الثائرين، وغرمهم ما أنفق على الجيش وهو مبلغ أربعمائة ألف دينار[٧٦]، على الرغم من أن الرواية الشيعية تكتفي فقط بذكر أن القائم قتل أكابرهم الذين عقدوا على الخلاف واستصفى أموالهم[٧٧].

وكان المتغير الذي عولجت به ثورة طرابلس في بداية حياة الدولة الفاطمية أعنف من المتغير الذي عولجت به ثورة صاحب الحمار، لأن الثورة لم تكن بالقوة والشمول

التي كانت عليه ثورة صاحب الحمار، وقد أراد الإمام بهذا المتغير أن يثبت لكل من يفكر بالخروج عليه أن المال مال الإمام، ومن يرفض ذلك، ويستعمل القوة يتحمل أتعاب هذه القوة المالية التي يستعملها ضد الإمام.

وجعل تفاني رجال الدولة من دعاة كبار موظفين في خدمة الثابت والعمل على تحقيقه، يرجون لسياسة صاحب الحمار الجائرة تجاه الرعية ليثبتوا أن الذي خرج لإلغاء جور الأئمة أثبت أنه هو الجائر. وتتفق الرواية الشيعية مع الرواية السنية بأن أبا يزيد كان أكثر جورا في أخذ الأموال من الفاطميين، فتذكر الرواية الشيعية أن رجلا جاء مستغيثا بأبي يزيد ليخبره بأن كتامة خلال الأربعين سنة التي كان يؤدي الضرائب فيها ما أخذوا منه غير ألف دينار، والسجلات التي كانت معه أثبتت بها قوله. أما أصحاب أبي يزيد أخذوا منه وفي ساعة واحدة ما يزيد على أربعة آلاف دينار،كما سبوا له نساء حرائر(٧٨)، كما أنه كان يدفع الضرائب للفاطميين وهو في داره مع أسرته وأمواله لم تسلب منه، بينما أصحاب أبي يزيد أخذوا أمواله وخربوا بيته وفرقوا أهله(٧٩). وتجمل هذه الرواية الشيعية الرواية السنية بالقول بأن أبا يزيد أخذ لشخص بالمسيلة ٥٠ مثقالاً وابنتين بكراً(٨٠)، وبذلك تمكنت الدولة الفاطمية من جعل ثابتها أمراً مشروعاً، بل واجبا دينيا والذين أشاعوا عنها الجور والظلم هم الظالمون وهم الجائرون ويريدون اغتصاب شرعيتها في السلطة.

ومن الوسائل التي تمكنت الدولة الفاطمية أن تحقق بها الثابت في سياستها، وهو إقامة سلطان للإمامة الإسماعيلية في بلاد المشرق، وإعفاء الأولياء وكبار الدولة من الضرائب التي كانت تفرضها على عامة الناس. فقبيلة كتامة التي أقامت الدولة بسيوفها في المغرب والمشرق لم تكن تدفع الضرائب التي تدفعها بقية فئات المجتمع. ولم يفكر الخليفة الفاطمي في أن يجعل عليها ضريبة في الديوان إلا بعد أن استعد للإنتقال إلى مصر. فبعث إلى شيوخهم يخبرهم بأن الخليفة يريد أن يعين عمالا في كتامة يقومون بجباية صدقاتهم ومراعيهم، وتحفظ هذه الأموال في بلاد كتامة ولا

يأخذها إلا عندما يكون بحاجة إليها[٨١]، غير أن شيوخ كتامة عدوا هذه الضرائب جزية، وجاء ردّهم على المعز بأنهم مسلمون على مذهب السلطة التي أقاموها للأئمة في بلاد المغرب، وسيوفهم بطاعتهم في المغرب والمشرق، وهم بذلك أصحاب فضل عليهم، لهذا رفضوا هذه الضرائب، وجاء رد المعز عندما حضروا إليه، ويطلب منه، كالتالي: " بارك الله فيكم، فهكذا أريد أن تكونوا وإنما أردت أن أجربكم فأنظروا كيف أنتم بعدي إذا سرنا عنكم إلى مصر عل تقبلون هذا أو تفعلونه وتدخلون تحت ممن يرومكم؟ والآن سررتموني بارك الله فيكم" [٨٢]. وكان هذا التأويل لموقف كتامة في الحقيقة امتحاناً لها، إن كانت ستظل على طاعتها وتبعيتها للسلطة بعد أن خرج أغلبها في الجيش الذي فتح مصر والشام، وبذلك قل عددها وضعفت قوتها في بلادها فيتمكن الخليفة من فرض الضرائب عليها كغيرها من القبائل المغربية، غير أنه لم يجرؤ عندما أخذ الأموال التي كانت عند المشايخ والدعاة بإيكجان، مما أدى إلى خروجهم عنه ووقوفهم مع أبي عبد الله الداعي.

ولقد نظرت كتامة إلى هذه الضريبة على أنها جزية، بينما سماها الخليفة صدقة، فهل كانت كتامة ترى في أن الضرائب الفاطمية الإسماعيلية لا تفرض إلا على المخالفين لمذهبها، وبذلك هي مسلمة مؤمنة لأنها تدين بالمذهب الإسماعيلي، وعليه لا يجوز فرض ضريبة عليها، مع العلم أن المذهب الإسماعيلي أمر بأخذ الزكاة والخمس من الاتباع.

وكانت كتامة ترى في خدمتها العسكرية للدولة أنها كفيلة بإعفائها من كل الضرائب، فهي التي أقامت سلطانها بسيوفها في المغرب والمشرق، وهذا ما فهم من ردّ شيوخها.

وعندما خرج المعز إلى القاهرة ومن خلال ما جاء في نص الوصية لخليفته على المغرب حيث قال له: «إن نسيت ما وصيناك به فلا تنس ثلاثة أشياء: إياك أن ترفع

الجباية عن أهل البادية، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تول أحدا من إخوتك...»[٨٣]. لم يستثن المعز كتامة في هذه الوصية من الضريبة، إلا لأنها سوف تكون معه في المشرق تحمي بسيوفها سلطانه. وما تبقى من كتامة في بلادها بات لا يشكل أي خطر عليه، لأنها أصبحت تحت سلطة خليفته الصنهاجي، وبذلك كانت كتامة متغيرا من متغيرات سياسة الدولة الفاطمية.

لم تكن كتامة هي فقط التي أعفيت من الضرائب، قد أعفى الخلفاء الذين ناصروا الدعوة وعملوا على الترويج لها وإنجاحها، مثل أبي القاسم المطلبي القيرواني، الذي رافق المهدي إلى سجلماسة، وكان سفيرا بينه وبين أبي عبد الله الداعي بإفريقية [٨٤].

ومن الذين أعفوا من الضرائب كذلك من رجال الدولة الأستاذ جوذر، فعندما أهداه والي برقة أفلح الناشب عشرين بعيراً محملاً بالهدايا، كتب إلى الخليفة يطلب الإعفاء من الضرائب فأعفاه[٨٥]. غير أن وضع الصقالبة كان يختلف عن وضع كتامة في السياسة الفاطمية، فالصقالبة خدمتهم إجبارية بسبب عبوديتهم، بينما خدمة كتامة تطوعاً، وبها ملكوا الصقالبة ولم يملكوها بالصقالبة[٨٦]، وكان إعفاء بعض الصقالبة استثنائياً بينما إعفاء كتامة كان شاملاً، ودام طيلة المرحلة المغربية.

وعلى الرغم من المهارة التي أبداها الفاطميون في شؤون المال، إلا أن من خلفائهم من كان يشكو صعوبة التحكم في هذا الجانب، بسبب صعوبة رصد حقيقة ما كان يجري بين الرعية والعمال ومعرفته. فلقد كانت الرعية تبدي رضاها عن العمال عندما يكفون أيديهم عن أخذ الأموال، وإذا أخذوها كانت تكثر فيهم الشكاوى، غير أن كف اليد كان يرى فيه الأئمة ذهاباً لحقوقهم وفساداً للأحوال[٨٧]، لأن هذه الأموال التي كان يجمعها الأئمة كانت تدفع منها أجور العاملين على حفظ الأمن في كل أنحاء الدولة، فكان التاجر يسافر بمتاجره وبأمواله حيث يشاء دون خوف من لصوص أو قطاع طرق، لأن عين الدولة كانت ساهرة ليل نهار على الحفاظ على الناس

وأموالهم[٨٨]، ولم يكن حرص الأئمة على أخذ واجب الأموال على الناس إلا حفاظا على مصالحهم، لأنهم ينظرون بنور الله ويحكمون بأحكامه[٨٩]، فحفظ الأمن كان يوفر الاستقرار الذي يمكن الدولة من تحقيق مشروعها السياسي، أي العودة إلى بلاد المشرق لإقامة إمامة شيعية على المذهب الإسماعيلي وهو الثابت الدائم في الإيديولوجية الإسماعيلية، لأن الإمامة عندهم أصلٌ من أصول الدين، بل هي عقيدة يجب إقامتها وغدت بذلك ثابتاً يتمثل في إمام معصوم، وعالم عصمة الأنبياء وعلمهم مالك لكل شئ على الأرض وما تخرجه، لأن صلاح الدين والدنيا متوقف عليه، لأنه الحافظ للشريعة التي بلغها الرّسول ﷺ وهو حجة فيها، وما السياسة المالية التي اتبعها الخلفاء الفاطميون إلا تنفيذ للإيديولوجية الإسماعيلية، ولهذا لا يمكن دراستها منفصلة عن أصولها المذهبية.

الهوامش

١- القاضي النعمان: **دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام على أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام**، تحقيق آصف فيضي، دار المعارف، القاهرة١٩٦٩، ١/٣٦٦.

٢- **نفسه**

٣- **نفسه** ١/٣٧٠-٣٧١.

٤- **نفسه** ١/٣٦٦.

٥- عندما أقر المعز لدين الله بعد توليه الخلافة القاضي النعمان في منصبه قاضيا للقضاة، بان ينظر دون غيره من القضاة في أمر أوليائه وجنده وعبيده.انظر القاضي النعمان: **اختلاف أصول المذاهب**، تحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس للنشر والتوزيع بيروت،١٩٨٣/٤٨.

٦- القاضي النعمان: **الدعائم** ١/٣٦٦.

٧- القاضي النعمان: **الهمة في آداب اتباع الأئمة**، تحقيق مصطفى غالب،دار مكتبة الهلال، بيروت،١٩٨٥/٦٢وما بعدها

٨- القاضي النعمان: **الهمة في آداب اتباع الأئمة** /٧.

٩- **نفسه** /٢١.

١٠- **سورة النساء**: آية ٥٩.

١١- القاضي النعمان: **الهمة** /٢٣.

١٢- د.سهيل زكار: **الفكر الإسماعيلي في تطوره الأفريقي**، ملتقى القاضي النعمان الأول، المهدية،١٢-١٥ اوت١٩٧٥، تونس ٣٦/١٩٧٧.

١٣- القاضي النعمان: **الهمة**/٧٥.

١٤- **سورة التوبة**: آية٦٠.

١٥- النعمان: **المصدر المتقدم نفسه** /٧٩ فرض القرامطة على الأتباع هذه الضريبة وجعلوها خمس ما يملك الفرد سواء كان رجلا أو امرأة، النويري: **نهاية الأرب**، نشر د.سهيل زكار قسما من الجزء ٢٥ ضمن مجموعة النصوص تحت عنوان "الجامع في أخبار القرامطة في الاحساء والشام والعراق واليمن"، ط١، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق،١٩٨٧،ج٢/٤٣٣.

١٦- **نفسه**/٨٠.

١٧- **سورة الأنفال**: آية٤١.

١٨- انظر التفاصيل حول ذلك عند د.محمد أمين صالح: **النظام المالي والاقتصادي في الإسلام**، مكتبة نهضة الشروق، القاهرة١٩٨٤/١١٢-١١٣.

١٩- القاضي النعمان: **الهمة**/٨٠.

٢٠- **نفسه**. Le Califat au Maghreb,296-362 H-973 :F.DECHRAOUI. Histoire politique et institution, Tunis,1981,P.329

٢١- القاضي النعمان: **نفس المصدر السابق**.

٢٢- **سورة الأنفال**: آية/٤١.

٢٣- فرض القرامطة هذه الضرائب على الاتباع وقدروها بدينار واحد على كل رأس أدرك الحنث وهي ضريبة الهجرة ثم فرضوا فريضة البلغة وهي سبعة دنانير بناء على تأويل الآية: «... **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**»، سورة

البقرة، آيه ١١١، كما فرضوا ضريبة أخرى بعد أن ضمنوا أن الاتباع يدفعون لهم كل الضرائب السابق ذكرها وسموها (الألفة) وهي أن يجمع الناس أموالهم في موضع واحد وأن يكونوا في ذلك أسرة واحدة لا يفضل أحد منهم صاحبه وأخاه فيما ملك يملكه.انظر النويري: **نهاية الأرب** ج٢٥/٤٣٣-٤٣٤، وهناك ضريبة أخرى تحدث عنها محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي: **كتاب كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة**، دار الطليعة، بيروت،١٩٨٣، وهي ضريبة النجوى يدفعها المعتنق للمذهب ومقدارها ١٢ دينار انظر **الجامع في أخبار القرامطة** ٢/٣٥٢-٣٥٣،F-DACHRAOUI: Op-cit,P.328

٢٤- د.الحبيب الجنحاني: **دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي**/٥٢-٥٣.

٢٥- قسم الإسماعيلية العالم إلى اثنتي عشرة منطقة وسموها جزرا جمع (جزيرة) بعدد أشهر السنة وروعي في هذا تقسيم العامل الإثني والهدف السياسي فجعلوا مثلا مصر والشام والمغرب جزيرة واحدة، انظر أبو منصور اليماني: **كتاب البيان لمباحث الإخوان**، تحقيق مصطفى غالب، بيروت،١٩٥٤/١٢ عادلة علي الحمد: **قيام الدولة الفاطمية في بلاد إفريقية والمغرب**، دار مطابع المستقبل، الإسكندرية،١٩٨٠/٦٩

٢٦- محمد بن محمد اليماني: **سيرة الحاجب جعفر**، نشر ايفانوف، مجلة الجامعة المصرية، القاهرة١٩٦٩/١٠٨ن ويذكر في ص.١٠٩ أن أحمال الأموال كانت تدخل في سرداب على الجمال حفر هذا السرداب في الأرض في جوف دار الإمام سلمية، وبلغ طوله اثني عشر ميلا.

٢٧- القاضي النعمان: **الافتتاح**/١٢٧.

٢٨- القاضي النعمان: **المجالس والمسايرات**، تحقيق محمد اليعلاوي،ابراهيم شبوح، الحبيب الفقهي، الجامعة التونسية، تونس،١٩٧٨/٠٩.

٢٩- **نفسه** /٥١٩.

٣٠- مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، ١٩٨٥/٢٠٣.

٣١- القاضي النعمان: **الافتتاح**/٢٨٨،المقريزي: **اتعاظ الحنفا**/١٦٦، الداعي إدريس القرشي: **عيون الأخبار وفنون الآثار**، نشر القسم الخاص بالمرحلة المغربية د.محمد اليعلاوي تحت عنوان: **تاريخ الخلفاء الفاطميين في المغرب**، دار الغرب الإسلامي، بيروت،١٩٨٥/١٦٧.

٣٢- تقي الدين المقريزي: **كتاب المقفى الكبير**، نشر محمد اليعلاوي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧/٨٧.

٣٣- مجهول: **الاستبصار**/٢٠٢.

٣٤- القاضي النعمان: **الافتتاح**/١٢٤.

٣٥- **نفسه**/١٢٩.

36- Georges Marçais :**La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen âge**, Paris 1946, P/143

37- **IBID.**

٣٨- القاضي النعمان: **المجالس** /٤٩٤.

٣٩- الدولة العباسية، **الفاطميون** ١٣٢-٤٤٨هـ/٧٥٠-١٠٥٥م/ الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت،١٩٨٦/٢٢٤.

٤٠- د. محمود إسماعيل: **محنة المالكية في إفريقية**، نشر ضمن مجموعة أبحاث تحت عنوان: **مغربيات**، المكتبة المركزية، فاس،١٩٧٧/٧٢.

٤١- د. الحبيب الجنحاني: **دراسات مغربية/٧٠**. وحول الضرائب في بلاد المغـرب خلال العصر الفاطمي، انظر جورج مارسيه: **بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمه عن الفرنسية محمـود عبـد الصمـد هيكل، راجعه مصطفى أبو ضيف أحمد، الإسكندرية ١٩٩١/١٦٤-١٧٠.

٤٢- محمد بن الحارث الخشني: **طبقات علماء إفريقية**، دار الكتاب اللبناني/١٧٢.

٤٣- ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغـرب**، تحقيـق ومراجعة كولان وليفي بروفنسال،ط٣، دار الثقافة، بيروت،١٩٨٣،١/١٧٣.

٤٤- الخشني: **نفس المصدر** السابق١/١٧٢.

٤٥- ابن عذاري: **نفس المصدر** السابق١/١٧٣.

٤٦- **نفسه** ١/١٨١.

٤٧- الخشني: **نفس المصدر** السابق ١٦٨-١٦٩، د. الحبيـب الجنحـاني: **نفـس المرجع** السابق٦٥/٦٧.

٤٨- العزيزي الجوذري: **سيرة الأستاذ جوذر**، تحقيق ونشر محمد كامل الحسـين وعبد الهادي شعيرة، القاهرة ١٩٥٤/٩٥.

٤٩- د. محمود إسماعيل: **مغربيات/٧٢**.

٥٠- ابن عذاري: **البيان** ١/١٤١-١٤٢.

٥١- ابن عذاري: **البيان** ١/١٥٨.

٥٢- **صورة الأرض**، مكتبة الحياة، بيروت/٩٤.

٥٣- العزيزي الجوذري: **السيرة** ١٢٩-١٣٠، ويذكر أن المبلغ الذي كان ينبغي أن يدفعه جعفر سبعون ألف دينار.

٥٤- **نفسه**.

٥٥- **نفسه**/١١٤.

٥٦- ابن حوقل: **صورة الأرض**/٧٠.

٥٧- **نفسه**/٧١.

٥٨- **نفسه**/٧٠-٧١.(١) ابن حوقل: **صورة الأرض**/٨٥.

٥٩- **نفسه**/٧١،٧٦،٧٨.

٦٠- العزيزي الجوذري: **السيرة**/٩٥ وانظر كذلك ص.١٠٩-١١٠.

٦١- مجهول: **الاستبصار**/١١٥.

٦٢- ابن حوقل: **صورة الأرض**/٩٤.

٦٣- أبو العباس بن أحمد سعيد الدرجيني: **كتاب طبقات المشائخ بالمغرب**، تحقيق ابراهيم الطلاي، مطبعة البعث، قسنطينة،١/٩٧.

٦٤- عبد الرحمن بن خلدون: **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت،١٩٨١،٧/٨٤، الداعي إدريس: **عيون الأخبار**/٢٦٥.

٦٥- راجع حول هذا الموضوع بحث د.محمد إسماعيل: **محنة المالكية في إفريقية في مغربيات**/٥٧.

٦٦- الداعي إدريس: **نفس المصدر** السابق/٢٦٩.

٦٧- الداعي إدريس: **نفس المصدر** السابق/٤٤٦.

٦٨- **نفسه**: ٣٧٢ هو أبو عبد الله محمد بن أبى المنظور عبد الله بن حسان الأنصاري(ت٣٣٧هـ)، انظر ترجمته في أبو بكر المالكي: **رياض النفوس في طبقات علماء إفريقية والقيروان**، تحقيق لعروسي المطوي، والبشير البكوش، دار الغرب الإسلامي،١٩٨١،٢/٣٥٨، القاضي عياض اليحصبي

السبتي: **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، دار مكتبة الحياة، دار مكتبة الفكر ،بيروت، طرابلس،٣/٣٣٩.

٦٩- المالكي **نفس المصدر** السابق٢/٣٦٠.

٧٠- القاضي النعمان: **المجالس**/٤٢٩.

٧١- الداعي إدريس: **نفس المصدر** السابق/٣٨٠ إلى جانب هذه الإجراءات المالية اتخذ المنصور إجراءات أخرى تخص النشاط الدعوي فقتل الدعاة ونفى بعضهم إلى الأندلس وغيرها من البلاد، وأذن للفقهاء والمحدثين بالجلوس للفتوى للناس وأعلن أن كل الإجراءات الدعومذهبية لم تكن بعلمه. انظر القاضي عبد الجبار الهمداني: **تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد ﷺ**، نشره د.سهيل زكار في الجامع لأخبار القرامطة١/٣١٠ كما ولى القضاء مالكيا تنفيذا لما قررته العامة، القاضي عياض: **المدارك** ٣/٣٣٩

٧٢- الداعي إدريس: **نفس المصدر** السابق/٣٧٩ .

٧٣- القاضي عبد الجبار الهمداني: **نفس المصدر** السابق١/٣٢٥.

٧٤- **نفسه**.

٧٥- ابن عذاري: **البيان** ١/١٦٨.

٧٦- أبو محمد ابن عبد الله بن محمد التيجاني: **الرحلة**، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبية، تونس،١٩٨١/٢٤٠.

٧٧- القاضي النعمان: **الإفتتاح**/٣٢٥.

٧٨- الداعي إدريس: **نفس المصدر** السابق/٣٠٠.

٧٩- القاضي النعمان: **المجالس**/٣٣٦-٣٣٨.

٨٠- مجهول: **الاستبصار**/٢٠٦.

٨١- المقريزي: **اتعاظ الحنفا**/٩٧-٩٨.

٨٢- المقريزي: **اتعاظ الحنفا**/٩٨. أورد القاضي النعمان نص حوار دار بينه وبين الخليفة المعز في إحدى مجالسه تناول موضوع معرفة الحاكم أو الإمام بأمور رعيته مهما بعدت المسافة بينهما، ويستدل في ذلك بقصة النبي سليمان والهدهد التي كان يرى الجاحظ بشأنها أن النبي سليمان لم يكن يعرف من أمر ملكة سبأ شيئا إلى أن أتاه الهدهد بأخبارها. فالخليفة المعز يرى إذا كان الحاكم العادل يستطيع أن يعرف أخبار رعيته، فكيف بالنبي. انظر القاضي النعمان: **المجالس**/٢٦٣-٢٦٤.

٨٣- **نفسه**/١٠١.

٨٤- محمد بن محمد اليمني: **سيرة الحاجب جعفر**/١٢٣،ابن عذاري: البيان١/١٩٩.

٨٥- الجوذري: **السيرة**/٩٥.

٨٦- القاضي النعمان: **المجالس**/٢٤٦.

٨٧- **نفسه**/١٣٥.

٨٨- القاضي النعمان: **المجالس**/٣٣٧-٣٣٨.

٨٩- القاضي النعمان: **الهمة**/٩.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة

١- **القرآن الكريم.**

٢- إسماعيل محمود: **مغربيات**، المكتبة المركزية، فاس،١٩٧٧.

٣- التجاني أبو محمد بن عبد الله بن محمد: **الرحلة**، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس١٩٨١

٤- الجنحاني الحبيب: **دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي**، دار الطليعة،بيروت١٩٨٣.

٥- الجوذري العزيزي: **سيرة الأستاذ جوذر**، نشر وتحقيق محمد كامل حسين وعبد الهادي شعيرة، القاهرة١٩٥٤.

٦- الحمد عادلة علي: **قيام الدولة الفاطمية في بلاد إفريقية والمغرب**، دار مطابع المستقبل، الاسكندرية١٩٨٠.

٧- ابن حوقل أبو القاسم النصيبي: **صورة الأرض**، مكتبة الحياة، بيروت.

٨- الخشني محمد بن الحارث بن أسد: **كتاب طبقات علماء أفريقية**، دار الكتاب اللبناني،بيروت١٩٨١.

٩- ابن خلدون عبد الرحمن: **العبر و ديوان المبتدأ والخبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت١٩٨١.

١٠- الدرجيني أبو أحمد بن سعيد: **كتاب طبقات المشائخ بالمغرب**، تحقيق ابراهيم الطلاي، مطبعة البعث قسنطينة.

١١- زكار سهيل: **الجامع في أخبار القرامطة في الاحساء والشام والعراق واليمن**، ط١، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق١٩٨٧.

١٢- : **الفكر الإسماعيلي في تطوره الإفريقي**، ملتقى القاضي النعمان الأول، المهدية١٢/١٥أوت١٩٧٥،تونس ١٩٧٧.

١٣- شعبان محمد عبد الحي: **الدولة العباسية- الفاطميون** ١٣٢-٤٤٢/٧٥٠-١٠٥٥م، الاهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٦.

١٤- صالح محمد أمين: **النظام المالي والاقتصادي في الإسلام**، مكتبة نهضة الشروق، القاهرة١٩٨٤.

١٥- ابن عذاري المراكشي: **البيان المغر بالأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة كولان وليفي بروفنسال،ط٣ دار الثقافة بيروت ١٩٨٣.

١٦- القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتيك **ترتيب المدارك وتقريب المسالك** لمعرفة أعلام مذهب مالك، دار الحياة، دار مكتبة الفكر بيروت، طرابلس.

١٧- القاضي النعمان: **دعائم الإسلام وتذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام على أهل بيت رسول الله ﷺ** تحقيق آصف فيضي، دار المعارف القاهرة١٩٦٨.

١٨- : **كتاب افتتاح الدعوة**، تحقيق فرحات الدشراوي تونس الجزائر ١٩٨٣.

١٩- : **اختلاف أصول المذاهب**، تحقيق مصطفى غالب،ط٣، دار الأندلس للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٣.

٢٠- **المجالس والمسايرات**، تحقيق محمد اليعلاوي، ابراهيم شبوح والحبيب الفقي، تونس ١٩٧٨.



مدينة عنابة ودورها السياسي والحضاري منذ العهد الحمادي إلى نهاية العهد الحفصي في المغرب

الدكتور صالح محمد فياض أبو دياك

قسم التاريخ - جامعة اليرموك

مدينة عنابة ودورها السياسي والحضاري منذ العهد الحمادي إلى نهاية العهد الحفصي في المغرب

ملخص البحث

تناول البحث موقع المدينة وأهميته باعتباره محور من محاور الشمال والجنوب، كما تناول ثروات المدينة الزراعية والحيوانية والمعدنية، الأمر الذي جعلها محطّ أطماع الدول المجاورة لها.

وامتاز ميناؤها بحركته التجارية النشطة من استيراد وتصدير، ومن تنافس بين الجمهوريات الإيطالية وفرنسا، واسبانية، في الحصول على الامتيازات التجارية ومن ضمنها صيد المرجان.

وتعرض البحث إلى الناحية العمرانية والثقافية في المدينة، من حيث بناء المساجد والحصون، وتوسيع المدينة وتغير أسمائها بتغير الأزمنة والحوادث التاريخية، وقدوم عدد من العلماء وخاصة من الأندلس، ممن أثروا الحياة العلمية فيها أمثال عبد الملك أبو مروان، كما كان لهم الفضل في استغلال الأراضي وتوسيع رقعتها الزراعية وخاصة زراعة الزيتون، والمتاجرة في المنتجات الزراعية مما أكسبهم الثراء والغنى، فاستخدموا جزءاً من ثرواتهم في افتداء الأسرى من المسلمين، ممن يقعون في يد الأعداء.

Dr.Saleh Muhammed Fayyad Abu Dayyak
Associate Professor of Islamic History
Department of History- Yarmouk University

Abstract

The city of Innabah; it's political and cultural rule, From the era to the end of the Hafssi era

This study described the strategic position of the city of Innabah; its agricultural and mineral wealth, which made it an attractive spoil for its neighbors.

The city had a bousy port which witnessed a commercial actives on a large scale. France, Spain, and the commercial Italian cities competed to get commercial privileges in the port, form its rulers.

The study also discussed the cultural and architictural developments in the city. Many learned men "ulama" migrated to the city from all over the Muslim world, especially from al- Andalus. Few of them, like, Abd-al-Malik-abu Marwan contributed to the development of agricultral land, especially in plauting olive trees, which resulted in a surplus of agricultral produce and enabled the farmers to trade their products. These economic developments enriched the city and its rulers, who used part of their weath to ransom Muslim Prisoners caught by their enemies.

عاشت مدينة عنابة فترات متتالية من تاريخها الطويل، عرفت أثناءها تبدّل الأماكن وتغير الأسماء، تبعاً للظروف السياسية والأحوال الاقتصادية التي امتازت بها كل فترة من هذه الفترات، وارتبط اسمها بأسماء عدد من الأماكن في الشرق، فجبل عناب الواقع في طريق مكة، وكذلك موضع عنابة الواقعة على بعد ثلاثة أميال من الحسينية الواقعة في الطريق المؤدية إلى مكة(١).

والعناب ثمر معروف، وواحدته (عنابة) وقد يسمى ثمر الأراك عناباً، ويقال كذلك (السنجلان) بلسان الفرس(٢)، ويسمى باللغة الفرنسية (Jujube) وباللاتينية (Zizyphum)(٣)، وأشجار العناب، أشجار شوكية، متعددة الأنواع، بعضها زينة، وبعضها أشجار مثمرة، وثمرها يصلح للتداوي، ينفع في السعال ووجع الكليتين والمثانة(٤).

ويبدو أن كتب الجغرافية العربية وكتب الرحلات السابقة للقرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر الميلادي، التي وصلت إلى علمي، لم تورد اسم (عنابة) الجزائر ضمن الأماكن المذكورة في الشرق آنفاً بل ذكرت اسم بونه، حتى البكري الذي يصف بونه أكثر من غيره لا يذكر اسم عنابة ضمن الأسماء التي تعاورت على المدينة أثناء تطورها، كمدينة زاوي، و(بونة الحديثة)(٥). وقد يستدل من ذلك أن هذا الاسم جديد نسبياً، أو أنه لم يكن معروفاً أو شائعاً حتى يدوّن في تلك المؤلفات، لكن ابن خلدون على الرغم من عدم إشارته لا في كتابه ولا في مقدمته إلى (عنابة) إلا تحت اسم بونة، فإن التعبير (بلد العناب) قد ورد في كتابه عند حديثه عن بطون الهلاليين وهجرتهم وعن استقرارهم، فيشير إلى أن أعز بطون الأثبج وأعلامهم، كانت مواطنهم بين بلد العناب(٦) وقسطنطينة. وقد تكون التسمية الجديدة قد أطلقها هؤلاء العرب الوافدون على المنطقة، لما رأوه من كثرة شجيرات العناب في إقليمها(٧)، ثم لم تلبث أن انسحبت التسمية على المدينة ذاتها لكثرة تجارتها بثمر العناب في الداخل والخارج(٨).

وإذا كانت كتب الجغرافيين والمؤرخين قبل القرن التاسع لم تنل كلمة عنابة حيزاً في كتبهم، فإن كلمة بونة قد شاع ذكرها عندهم، وارتبط اسمها هي الأخرى بأسماء أماكن عديدة مثلما ارتبط اسم عنابة من قبل.

بونا بفتح أوله وثانيه وتشديد نونه، والقصر، ناحية قرب الكوفة، يقال لها تل بَوَنَّه البونت بالضم والواو والنون ساكنان والتاء فوقها نقطتان، حصن بالأندلس وربما البُنْت، تون، مدينة باليمن، زعموا أنها ذات البئر المعطلة، والقصر المشيد، وبَوَن بفتحتين، ويروى بسكون الواو. بليدة بين هراة ويغشور، وهي قصبة ناحية باذغيش بينها وبين هراة مرحلتان، قال: سمعتهم يسمونها بينة[٩]. عرفت بونه في العصور القديمة تحت اسم (هيبو، هيبون)[١٠]، الواقعة على رحب وادي سيبوس عند السفوح الشرقية لمرتفعات ايدوغ، تنبسط حولها سهول خصبة على امتداد أربعين ميلاً طولاً، وستة وعشرين ميلاً عرضاً؛ أي ما يساوي ٤٦كلم طولاً، ٤٠كلم عرضاً، وعلى هامش هذه السهول تبدأ المرتفعات النوميدية في الظهور، حيث الغابات الكثيفة والأشجار المثمرة، ويطل جبل (ايدوغ) عليها من الخلف، الغني في الثروة المعدنية كالحديد والنحاس إلى جانب الرخام مما ساعد في تعدد الموارد الاقتصادية[١١].

ويبدو أنه قد أقيمت فيها كنيسة القديس اغسطين العالم النصراني، وهذا الذي دعا البكري أن يسميها باسمه مدينة افشتين[١٢]. وعندما فتحها المسلمون بقيادة حسان بن النعمان سنة ٧٨هـ/٦٩٧م[١٣]، في عهد الخليفة عبد المنك سنة ٦٥ ـ ٨٦هـ/٧٨٤ ـ ٦٨٧م وإنْ رأى بعضهم أن فتحها تمّ على يد [١٤] عقبة، ولكن الأرجح لدى المؤرخين أن حسان هو الذي فتحها، وعند فتحها استقر المسلمون بجوار الخرائب الرومانية بالقرب من وادي (سيبوس). وينكر بعض المؤرخين بأن المدينة (هيبون)

من بناء الكريتيين[١٥]، ويرى معظمهم أن الفنيقيين[*] هم الذين قاموا ببنائها، مستندين في قولهم أن الجذر العربي لمدينة هيبون هو أوبو (Ubbo) أو آبون (Ubbon) عب يعب عباباً، ومعناها المياه المتدفقة[١٦]، وقد يصدق الاسم، لأن المنطقة المجاورة لها منخفضة، ويغمرها الماء بشكل دائم، وقد استخدمت فيما بعد لزراعة الأرز. وربما أدّت مثل هذه السبخات إلى وجود الرطوبة فيها، مما جعلها غير ملائمة للبيضان، كما يقول البكري[١٧].

وهناك المدينة الجديدة التي تبعد عن المدينة القديمة ثلاثة أميال، والتي سميت بعد اقتطاعها لزاوي بن باديس بمدينة زاوي، وكان قد أقطعه إياها المعز بن باديس، رابع سلاطين بني زيوي، وصلته به أنه حفيد أخيه بلكين، وقد نزل لاجئاً من الأندلس سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م[١٨]، وبعد أن حكم مملكة غرناطة من سنة ٤٠٣ ـ ٤١٠هـ/٩٨٢ ـ ١٠١٩م عندما قدم إليها من المغرب، وعنه يقول ابن خلدون عند لقاء المعز به: "ولقيه بأحسن البرّ والتجلة، وأنزله أرفع المنازل من الدولة، وقدّمه على الأعمام والقرابة، وأسكنه قصره...)[١٩].

وتتمتع المدينة بموقع ممتاز بين تخوم مملكتين صنهاجيتين شرقية وغربية، مملكة القيروان شرقاً، والقلعة أو بجاية غرباً، وقد أشار إلى هذا أبو الفدا بقوله: "إنّ بونة على آخر سلطنة بجاية، وأول سلطنة أفريقية"[٢٠] والنزاع قائم بين السلطنتين، الأمر الذي سهل له السيطرة عليها، ويبدو أن ذاك الوقت وقت إقطاع، وهذا ما عناه البكري بقوله: "اليوم..." يعني في وقت متأخر، والبكري دوّن كتابه في سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م واقطاعه إياها سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م.

(*) أطلق الإغريق على الكنعانيين اسم "فينيقيين" وأول مرة كان ذلك في (الأوديسية) وبعد ذلك لدى هكاتيوتس المؤرخ ــ الجغرافي اليوناني (٥٦٠-٤٨٠ ق.م.)، ثم شاعت فيما بعد.. ولا نعثر على هذه التسمية "فينيقية" في وثائقنا القديمة، وبالتالي التسمية خاطئة ولا يوجد شعب فينيقي مختلف عن الكنعانيين. رئاسة التحرير

وعندما قدم العرب إليها، كان سكانها من قبائل أوربة ومصمودة، ونفرة، وولهاصة البربرية. وذكر موقعها ابن حوقل بأنها تقع على نحر البحر[٢١]، وأما عن الرأي القائل بأنها بنيت في أواسط القرن الرابع الهجري، فهذا يرجع إلى الظروف التي مرّت بها، فعندما غزاها النورمان، كان لا بد من تجديدها وتسويرها، ولأنها واقعة على نحر البحر على الجهة الغربية ما بين أفريقية وصقلية، أكسبها أهمية خاصة، فكان ميناؤها يعدّ ثغراً هاماً في الشرق الجزائري بحركته التجارية النشطة، حيث يصدر الخشب المصنوع وغير المصنوع، والنارنج والأرز، وحرير قابس، والمواشي وخاصة البقر – بقر قاله، وقموح الولاية كلها إلى جانب السمك والإسفنج والمرجان، ويستورد من الشرق، الزليج الذي يستخدم في بناء الجوامع والقصور، والكاغد الذي سهل مهمة التأليف وساعد على نشر التعليم بشكل أوسع[٢٢].

وتلتصق بونه بأرصفة المرجان، وإن صلتها التجارية البحرية مرتبطة بصقلية وسردينية الغربية حتى الباليار، فأسبانية، وأقصى المغرب[٢٣]، وكان من الصعب الملاحة في هذه المناطق، لعدم توافر شواطئ صالحة للملاحة، ومراسي أمنية تقي المراكب من العواصف. وبونة – عنابة – هي المحطّة الآمنة التي لا بديل عنها، والتي تستقبل السفن من بلدان مختلفة، مثل: المغرب، أسبانية، جزر البليار، قبل توجهها نحو المشرق. ويرجع ذلك إلى الخصائص الطبيعية لموقعها، حيث يطمئن الملاّح إليها، ويرى فيها الملجأ الأمين في وقت تقل فيه الملاجئ. والذي يقف على برّها يرنو إلى البحر كله بنظرة واحدة، على خليج واسع بين رأسي (غارو) و (روزا) وانتصاب جبل ايدوغ الشامخ والذي يبلغ ارتفاعه ١٠٠٨م، وحمايتها من الرياح الغربية والشمالية، يجعلها من المراسي الفريدة[٢٤]، ونظراً لما تحويه من إمكانات اقتصادية جيدة، جعلت ابن حوقل في القرن الرابع الهجري، يصفها بالتميّز بحجمها الوسط حيث يقول: "مدينة مقتدرة، ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة، فيها خصب ورخص موصوف..."[٢٥].

أما البكري الذي زارها في الربع الأخير من القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد، بعد وصف ابن حوقل لها بقرن، يقول: "...ذات ثمر وزرع...كثيرة اللحم واللبن، والحوت والعسل وأكثر لحمانهم البقر...."[٢٦].

وعندما استولى النورمان على صقلية سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، قاموا بعدها بغزو عنابة في الفترة التي انتقلت بها من مملكة بجاية الحمادية إلى السلطة الموحدية، وبعد خروجهم منها، قام أهلها ببناء ما تهدم منها وتسويرها، مما دعا البعض إلى القول، بأنها بنيت في أواسط القرن الرابع الهجري، وأنها سوّرت بعد سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م[٢٧].

ولكن رغم ضعفها وقلة عمرانها، إلا أن خيراتها كانت وفيرة، وقد أشاد بذلك أبو الفدا من أهل القرن الثامن الهجري بقوله: "...بها من أنواع الفاكهة ما يعم أهلها، وأكثر فواكهها من باديتها، والقمح والشعير في أوقات الإصابات...كثيراً جداً..."[٢٨].

ويصفها الوزان بعد قرنين من الزمان عند مروره فيها، فيقول: "...تشتمل مدينة عنابة على ٣٠٠٠أسرة،وسكانها طيبون...وفي الجانب الشرقي قصبة عظيمة، محصنة تحصيناً بناها ملوك تونس، ويسكنها الولاة، وتمتد الأراضي المزروعة خارج المدينة إلى مسافة ٤٠ميلاً طويلاً، ٢٥ميلاً عرضاً، وهذه الأراضي صالحة للحبوب،...."[٢٩].

يستنتج من الحديث عن موقعها، ما كانت تزخر به من إمكانات اقتصادية وفيرة، لأنها كانت محط أنظار، خصوصاً ما فرضه عليها قدرها من وقوعها ما بين محوري المشرق والمغرب وبالعكس، محور الشمال والجنوب وبالعكس، بكل ما تحويه هذه المحاور من سلام وحروب، ومن تأثيرات بشرية وحضارية، ويبدو من استقرائنا لحركة الحضارة والموجات البشرية، إن محور الشمال والجنوب وبالعكس في العلاقات ما بين صقلية ـ أفريقية، كان دائماً أقوى وأعنف من العلاقات المشرقية ـ المغربية لتقارب طرفي البحر، وسهولة التواصل، والتباين الحضاري والبشري

والمطامع الاقتصادية لكل طرف من أطراف البحر وارتباطه بالطرف الآخر. فقد كان الطرف القوي هو الذي يسيطر على الطرف الأضعف، سيطرة الدمج، حتى في تبادل السلع، فأسماك صقلية مع زيت جربة، وما يقدمه الساحل الأفريقي من مرجان وجلود وصوف وأبقار ورخام وحديد ونحاس وغيرها من المنتجات، التي تصدر إلى محور الشمال ليصل إلى أسواق سردينية التي هي بدورها تصدر نحاسها وفضتها إلى أفريقية[٣٠].

وباستقرار الإسلام في المغرب، اختل توازن محور الشمال، وظهر للوجود محور الجنوب، ولما كان المسلمون هم القوة العظمى عسكرياً واقتصادياً وروحياً، فإن حركة المدّ كانت من ساحل الشمال الأفريقي إلى الشمال الأوربي، وكانت بونة ـ عنابة ـ أول نقاط الرباط والحصون التي اتخذها الأغالبة على ساحل المغرب، لتكون حارسة للساحل من الهجوم البيزنطي، ومشحونة بالمقاتلين والأسلحة، ومجهزة بالسفن استعداداً للغزو، وهذا ما نستدل عليه من قول البكري[٣١] والمقدسي، بأنها كانت مسورة في القرن الرابع الهجري، ومعنى ذلك أن من تعاقب عليها من الأغالبة والفاطميين ومن جاء بعدهم كانوا حرصاء على تحصينها لأهمية عمقها الحربي في البحر المتوسط. ويثبت هذا الاستدلال ما ذكره ابن حوقل عنها: "...فيها عامل قائم بنفسه، ومعه من البربر عسكر لا يزول كالرابطة"[٣٢].

والبكري يؤكد مناعة الأسوار، بقوله: "..منه كانت تخرج الشواني غازية إلى بلاد الروم، وجزيرة سردانية وكرسقة وما ولاها..."[٣٣].

ويبدو أن دورها الجهادي مع الدول المسيحية الواقعة على البحر المتوسط وخاصة حده الشمالي لم يفقدها دورها التجاري القديم، فهي ـ كما ذكرنا ـ محطة تجارية هامة على خط مبادلات السلع المشرقية المغربية وبالعكس، ومن ثم فإنها كانت إحدى محطات العمل التجاري للأندلسيين، فأكثر تجارها منهم، يأتون إليها منذ زمن بعيد

حينما كانوا يمرّون منها ذاهبين إلى الحج فيمكثون فيها عند العودة أو الذهاب طلباً للعلم، وقد يمكثون للعمل بصيد الأسماك والمرجان، وهذا ما جعل وجودهم حاضراً، وكان من أبرز علمائهم سيدي أبو عبد الملك مروان وليد قرطبة(٣٤). والرازي الذي تسمت باسمه، ولكنه كان أميراً على الأندلس قبل قدومه إليها، وعندما بدأت حركة الاسترداد قدمت أعداد كبيرة منهم إما من موانئ الأندلس، أو الموانئ الأوربية الأخرى، كميناء مرسيلية في جنوب فرنسة(٣٥). لذا كان موقعها محط أنظار، ومركز صراع بين الدول، فقد تعرضت لهجوم من الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م(٣٦) أثناء خلافه مع الفاطميين، وبعد قرن من الزمان وبالتحديد سنة٤٢٦هـ/ تعرضت لهجوم بحري موحد من قبل القوات البحرية من بيزة وجنوة، التي قامت في الهجوم عليها انتقاماً منها لأنها محور النشاط التجاري البحري ومصدر مكاسبه، فأراد أهل المدينة إبعاد المسلمين من الجناح الغربي للبحر المتوسط بسبب منافستهم الاقتصادية للمدينتين ولغيرها من المدن الإيطالية وذلك سنة١٠١٧م. وهنا يمكننا القول بعودة الحياة والنشاط إلى شعوب محور الشمال النصراني، يقابله ضعف في المحور الجنوبي المسلم، وظهور شعوب جديدة على مسرح السياسة كالنورمنديين الذين انتزعوا تدريجياً جزيرة صقلية من المسلمين منذ عام ٤٥٢ ـ ٤٨٥هـ = ١٠٦١ ـ ١٠٩٢م، وكذلك مالطة، وبعملهم هذا افتتحوا الحروب الصليبية عبر البحر المتوسط، وبدأها الاسبان في الأندلس؛ بدعم من نصارى أوروبة كلها في حوض البحر المتوسط، قصد مراقبة الملاحة فيه، واحتلال موانئ الأقطار المغربية ضد المسلمين واستغلال خيراتها، واستبعاد شعوبها. ولم تمضِ إلا سنوات قليلة على سقوط غرناطة حتى انطلق هؤلاء ينفذون خططهم بكل قوة، فاحتلوا عنابة سنة ٩١٧هـ/١٥١١م، ولكنهم لم يمكثوا بها طويلاً، بدليل أن الحسن الوزاني زارها سنة ٩٢٣هـ/١٥١٩م، فلم يذكر شيئاً عن وجودهم فيها(٣٧).

وسعى النورمنديون إلى الاستحواذ على المغرب العربي، منتهزين صراعاته الداخلية، والهجرة الهلالية، التي استولت عليها بقيادة زعيمهم[٣٨] مسعود، وقد ذكر ذلك الإدريسي بقوله: "ولها إقليم وأرض واسعة تغلبت العرب عليها"[٣٩] دون أن يذكر ثروات هذا الإقليم، وكان أبرز القبائل التي سيطرت على الإقليم قبيلة مرداس[٤٠]، ولكن الأمير الحمادي خلصها منهم، الأمر الذي دعا إلى تشييدها بالعمران المتسم بالحصون الدفاعية، كما ورد عند شيخ الربوة[٤١]. ومهما يكن من أمر فإن ـ عنابة ـ كانت ضمن مشروع روجر النورمندي الذي رأى فيها مخنق جنوب صقلية وتونس، لهذا أرسل فليب المهداوي لاحتلالها عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م، واسمه يدل عليه، فهو مسلم من المهدية، لكنه تنصر، وقد ساعدته القبائل الهلالية، فأسر سكانها، عدا علمائها، وسمح لهم بالالتجاء إلى المدن المجاورة، وأناب روجر عنه في حكمها الأمير حارث الحمادي، لكن الأمر لم يطل، فقد جاء الموحدون، وأخذوها منه سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م، لكنها لم تهنأ بعيشها، لأن الأوربيين سكان الشمال للبحر مصرون على إخراج المسلمين منه، فنهجوا أسلوباً حربياً جديداً، تمثل في القرصنة؛ التي أصبحت تشن الهجمات على الموانئ الإسلامية، فتنهب وتسلب وتحرق وتدمر، وتتخطف الناس لتبيعهم عبيداً وإماءً أو يفتدون بمال كثير.

ويبدو أن المشرق الإسلامي لم يكن غافلاً عمّا يجري في المغرب على الرغم مما يعانيه من محن، وكأنها نصهر النفوس، وتوحد الأهداف، وقد أشار ابن جبير إلى مأساة وتعاطف المشارقة معهم على المستوى الشعبي، لأن الأمة الإسلامية آنذاك، شعرت أنها أصيبت ببلاء عظيم سواء كان في المشرق أو المغرب، وعليها مواجهته من أين أتى، وأيّ إصابة، سواء كان مغربياً أو مشرقيا، وفي هذا يقول: "ومن الفواجع التي يعانيها من حل ـ بلاد الكفر ـ أسرى المسلمين يرسفون في القيود ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك في أسواقهن خلاخيل الحديد فتفطر لهم الأفئدة..."[٤٢].

وهذا الحال الذي يصوره في عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م، حيث ابتدأ رحلته في هذا التاريخ، ويشير إلى أن مسلمي الشام ذكوراً وإناثا من أهل اليسار كانوا يوصون بقسم من مالهم في افتداء المغاربة، وأشار إلى وضع رجل مغربي من بونة ـ عنابة ـ كان يعمل في بجاية، وقد وقع أسيراً، ففداه تاجر شامي، له تجارة مع بلاد الفرنجة. ولم يقتصر الأمر عليه، وعلى أمثاله من المشارقة، فقد قام مصطفى فردناش[٤٣] شيخ الأندلسيين الذي لجأ إلى عنابة في حملة لطردهم، فأخذ يزرع الزياتين، فنمت ثروته بسبب معرفته الجيدة بالأساليب الزراعية، وتولي فدية المسلمين المأسورين عند النصارى، وكان له تجارة مع أوروبة، فيقوم ببيع السكر وبذور الكتان والاتجار بالأقمشة الرقيقة الناعمة المسماة في التعبير العامي بـ (الشاشية). وبسقوط الدولة الموحدية في المغرب، انقسم المغرب على نفسه، وشكلت فيه ثلاث دويلات دولة المرينيين بفاس، ودولة الزيانيين بتلمسان، ودولة الحفصيين الذين هم فرع من الموحدين بتونس، وبهذا التقسيم أصبحت مدينة بونة ـ عنابة ـ موضوع نزاع بين الأمراء الحفصيين المؤيدين لتونس، أو الموالين للمرينيين بفاس، إلا أنها كانت ولعامين (٧٦٠ ـ ٧٦٢هـ=١٣٥٨ ـ ١٣٦٠م) مركز حكم الأمير الحفصي الفضل الذي يعد من مؤسسي الدولة، وهذا الأمر أصابها من قبل في أواخر الدولة الموحدية، حينما انتزعها منهم يحيى بن غانية الميورقي الملقب بالصحراوي، والذي حكمها لمدة عامين (٥٩٩ ـ ٦٠١هـ=١٢٠٢ ـ ١٢٠٥م)[٤٤].

وفي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، اختل ميزان القوى البحرية، فأخذت القوى البحرية الإفرنجية في الصعود، والقوى الإسلامية وخاصة الحفصية في الهبوط، من حيث الصنع والعتاد، وقامت أساطيل جنوة وبيزه وأرغون بتطوير صناعة سفنها تطويرا جيدا من حيث النوعية والكمية، استعدادا لغزو المغرب الإسلامي، المنقسم على نفسه، ورأت في هذا الانقسام فرصة طيبة لاقتناصه، خاصة الارغونيين الذين رأوا في المغرب عامة، وتونس خاصة مأوى للأندلسيين وامتدادا

لهم، فقام نائب ملك برشلونة المعيّن من طرفه على صقلية بشن غاراته على المغرب الكبير، وبطبيعة الحال لم تسلم بونه من هذا الغزو، فدخلوها وثلموا أسوارها، وأخذوا عدداً كبيراً من أهلها أسرى. وفي عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، هاجموا المهدية وعنابة وأسروا من الأخيرة ومن ضواحيها عدداً لا يستهان به(٤٥).

في هذا الوقت زارها الرحالة المغربي العبدري، في طريقه لتأدية فريضة الحج، فرأى ما فيها من ضعف، وما هو عليه الأسطول الفرنجي من قوة وازدهار، فوصف حالها في رحلته حيث قال: "..وجدها بطوارق الغير مغبونة، مبسوطة البسيط، ولكنها بزحف النوائب مطوية مجنونة، تلاحظ من كتب فحوصاً ممتدة، وتراعى من البحر جزر ومد، وتغازلها العيون من وجود النوائب، وتأسى لها النفوس من الأسهم الصوائب..."(٤٦).

وأشار إلى القرصنة من قبل الفرنجة في البحر، وكيف أن بونة أثناء مروره منها قد مرّ "...بها زورق للنصارى لا تبلغ عمارته عشرين شخصاً، وقد حاصروا البلد حتى قطعوا عنها الدخول والخروج، وأسروا من البر أشخاصاً فأمسكوهم للفداء بمرسى البلد". واعتبر العبدري، وله الحق في ذلك أن من أغرب المسموعات أن عشرين شخصاً يتحكمون بمدينة، وهذا يدل على انحطاط أمرها وذبول حيويتها من كثرة الغارات عليها، ونظم العبدري منظومة شعرية واصفاً فيها رحلته فقال:

وبونة قد أبانت من أبانت   صروف الدهر من سام سري

ولكن عندما نزلت القبائل حولها ذات العصبة الواحدة، وتكاثر عددها ساعدها في الدفاع عن نفسها، إلى جانب ما منحها الله من موانع طبيعية فكانت مسالكها وعرة، ويبدو أنها توسعت زمن الهجرة الهلالية، لأنّ نزولهم فيها أدى إلى ضيقها، الأمر الذي دعا إلى توسعتها وجعلتها قريبة من أهل العصبيات القبلية، لما احتوت عليه من سهول صالحة للزراعة والرعي، وفي ابتعادها عن المدينة القديمة هيبو مكن أهلها في الدفاع

عنها، ولعل من نزل فيها زمن الهجرة الهلالية، وضع نصب عينيه الانطلاق في الغزو البحري لا التجارة فقط.

والواقع رغم ما تعرضت إليه بونة من محن جرها عليها موقعها، وجعلها محط آمال الدويلات الأوربية كلها، تتخذها نقطة انطلاق لتوسيع تجارتها مع المغرب الكبير، بعد أن وقعت اتفاقيات تجارية مع الدولة الموحدية إبان حكمها لها، وكانت جنوة من أوائل المدن التي وقعت مع الموحدين معاهدة تجارية سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، ضمنت فيها لرعاياها حرية التجارة في المغرب الإسلامي براً وبحراً، على أن يؤخذ من البضائع الواردة إلى بجاية العشر وإلى غيرها ثمانية في المائة[٤٧].

وتوسع نطاق الدول الأوربية في المجال السلمي، فدخلت البندقية الميدان، ووقعت اتفاقها عام ٦٢٩هـ/١٢٣١م وعملت بيزة على توسيع اتفاقها مع الحفصيين[٤٨]، وحصلت على ضمانات أكثر عام ٧٥١هـ/١٣٥٠م، وجددت جنوة اتفاقها عام ٦٣٤هـ/١٢٣٦م، وتقدمت الأرغون إلى السلام مستبدلة بالخصام الوئام، ووقعت اتفاقية سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م، وأيدت الإتفاقيات كلها، ورأت فيها مثلما رأى غيرها ما يسمى بالامتيازات، وقد تضمنت الإتفاقيات في خطوطها العريضة تأمين الملاحة والتجارة المتبادلة، وتجديد أسس التجارة بين الطرفين، وضمان إقامة الأوربيين الأجانب في الموانئ المغربية، وأن يكون لكل جالية أوربية[٤٩] (أمة) قنصلها وفندقها لحماية بضاعتها، وإقامة أفرادها، وأن تضمن المسؤولية الفردية، وأن لا تؤخذ الجالية بجريرة دولتها، وإن أخذوا بذلك عدّ مأخذاً على الدولة المضيفة.

وهكذا كان لتلك الدول الأوربية المعاهدة، فنادقها في بونة، كما كان لها فنادقها في تونس، وبجاية وصفاقس، وجربة، وهذه الاتفاقيات حدّت من جموح صاحب برشلونة ولجوئه عندما لم يجد بُداً من ذلك إلى المسالمة، بدلاً من الحروب، ومنذ سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م، بعد تخلخل قواته وضعفها، انقلب ميزان القوى لصالح المسلمين،

فقد شرع أهل بجاية في القيام بما أسماه ابن خلدون بالجهاد البحري، وقد تميزت به مدينة بجاية أكثر من غيرها من مدن الساحل، وإن كان لمدينة عنابة جزء كبير من المشاركة في هذا الميدان. ويصف ابن خلدون جهادهم البحري الذي شاركهم فيه الأندلسيون انتقاماً من الفرنجة بشكل عام، ومن الأسبانيين الذين أخذوا يقتطعون ممتلكاتهم بشكل تدريجي، تحدوهم الآمال بالانتصار، مما أدى إلى شحذ هممهم فيقول: "...تمت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل افريقية لغزو الأسطول، ويتخذون له أبطال الرجال، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم، على حين غفلة فيختطفون فيها ما قدروا عليه، ويصارعون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالباً، ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى، حتى امتلأت سواحل الثغور القريبة من بجاية بأسراهم تضج طرق البلاد بضجة السلاسل والأغلال، عندما ينتشرون في حاجاتهم، ويغالون في فدائهم بما يتعذر منه أو يكاد..."(٥٠). وهذا الأمر يرجعه ابن خلدون إلى منتصف القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، إذ يقول: "...منذ ثلاثين عاماً وكان يتكلم عن الحملة على المهدية..."(٥١).

وكان لا بد للحكام من مباركة ما قدمت به الأمة من تنظيم لكسب رضاها، فباركته الدولة الحفصية، والواقع أن هذا التنظيم حري بالدراسة، لما كان له من آثار امتدت حتى المشرق، وشملت معظم السواحل فيه(٥٢).

ولقد رأينا ضغط الدول الإسلامية على سواحل الفرنجة منذ أيام البيزنطيين والنورمان كان متواصلاً ومتواتراً، فالمسلمون الأولون، ثم الدولة الأموية والعباسية، وما ينوب عنها في الجناح الغربي (الأغالبة)، وتلاها في هذا الجناح الفاطميون، والزيريون، والموحدون، مما أدى إلى يقظة الأمم الإفرنجية ممثلة بحكامها التي أخذت تترقب الفرص، لأخذ ثأرها ورد اعتبارها، وقد ظهر هذا واضحاً في هجومهم عام ٧٩٢هـ=١٣٨٩م، ولكنه فشل، ثم قامت سفن فالنسية وميورقة في الهجوم على دليس، وعلى المهدية، سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م، وفشلوا في الحملتين(٥٣).

وربما كان من العوامل التي أثارت مخاوفهم، بروز القوة العثمانية وفتحها القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح، لذلك سارعت دول الفرنجة إلى تجديد اتفاقياتها مع دول الغرب، وقد رأينا ذلك آنفاً. وكان الأوربيون يتكالبون على سلع الموانئ المغربية سواء مما كان من الإنتاج المحلي أو مما يستورد ويصدر، والملاحظ أن بونة ـ عنابة ـ كانت محط آمال المرسيليين والجنويين، الذين كانوا يشترون القمح والسمن ويصطادون المرجان(٥٤) وخاصة في مرسى الخزر ـ القالة. ورغم أن هذه الحركة التجارية في صالح اقتصاد العنابيين إلا أنهم لم يثقوا بهم، فقد عارضوا المرسيليين الذين أنشؤوا حصناً(٥٥) دفاعياً لهم ضد القراصنة من بني جلدتهم ليسهل عليهم جمع المرجان والاستئثار به دون الجنويين.

ويعود ميزان القوى البحرية للفرنجة بشكل عام إلى الصعود، ويستمر حتى يصل إلى أوج قوته بجانب خصمه الأسطول الإسلامي، عندما طرد المسلمون من الأندلس، وظهر المد الاستعماري الأسباني البرتغالي على السواحل المغربية، ومنها عنابة ليبطلوا مفعول غزاة البحر المغاربة الذين كانوا ينطلقون منها إلى نيس وجنوة وبروفانس، فشعر العنابيون مثلما شعر غيرهم من المغاربة، بأهمية الصناعة البحرية، فعملوا على تنميتها حتى غدت لها قوانين وأعراف وتميز واضح عن غيرها من الذين كان لهم دور بارز في القتال، وفي الصناعة، وفي الخطط الحربية، بدافع الانتقام والأمل في العودة إلى الأوطان، حتى انضم إلى رجال هذه الصنعة بعض المغامرين الأوربيين طمعاً في الكسب المادي.

ونخلص من حديثنا إلى أن مدينة عنابة، كانت دائمة النشاط البحري الإسلامي بشكل عام والمغربي بشكل خاص في صراعه مع القوى البحرية الإفرنجية الأوربية، التي تريد السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط، هذا الدعم الذي يتناسب مع موقعها وتقاليدها الحربية البحرية، ولذلك عندما وجدت نفسها تخون أهلها وتخرج عن تقاليدها لخيانة الحكام الحفصيين لها، ثار أهلها عليهم، وانضموا إلى خير الدين وأخيه

عروج أو أروج بن يعقوب المدلي التركي، فانطلقا منها بحملة حربية نحو تونس عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م، وبقيت وفيّه لهما حتى عند انهزامهما أمام شارلكان، فقد ثارت على السلطان حسن الحفصي لموقفه المتخاذل والمنحاز للأسبان الذي أرجعوه إليها، وتعهدوا له بحماية سلطانه مقابل عمالته، وفي هذا يقول صاحب الحلل: "ومنها ركب البحر في عشرين غراباً"(٥٦). وقصد ميورقه ومنها عاد إلى الجزائر، وظلت المدينة رافضة له، حتى منيت بغزوة أسبانية بقيادة المركيز (دومونديخار)(٥٧) ووضع فيها حامية مكونة من (٦٠٠مقاتل) وبقوا فيها خمس سنين، ليعود الأتراك إليها ومعهم بربروس؛ والذي يمكن استنتاجه أن بونة ــ عنابة ــ وغيرها من مدن الشرق الجزائري، تقلبت في موجات الحكم منذ العهد الزيري إلى العهد الحفصي إلى التبعية لبجاية، إلى العهد العثماني، حيث أضحت من ضمن إيالة الجزائر. وهذا يعود إلى أهمية موقعها ومينائها المتميز بحركته التجارية إلى جانب خصب تربتها ووفرة المعادن(٥٨) فيها، كل هذا جعلها ملجأ للبحارة من الأنواء، ومطلباً للقراصنة والغزاة، ينطلقون منها صوب الشواطئ الأوربية سواء القريبة منها أو البعيدة(٥٩) عنها، مثل شواطئ اسبانية الذين يصلون إليها عبر المحيط الأطلسي أو عبر البحر المتوسط، وربما اتخذها بعض الغزاة مشتى يستريحون في مينائها، ويراقبون منها نشاط القراصنة في البحر، وإن كان قليلاً في فصل الشتاء.ومع هذا كله، فإن سجلها في العمليات البحرية قليل، فهل كان ذلك لأنها لم تكن مركزاً كبيراً من مراكز الغزو الرئيسة التي كانت للقرصنة أو للغزو الإسلامي، أو لأن التعاون بين غزاة البحر المسلمين، جعل للموانئ كلها دوراً واحداً، دون أن يكون لكل ميناء سجل خاص به، وبالتالي لا يظهر عمل كل ميناء بشكل مستقل، أي لأن الوثائق البحرية لم تدرس كلها على الصعيد العربي، وأنا أميل إلى هذا الرأي. ولكن ما حصلنا عليه من معلومات تفيد أن في كل صيف من كل عام، كان يخرج مركب محمّل بالشحم والسمن إلى المراكب الجهادية دعماً لرجالها، ولعل هذا المركب هو الذي كان يسمى بمركب (زكاة

الشرق)، ولعل المقصود منه ـ الشرق الجزائري، ويمكن القول أن عنابة في محوري علاقاتها كانت مركز تفاعل مع الشمال الأوربي ومع المغرب والمشرق، الإسلاميين، فكانت تستقبل القوافل البشرية التي تحمل معها عقائد دينية، مضامين فكرية، وثروات اقتصادية، وتجارب حياتية كل هذا أكسبها نضجاً وقوة، ولكنه في الوقت ذاته، حملها رزءاً أو تعباً بسبب ما كانت تقوم به من دور جهادي في الدفاع، وذاك الدور الذي لم ينقطع لوصول الطمع الأوربي إليها، ولم يقتصر الأمر على الصراع المادي بل صحبه صراع فكري عقائدي، بسبب اختلاف الأفكار والعقائد الواردة إليها مع الوافدين عليها، والتي تمازجت معها حتى أصبحت جزءاً من تراثها، وهذا الاختلاف مثل صراعاً حضارياً طويلاً بين الشرق والغرب، كثيراً ما تخلله صراع دموي، تتحكم فيه عوامل العقيدة وعوامل الاقتصاد، ولكنها خرجت من هذا كله بصحة جيدة، تتحلى بألوان منتجاتها وأعمالها، فاللون الأحمر للعناب وللمرجان، أحمر نجيع الجهاد عن العقيدة والوجود إلى جانب سنابل القمح، كل هذا وغيره جعلها زاهية في ذاكرة التاريخ إلى الآن.

زمن ولاتها زمن بني زيري، المنصور بن علناس الذي ثار عليه (البار) وإلى قسنطينة فخلفه وعين بدلاً منه أبا يكني بن محمد بن القائد حماد، ثم ثار أبو يكني على المنصور سنة ٤٨٧هـ/ وكان ذلك باتفاق مع تميم بن المعز الذي أمده بجيش من عنده بقيادة "أبو الفتح"، وتبين بأنّ أبا المكني كان متواطئاً مع المرابطين[٦٠]، ولكن في هذه الفترة جاء الموحدون وخلصوها مما منيت به من صراع ولاة الزيريين مع بعضهم بعضاً.

وحظيت المدينة بموت السلطان أبي زكريا الحفصي فيها، سنة ٦٤٧هـ/ ودفن بجامعها ثم نقلت رفاته إلى قسنطينة. لكن قبل موته استقبل بيعة يغمراسن عن طريق والدته التي أتت بنفسها وقدمت البيعة له سنة ٦٤٠هـ/[٦١] وعين بعد بيعته حاكماً لتونس، أبا علي عمر بن أبي موسى والياً على عنابة ثم نقله في نفس السنة والياً على

المهدية، وأضافها إلى ابنه زكريا مع جملة من أضاف إليه، من الجزائر، وبجاية، وقسنطينة، والزاب.

ولما جاء السلطان أبو يحيى أبو بكر (٧١٠ ـ ٧٤٧هـ/١٣١٠ ـ ١٣٤٦م)[٦٢] عين أولاده على المدن الرئيسة لدولته، فعين الفضل ـ ابنه ـ على عنابة، ولكنه التحق بعدها بتونس سنة ٧٤٩هـ ـ ١٣٤٨م. وبفضل تعاون قبيلة الكعوب معه، خلصتها من طاعتها للسلطان أبي الحسن المريني، وأعلنت ولاءها له.

وتميزت المدينة **بنشاط اقتصادي** ملحوظ يعود إلى خصوبة تربتها ووفرة محاصيلها، وتوفر الثروة الحيوانية فيها، وما نجم عنها من مصنوعات جلدية وألبسة صوفية، وسمن ولبن إلى جانب العسل، وإلى الثروة السمكية والإسفنج، والثروة المعدنية من نحاس وحديد ورخام، ومرجان الذي يعد من أجود الأنواع، ويحدثنا ياقوت في معجمه عن كيفية صيده، فيقول: "يتخذ لاستخراجه صليباً من خشب طوله قدر الذراع ثم يشد طول ذلك الصليب حجر، ويشد فيه حبل، ويركب صاحبه في قارب ويبعد عن الساحل قدر نصف فرسخ، وفي مقر تلك المسافة ينبت المرجان، فيرسل ذلك الصليب في الماء إلى أن ينتهي إلى القرار، ثم يمر القارب يميناً وشمالاً ويستدير إلى أن يعلق المرجان في ذوائب السليب ثم يقتلعه بقوة ويرميه إليه، فيخوج وقد علق به سلك الصليب جسم مشجر إلى القصر، وما هو أغبر العشر، فإذا حلّ عنه قشره، خرج أحمر اللون فتفضله الصناع..."[٦٣].

أما ابن حوقل، فبعد ما يصفها بالاعتدال في حجمها، وبمقدرتها الاقتصادية واصفاً خصب تربتها ومنتجاتها حيث يقول: "...فيها خصب ورخص موصوف، وفواكه وبساتين قريبة، وأكثر فواكهها من باديتها، والقمح بها والشعير في أكثر أوقاتها مما لا قدر له...يزرع بها الكتان...وبها من العسل والخير والميسر ما تزيد به على مادناها من البلاد المجاورة لها...وأكثر سوائمهم البقر، ولهم إقليم واسع، وبادية وحوزة فيها

نتاج كثير..."[٦٤]. وفي هذه الفترة يزورها المقدسي ويشير إليها بسطور قليلة، فيقول: "وبونة بحرية سورة بها معادن حديد شربهم من الآبار..."[٦٥].

أما البكري الذي زارها في الربع الأخير من القرن الخامس للهجرة، الحادي عشر الميلادي، بعد وصف ابن حوقل لها بقرن، يقول: "مدينة بونة أولية، وهي مدينة افشتين العالم بدين النصرانية وهي على ساحل البحر في نشز من الأرض منيع مطل على مدينة سبوس وتسمى اليوم مدينة زاوي وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال، ولها مساجد وأسواق وحمام، وهي ذات ثمر وزرع، وقد سورت بونة الحديثة بعد الخمسين وأربعمائة. وفي بونة الحديثة بئر على ضفة البحر منقورة في حجر صلد يسمى بئر النثرة، منها يشرب أكثر أهلها وبغربي هذه المدينة ماء سائح يسقي بساتين وهو منتزه حسن. ويطل على بونة جبل زغزوغ وهو كثير البرد/ ومن العجائب أن فيه مسجداً لا ينزل عليه شيء من ذلك الثلج، وإن عم الجبل كله. ومدينة بونة برية وبحرية، كثيرة اللحم واللبن والحوت والعسل، وأكثر لحمانها البقر إلا أنها يصح بها السودان ويسقم البيضان، حول بونة قبائل كثيرة من البربر مصمودة وأوروبة وغيرها، وأكثر تجارها اندلسيون، ومستخلص بونة جباية بيت المال عشرون ألف دينار"[٦٦].

ويصفها أبو الفداء في القرن الثامن الهجري نقلاً عن ابن سعيد المغربي الذي يقول: "...بها من أنواع الفاكهة ما يعم أهلها، وأكثر فواكهها من باديتها، والقمح والشعير في أوقات الإصابات...كثير جداً، ويزرع بأرضها الكتان، والعسل بها موجود ممكن، وكذلك السمن، وأكثر سوائمهم البقر، ولها أقاليم وأرض واسعة..."[٦٧].

ويصفها الحسن بن الوزان في وقت متأخر عند مروره منها فيقول: "...تشتمل مدينة عنابة على ٣٠٠٠ منزل، وسكانها طيبون...وفي الجانب الشرقي منها قصبة عظيمة، محصنة تحصيناً بناها ملوك تونس، ويسكنها الولاة، وتمتد الأراضي

المزروعة خارج المدينة إلى مسافة ٤٠ميلاً طولاً، ٢٥ ميلاً عرضاً وهذه الأراضي صالحة للحبوب...، وتملك كثيراً من البقر والضأن، وتنتج هذه المواشي من السمن كميات يبيعها أصحابها في سوق عنابة بثمن قليل لوفرتها. وكذلك الأمر بالنسبة للقمح، وتأتي سفن عديدة كل عام من تونس وجربة وسائر موانئ القطر، وكذلك من جنوة لتشتري القمح والسمن من عنابة، حيث تستقبل استقبالاً حسناً..."(٦٨).

نستنتج من وصفها عند مختلف المؤرخين في مختلف الأزمنة ما كانت تزخر به من إمكانات اقتصادية وفيرة، جعلها محط الأنظار، وجعل للعامل الاقتصادي تأثيراً كبيراً في حياتها، مما انعكس على علاقاتها مع جيرانها في المجالين السياسي والعسكري، وارتبطت بعدة اتفاقيات ومعاهدات سبق الإشارة إليها، فبالإضافة إلى ملاءمة مينائها للملاحة، خصب تربتها ووفرة إنتاجها من المحاصيل والثروة الحيوانية والسمكية، وهذا ما أشار إليه صاحب الاستبصار بقوله: "وهي أنزه البلاد وأكثرها لحماً وعسلاً وحوتاً"(٦٩).

فقد كان لها بركة واسعة، تكثر فيها الأسماك من مختلف الأنواع، إلى جانب ما ذكر من الأنعام ومنتجاتها، والخيول ذات النوعية الجيدة، فقد بلغت جبايتها في إحدى السنوات ــ كما ذكر البكري ــ عشرين ألف دينار، أودعت في بيت المال. على أن وفرة الإنتاج لم تكن موجودة دائماً بسبب ما تعرضت له المدينة من كوارث طبيعية عند انحباس الأمطار، أو انتشار الأوبئة التي كانت تتعرض لها بسبب انفتاحها على الخارج، وقدوم العديد إليها من أجناس متعددة ومناطق مختلفة، وربما حملوا إليها الأمراض، إلى جانب رطوبة الجو وكثرة البرك فيها، مما دعا البكري إلى أن يقول عنها لا يصح فيها البيضان، ويصح بها السودان(٧٠)، إلى جانب الهجمات الخارجية المستمرة التي أشرنا إليها، وما ينجم عنها من حروب وتدمير، وقتل وسبي، وتخطف يتبعه خوف واضطراب وعدم استقرار، كل هذا يؤثر في السكان، وبالتالي يضعف الإنتاج، إلى جانب الغزوة الهلالية التي اجتاحتها، ولعل الهلاليين بطبيعتهم البدوية

الرعوية، قد أثروا سلباً في الحياة الزراعية وخاصة في سهل عنابة، وانعكس هذا على العمران، وهذا ما أشار إليه الإدريسي بقوله: "ولها أقاليم وأرض واسعة تغلبت العرب عليها..."(٧١). لأنهم كانوا أصحاب نجع أكثر من أي شيء آخر، ولكن فيما بعد انطلقوا للغزو في ركوبهم البحر، ومهروا في التجارة، وخاصة تجارة السلع الناجمة عن ذلك.

وكان وجودهم قد ساعد على نمو الثروة الحيوانية وزيادة منتوجاتها، فبالإضافة إلى ما ذكر من المنتجات الزراعية، كان لديها الأصواف والجلود، مما جعلها من المدن المشهورة بحياكة الملابس(٧٢) والأقمشة ونسج الأغطية والبرانس والمعاطف والزرابي والبرادع، الأمر الذي دفع الوزان أثناء زيارته لها أن يخص النساجين بالذكر أكثر من غيرهم، ولكن هذا لم يمنعه من ذكر صناعة السروج والأحذية والحافظات، والصناعات الجلدية الأخرى، ويبدو أن أصواف عنابة قد أخذت شهرة واسعة في هذا الوقت، من حيث جودتها وكثرة كمياتها، وكانت تسمى بأصواف قسنطينة.

وظهر عدد من الأسواق فيها عند زيارة الوزان لها، فهناك سوق الحوكة، جمع حائك ويقابله بتونس آنذاك سوق البرانسة، وسوق الحمامين ويسمى الحجامين وليس الخفافين، وسوق الدرازين، وسوق النجارين، وسوق الفخارين، وسوق الخرازين ـ الأساكفة ـ البلاغين ـ صناعة البلغة المسماة بتونس الغاجية(٧٣). وغيرها من الأسواق الأخرى كسوق الحبوب، وسوق المواشي، وهما اللذان أصبحا بابين للمدينة في العهد العثماني، باب المرسى من جهة الشرق، ويؤدي إلى الميناء، وباب الغرب من جهة الغرب، ومنه تبدأ الطريق المؤدية إلى قسنطينة(٧٤)، وقد أشار إلى أسواق المدينة دون ذكر أسمائها، البكري الذي زارها في القرن الخامس الهجري إلى جانب المساجد والحمامات(٧٥).

وتميزت عنابة بكثرة الغابات منها، غابات جبل ايدوغ وبني صالح والقالة وسيبوز، وقد امتازت بجودتها، واستخدمت أخشابها في الصناعات اليدوية وفي بناء

السفن، مما ساعد على نمو الأسطول الحفصي بمختلف قطعه وأنواعه واختلاف أحجامه[٧٦].

واحتوت جبالها على معادن، كان من أبرزها معدنا النحاس والحديد، فالنحاس كان يستخرج من عين باربار لسفوح جبل ايدوغ الشمالية، أما الحديد، فتقع مناجمه في أماكن متفرقة، مثل قطع الحديد الذي يعرف الآن ببو حمزة، ومناجم مجاز الرسول، وعين أم الرخاء وحريزاز ومعجوبة[٧٧].

وبهذين المعدنين إمتلأت أسواق عنابة، لأن الصناع كانوا يقومون باستخراجهما من المناجم وتصنيعهما، ولكن فيما بعد انصرفوا عنهما، لتوفرهما بكثرة في أسواقها وفي الأسواق المحلية في المدن الأخرى، عن طريق القرصنة.

وكان لوجود المواد الأولية، والصناعات الحرفية، والثروات الحيوانية والزراعية، تكالب عليها من الدول الأجنبية، الأمر الذي أوجد نوعاً من التقاليد والعلاقات التجارية بين هذه الدول وأهل المدينة أخذ ينمو ويتطور حتى أصبح مكتملاً في بداية العصور الحديثة، وقد انعكس هذا التطور والخلق التجاري على السكان الذين عرفوا بالوداعة، وحسن الاستقبال لكل غريب، ومسافر كما ذكر الوزان[٧٨].

كما انعكست الحروب على البنية السكانية سلباً وإيجاباً، فقد هاجر ـ كما ذكرنا ـ عدد من الأندلسيين إلى المدينة مارسوا الصناعة والمهن اليدوية المختلفة إلى جانب التجارة وركوب البحر الذين برعوا فيه منذ وقت مبكر[٧٩]، وكان لنشاطهم مزايا متعددة انعكست على حياة المدينة بجميع جوانبها، عكس ما حدث لها أثناء الهجرة الهلالية، وما اتسمت به القبائل من الشدة، وممارسة الأعمال الأقل نشاطاً وتأثيراً في الميزان التجاري، لكنهم فيما بعد، أخذوا يبحثون عن فرص تتناسب معهم، فوجدوا بمهنة القرصنة وما نجم عنها من بيع وشراء خير وسيلة لهم.

أما عن **الجانب العمراني** المتمثل في المساجد والتي ورد ذكرها عند البكـري دون ذكر أسمائها وتواريخ بنائها، لكنه ذكر هو وصاحب الاستبصار اسم مسجد يقع علـى جبل ايدوغ أو (زغوغ) المطل على المدينة، واللذان وصفا موقعه بشدة البرد وتساقط الثلوج على الجبل، دون السقوط عليه(٨٠)، كالشامة.

ويبدو أنه أسس زمن الدولة الزيرية الصنهاجية المتمثلة في حكومتـي القـيروان والقلعة، والذي أشرف على بنائه وتأسيسه، رجل علم وصلاح وجهاد، وهو أبو الليـث البوني، من عائلة معروفة في الوسط الاجتماعي بـ (البوني) إلى أيامنا هـذه، وقـد اختلف في تاريخ بنائه، فالجيلالي يرى حسب ما ورد في تقييد أحد كتب الشيخ أحمد بن قاسم البوني أنه بني سنة٤٢٥هـ/. ويشاركه في ذلك بو عبدلي الذي اعتمـد هـو الآخر على نفس المصدر، ويرى الجيلالي أن هندسته المعماريـة شـبيهة بالهندسـة المعمارية التي وجدت زمن الأغالبة والفاطميين والزيريين أواخـر القـرن الرابـع والخامس الهجريين؛ بينما يرى بوروبية العالم الأثري أن تاريخ بنائه يرجع إلى القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي.

ومهما يكن من أمر فإنه يمثل في تصميمه مسجداً ورباطاً، والرباط ملحق للمسـجد من جهته البحرية، واستمر قائماً إلى أن حدث انفجار في إحدى السفن بمينـاء عنابـة شتاءً ١٩٦٥م، أدى إلى حدوث أضرار فيه، والملاحظ أنه جرى على ألسـنة النـاس قولاً: "البنية لأبي الليث، والشنعة لأبي مروان" وهم يقصدون بالشنعة أو الشـهرة أو السمعة، حيث لا يعرف هذا المسجد الجامع في الوسط العنابي إلا بجامع أبي مـروان الذي وصل إلى بونة ــ عنابة ــ سنة ٥٠٥هـ/١١١١م، قادماً من تونس والذي أخـذ يدرس فيه، وعندما توفي دفن بحجرة بجانب المئذنة، وقبره كان موجوداً أيام الاحتلال الفرنسي للجزائر(٨١).

وهذا المسجد يبلغ طوله ٣٦,٥٠م، وعرضه ١٩.٥٠م على بيـت صـلاة طولـه ١٩,٦٠ مبني على سواري من الرخام مجلوبة من المباني القديمة تعلوها تيجان قديمـة

وإسلامية، إلا أن التيجان الإسلامية من أنواع مختلفة، تيجان ذات صف أو صفين من أوراق الاكنتس منها تحتوي على صفين من ثماني أوراق، ومنها ما كان صفها العلوي مكونا من أربع أوراق، وصفها السفلي مكوناً من ثماني أوراق.

وما يلاحظ في صلاة جامع سيدي أبي مروان، هو أن الأقواس كلها على شكل حدوة الفرس، وترتكز على التيجان بواسطة ثلاثة عناصر معمارية، الكتف، والركيزة، والطنف، ووجود هذه العناصر الثلاثة بين الأقواس والتيجان يرجع إلى أن السواري المستعملة جلبت من مبانٍ قديمة، ولم يكن ارتفاعها كافياً بالنسبة إلى الجامع.

والمحراب – بيت الصلاة مشكاة نصف دائرية القعر، تعلوها قبة نصفية فقدت زخرفتها كلها، وعلى يمين ويسار المحراب نجد ساريتين موضوعتين على مقعد إحداهما مزينة بتاج إسلامي الشكل، وكان لجامع سيدي أبي مروان وقت الاحتلال قبتان موضوعتان في طرفي الاسكوب الأوسط العمودي لجدار المحراب فهدمت هاتان القبتان في عهد الاحتلال، ولكن هناك صورة عنهما.

فهناك قبة موجودة عند ملتقى الأسكوب الأوسط لبيت الصلاة والرواق الجنوبي للصحن.

إن هذه القبة تتكون من الخارج من قاعدة مربعة يعلوها حزام أسطواني الشكل ثم القبة بذاتها مزينة بأخاديد تشكل معرجات، فلم توجد زخرفة من هذا النوع إلا في بنائين مغربيين، أحدهما قبة جامع القرويين بفاس، وقبة بين القهاوي بسوسة.

أما القبة من داخلها فترتكز على الجدار الذي يفصل بيت الصلاة عن الصحن من جهة الجنوب، ومن جهة الشمال على مجموعتين من السواري كل مجموعة تحتوي على ثلاث سواري، وفقدت المجموعتان من السواري اللتان كانتا ترتكز عليهما القبة الموضوعة أمام المحراب، وفوق القاعدة المربعة، نجد أربعة عقود زوايا موضوعة كما يدل عليها اسمها في الزوايا الأربع للقاعدة، تسمح بالمرور من القاعدة المربعة إلى الحزام الأسطواني.

أما القبة في ذاتها فكانت على ما يبدو مزينة بأخاديد، ولجامع سيدي أبي مروان مئذنة مبنية في الزاوية الشمالية الشرقية للصحن، بجانب ضريح أبي مروان.

وفي أيامنا هذه تشتمل هذه المئذنة على خمسة بروج موضوعة بعضها فوق بعض.

إن ارتفاع البرج الأول اليوم يساوي ١٧,٥٠م، وطول ضلع قاعدته المربعة ٤,٦م.

وينتهي هذا البرج بسطحية محاطة بجدار تعلوه شرفات، ونصعد إلى هذه السطحية بسلم عرضه ٩٠سم، يدور حول نواة مركزية غير خاوية ويؤدي إلى بيت صلاة صغيرة، نرى فيها محراباً ذا مشكاة نصف دائرية القعر عرضها ٧٦سم، وجوفها ٦٢سم، وارتفاعها ٢م.والملاحظ أنه لم يوجد بيت صلاة من هذا النوع إلا ببرج خلف سوسة الذي يرجع تاريخه إلى القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، فله شكل ثماني الأضلاع ارتفاعه ٢م، يعلوه برجان، أحدهما أسطواني الشكل، والثاني على شكل مخروط، وهذا الشكل هو شكل المئذنة حالياً، ومن بروجها الخمسة لم يرجع إلى عهد الزيري إلا البرج السفلي، وقد أجريت ترميمات للمسجد، وعثر في زماننا على دنانير ذهبية ترجع إلى عصر المرابطي[٨٢].

وفي العهد الحفصي أيام السلطان أبي زكريا بن اسحاق، شيد حصن القصبة فوق أكمة مقابلة للمدينة ومطلة على الناحية الجنوبية منها والتي يبلغ ارتفاعها (١٠٥م) وكان يحيط بهذا الحصن سور منيع يبلغ طوله (٣٥٠م)، وفي داخله قصر متين البناء، وأدخلت الحامية الجنوية عدة إصلاحات في الحصن عندما كانت تقيم به أثناء الاحتلال الإسباني للمدينة، ونظراً لأهميته الحربية، فقد اتخذه الأتراك العثمانيون مكان استقرار للدفاع عن المدينة، وكان عدد الحامية العثمانية فيه المسماة بـ (النوبة) ما بين ١٠٠ ـ ٥٠ شخصاً، وليس كما تدعي المصادر الأوربية، بأن الإمبراطور شارلكان هو الذي بناها سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٥م، قصد توطيد احتلاله للمدينة[٨٣].

وعمل جورج مارسه دراسة علمية على جامع سيدي أبي مروان، وأنهى مقاله مبدياً إعجابه بالمسجد والمدينة التي حوت آثار الوثنية والمسيحية والإسلامية الدالة على إشعاع الفن الإسلامي الأفريقي(٨٤).

ومن **الناحية الثقافية:** فقد نمت في بونة ـ عنابة ـ بذور ثقافية ترجع جذورها إلى القرن الرابع قبل الميلاد، حيث كانت المركز الديني الثاني بعد قرطاجة، وكان أبرز مفكريها القديس أوغسطين، ونظراً لأهميته، سميت المدينة باسمه، ومارست المدينة على مدى التاريخ دوراً هاماً من التواصل الثقافي، مثلما مارسته في الميدان التجاري، وكان من أبرز من قدم إليها بعد قيام ثورة الربض، يحيى بن يحيى بن كثير، المكنى بأبي عيسى، أصله من البربر من بني الليث ولذلك سمي بـ (الليثي) وهو من قرطبة، روى الحديث عن زياد بن عبد الرحمن، وزياد روى عن مالك بن أنس.

تفرغ للتدريس في جامع قرطبة، وله عدة أقوال وممارسات تنم عن أساليب تربوية جيدة منها، سأله مرة وزير من الوزراء عن مسألة دون الالتزام بقواعد المجلس، فأنكر عليه ذلك قائلاً له: "إذا جلست مجلس السائل والمجيب أجيتك بما أردت".

وكتب إليه أمية بن الحكم بن هشام، يسأله حنث جرت في مجلس راحة له، فكتب إليه: "لا ينبغي الأمير أن يسأل العلماء عن ما خطر في مجلس، مما لا ينبغي أن يخرج عنه فإنه أزين به".

وقدم طالب من طلاب العلم من أهل قابس، تبدو عليه خشونة البداوة والجهل؛ على مجلس ابن القاسم، وكان يحيى يجلس في مجلسه، فوبخه ابن القاسم على تصرفاته، ومن ضمن ما قال له، أنه لا يأتيني أحد من ضيعتكم عليه سمات العلم، فلما خلا المجلس، قال له يحيى: "ياأبا عبد الله كان منك اليوم إلى القابسي شيء أنكرته، لو كان لا يأتيكم إلا العالم، ما أتاكم أحد، ولكن يأتي الجاهل فيتعلم ومن لا يحسن فترفق به حتى يحسن". فقال له ابن القاسم: "لست أعود إلى مثلها إن شاء الله".

ويبدو رحمه الله أنه كان يرى ممارسة التدريس وبناء المؤسسات التعليمية، أهم منحى من مناحي الحياة، لذا بني المسجد عند قدومه إلى المدينة، أما متى قدم وما الأسباب لقدومه، فإننا لم نحصل على ما يفيد، ويبدو أنه توفي في قرطبة عن عمر يبلغ اثنين وثمانين عاماً في مدينة قرطبة، ودفن في مقبرة بني عباس إحدى مقابرها(٨٥).

أما أبو عبد الملك مروان بن محمد، ويسميه المؤرخون أحياناً أبو مروان عبد الملك، بن علي الأسدي القطان القرطبي المعروف بالبوني، نسبة إلى مدينة بونة ــ عنابة ــ ويكنى بـ (محي الدين)، سكن مدينة قرطبة، وفيها روى عن أبي محمد الأصيلي والقاضي أبي المطرف عبد الرحمن بن محمد بن فطيس وغيرها، وارتحل إلى المشرق، فأخذ هناك عن أبي محمد الأصيلي والقاضي أبي الحسن القابسي، لازم أبا جعفر أحمد بن نصير الداودي مدة خمس سنين، وأخذ عنه معظم تآليفه، وما عنده من علم رواية ودراية، وكرس أبو عبد الملك نفسه لخدمة العلم، فمارس التأليف والتدريس، ألف مختصراً لكتاب موطأ مالك، واعتمد عليه الناس وعلى الموطأ ذاته، وممن تحدث عنه مادحاً إياه أبو القاسم بن محمد، فقال: "لقيته بالقيروان وشهد معنا المجالس عند أهل العلم بها، وكان رجلاً حافظاً ناقداً في الفقه والحديث، وقرأت عليه بعض تفسير الموطأ، وأجاز لي سائره، وسائر ما رواه...".

وشهد له الكثير من العلماء بغزارة علمه خاصة في الفقه والحديث، حيث قام بتدريسها في المسجد الذي تسمى باسمه وتوفي سنة ٤٣٩هـ ودفن بحجرة قرب مئذنة الجامع، وقبره كان موجوداً أيام الاحتلال الفرنسي للجزائر.

من مؤلفاته في أسرار الحروف، رسائل الشهود في الحقائق على طريقة علم الحروف، شرف الشكليات وأسرار الحروف والورديات، خصائص السر الكريم في فضائل بسم الله الرحمن الرحيم.

وله كتب في الأذكار والأدعية والتصوف منها، التوسلات الكتابية والتوجهات العطائية، قوت الأرواح مفتاح الأفراح.

وله في النجوم، رسالة في أحكام النجوم، وله شرح (ن والقلم) الرسالة النونية في الحقيقة الإنسانية. ومن أبرز مؤلفاته: شمس المعارف ولطائف العوارف، حقق وطبع، ويحوي أربعة أجزاء، وهو شبه موسوعة في السيمياء، جمع فيه صاحبه ما تفرق في سائر كتله، وقد انعكست ثقافة المؤلف بما فيها من جوانب وألوان على هذا الكتاب.

وإن دلت هذه المؤلفات على شيء، فإنما تدل على خصوبته الفكرية، وجديته في العمل، وعلى مزاجه المتفائل، وإقباله على الحياة، عرفت مؤلفاته بالتخصصية إلى جانب الشمولية والإحاطة في المسائل المطروحة(٨٦).

أحمد بن محمد بن علي العنابي، المكنى بأبي العباس، نحوي، مقرئ، رحل إلى المشرق، واستقر في القاهرة مدة، لازم أثناءها أبا حيان النحوي، وقرأ عليه النحو وأتقنه وخاصة الثمان، وقام على خدمته إلى أن توفي، وبعد وفاته غادر القاهرة متوجهاً إلى دمشق، نزل بالخانقاه الأندلسية، وولي مشيخة النحو بالمدرسة القاهرية، وتصدر للتدريس بالجامع الأموي بدمشق، قال عنه ابن الجزي: "وانتفع به الناس العربية"، وقرأ عليه القراءات، عمران بن ادريس الجلجولي، وأحمد البانياسي، وشعبان الحنفي، توفي سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م(٨٧).

علي بن عبد الله الانصاري البوني المكنى بأبي الحسن، وهو من فقهاء المالكية، عرف بالدراية والعلم والأمانة، والحفظ والصيانة، مارس القضاء في بجاية، لم نعثر على تاريخ ومكان وفاته، لكنه من أهل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي(٨٨).

البوني، الوليد بن إبان بونة البوني الأصبهاني أبو العباس، مفسر محدث حافظ، ارتحل عدة رحلات، وحدث عن أحمد بن العزات الرازي وطبقته، وعنه أخذ

الطبراني وغيره ممن هم من أصل أصبهاني، توفي بأصبهان سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م.

من مؤلفاته: تفسير القرآن، المسند المعلل في الحديث[٨٩].

وهناك العديد من العلماء ممن استوطنوا المدينة وأغنوا انتاجها الثقافي ابتداءً بأبي عبد الملك مروان من أصحاب القرن الخامس الهجري إلى القرن التاسع، وواصلت المدينة رحلتها الثقافية حتى العصر الحديث الذي كان من أبرز علمائه أحمد ساسي ١٠٦٣ ـ ١١٣٩هـ/١٦٥٢ ـ ١٧٢٦م، وما يهمنا منه أرجوزته التي ألفها في ثلاثة آلاف بيت، ثم اختصرها إلى الألف وسماها بالألفية، وفيها يرجز ما ذكره علي بن فضلون من علماء البلدة الواردين عليها من المشرق والمغرب منذ القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجري، وقسم منظومته إلى أبواب وفصول، الباب الأول في ذكر علماء وصلحاء بونة حرسها الله تعالى آمين، الذين ذكرهم العلامة المؤرخ (علي بن فضلون) ممن كان في البلد أو قريباً منه، يقول:

أسأل ربي الحفظ والاتقان	بالعارف القطب أبي مروان
نور القلب شارح الموطأ	وبين أهل العلم ما تغطى
وقال بعض شرح (البخاري)	وليس ذا بعجب ياقاري
ذكره عياض والخلواني	وابن سليمان أباخلاني

وقد أشاد بمترجميه وإنتاجهم، فذكر منهم ابن رحمون الذي رحل إلى تلمسان، وأخذ عن الإمام ابن مرزوق، باعتباره النموذج الأول من نماذج العلماء الواردين في منظومته، وفي ذلك يقول:

وبابن رحمون أي الفضلي	محمد المعظم الجلي
وهو الذي رحل لابن مرزوق	أخذ عنه العلم فهو مصدوق

وأما النموذج الثاني، فيتمثل بابن زكريا الكسيلي يقول فيه:

وبـــأبي زكريـــا الكســـيلي العلـــم العلامـــة الجليلـــي

مؤلفاتـــه غـــدت عديـــدة كثـــيرة نافعـــة ســـديدة

تزيد في العـــدد فـــوق الأربعيـــن نثراً ونظماً رشقت قلـــب اللعيـــن

وقبل أن ينتهي من ذكر تراجم علي بن فضلون الذي ذكرهم في منظومته، أشـــار إلى أوصافهم ومكاناتهم فقال:

فبعضهم في المصر شعره وشـــى وبعضهم فاق علـــى المراكشـــي

وبعضـــهم فـــي لغـــة قـــد نبـــع ولكرامـــة الرجـــال بلـــغ

وبعضهم قاضٍ وبعضـــهم مفتـــي وبعضـــهم مـــدرس ذو وقـــت

وبعضهم ألـــف فـــي الفرائـــض ففاق فيـــها صنـــع كـــل رائـــض

ولابـــن فضلـــون بـــذا منامـــه عـــلا بـــها فـــي مصـــر مقامـــه

حاصلـــها أنـــهم مـــن أهـــل علـــم ونبـــل وتقـــى لا جـــهل

ثم يعقب ـــ الناظم ـــ على هذه الأبيات، بمقارنة المترجمين مع معاصريه، فيقول:

والآن يســكنون فـــوق المنـــبر لا يقبلون النصح حتى من يـــرى

لم يبـــق فيـــها نـــاثر أو شـــاعر يحيـــي ـــه الله ذوي المشـــاعر

وفـــي العلـــوم أفلســـوا لأنهم مـــن كسـبها قـــد أفلســـوا

ليـــت الجـــدود نظـــروا إليـــهم ولـــو رأواهـــم لبكـــوا عليـــهم

وقبل أن ينتهي من مترجمي علي بن فضلون، ويعقب عليهم بمترجميه، نبه علـــى ذلك بقوله:

وبابن فضلون على زين الخلـــف وهو الذي ذكر كـــل مـــن سلف

والأرجوزة طويلة تبلغ ألف بيت كما ذكرنا، ولذا اقتصرنا على هــذه المقتطفــات والمختصة[٩٠] بعلماء المدينة، ونظراً لعدم حصولنا على مؤلف ابن فضلون وما فيــه من تراجم أوردنا هذه المقتطفات لتعطي صورة ولو موجزة عن حال المدينة الثقــافي في فترات زمنية متعاقبة.

وبعد هذه لقطات من تاريخ هذه المدينة بمختلف العصور ذكرت بدون إطالة، لعدم اتساع المجال، آملين من المؤرخين العرب، أن يسهموا في نشر تراثها وتراث غيرهـا من المدن العربية الإسلامية، وأبرز أدوارها في مختلف ميــادين الحيــاة، مظــهرين الإيجابيات لنقتدي بها، والسلبيات لتجنبها ولتكون لنا درساً وعظة.

نتائج البحث

١- بَيَّنَ البحث سبب تسمية المَدِيْنة، وأسباب تغيرها في مختلف المراحل التاريخية.
٢- بَيَّنَ أهمية موقعها من الناحية العسكرية والتجارية.
٣- بَيَّنَ أهميتها الاقتصادية، بما تحويه من منتجات زراعية أو حيوانية أو معدنية.
٤- بَيَّنَ أثر الاقتصاد وانعكاسه على المجتمع، مما أثر في البنية السكانية، وجعلها مزيجاً من عناصر متعددة، جاءت إلى المدينة بدوافع وأهداف مختلفة، مما أكسبها حيوية ونشاطاً، وبقي ميزانها التجاري قائماً رغم ما عانت من حروب وويلات، لم تؤثر في اقتصادها، إلا في فترات وجيزة، عند القحط وانتشار الأوبئة.
٥- بَيَّنَ صراع القوى عليها، وجعله محاور، محور الشمال، ومحور الجنوب، مبرزاً أهمية هذا الصراع من الناحية الفكرية والعقائدية، ومن ناحية المادية الاجتماعية.
٦- تأثرها في السلب أو الإيجاب في عملية القرصنة، وشعور الأمة مشرقها ومغربها بالمحن والنكبات دون التمييز بينها، الأمر الذي دعاها أن تساعد بعضها بعضاً بقدر استطاعتها، وبالوسائل المتاحة لها آنذاك.
٧- دورها في المرابطة والتعليم، قدوم عدد من العلماء والأجلاء إليها، خاصة من الأندلس ممن عملوا على بناء المؤسسات الدينية العلمية، ومزاولة التعليم فيها، كمسجد سيدي أبي مروان.
٨- تفردها عن غيرها بوجود المرجان في سواحلها، مما أدى إلى تكالب دول الفرنجة عليها لكسب استثماره وتسويقه.
٩- موقف الأهالي المشرف في مناصرة عروج وأخيه ضد الملك الحفصي، الذي باع نفسه للأسبان، ووضعها تحت تصرفهم، مما دفعهم للدفاع عنها رغم ضعف إمكاناتهم.

الهوامش

١- الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، ط بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٤،ص١٥٩، ابن منظور، لسان العرب،ط ــ دار صادر ــ بيروت،١٩٥٧م، ج٥، ص٦٣١، مادة (عنب).

٢- **نفس المصدر** والصفحة.

3- **Grand Larousse Encyclopédique**-Art (Jujubier)

٤- الدمشقي، أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري، **نزهة الأنام في محاسن الشام**، ط ــ القاهرة ١٣٤١هـ، ص٢٧٠.

٥- البكري، أبو عبيد الله عبد العزيز، **المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب**، ط ــ مكتبة المثنى ــ بغداد، د ــ ت، ص٥٤ ــ ٥٥.

٦- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، تاريخ ابن خلدون، المسمى بـ (**العبر وديوان المبتدأ والخبر**...) ط ــ بيروت، د ــ ت،ج٦، ص٢٣، ولقد ورد التعبير (ولد العناب) وصحيحه (بلد العناب).

7- Shaw (Th), **Travels or observation Relating to several Parts of Barbary and the Levant** (Oxford - M. DCCC XXX. VIII "1838" P95).

٨- سرهنك ــ اسماعيل، **حقائق الأخبار عن دول البحار** (مصر ١٣٢١هـ) ج١، ص٣٥٦.

٩- عبد الحق صفي الدين عبد المؤمن البغدادي، **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، ت ــ علي محمد البجاوي، ط ــ دار المعرفة – بيروت –

ط (١) ١٣٧٢هـ/١٩٥٤م، ج١، ص٢٣١ ـ ٢٣٢.

10- Luis Keschi: **Hippone à travers les siècles** (Bull. De l'Ac. D. Hippone) no 38: 1961.

١١- البكري، **المغرب**...ص٥٤.

١٢- ابن خلدون ، **العبر**..ج٤، ص١٨٧. أبو دياك، صالح محمد فياض، **الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس، من الفتح إلى بداية عصر المرابطين وملوك الطوائف**، ط ـ لبنان، ١٩٨٨م، ص١٤٤، ص٤١٦.

١٣- الكعاك، عثمان، **عنابة قبل الإسلام**، الأصالة، السنة (٥) العدد (٣٤ ـ ٣٥)، الجزائر -١٩٧٦، ص٤٦.

١٤- شينيتي ـ بشير، **هيبون القديمة، الأصالة**، (س/٥)، (ع/٣٤ ـ ٣٥)، الجزائر ـ ١٩٧٦م، ص٢٦.

١٥- ابن منظور، **لسان العرب**، ج٢، ص٢٠٥ مادة (عنب).

١٦- البكري، **المغرب**، ٥٥.

١٧- يفرق البكري بين المدينة القديمة وهي مدينة (أفشتين) أي (القديس أغسطين) العالم بدين النصرانية وهي على ساحل البحر في مرتفع من الأرض منيع ويسميها، زاوي، وبين مدينة جديدة بنيت على بعد ثلاثة أميال من السابقة، وسميت (بونة الجديدة)، وقد سورت بعد سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، (شيخ الربوة) في (**نخبة الدهر**) ص٢٣٥، لا يعترف إلا بهذه المدينة ويعتبر أن بناءها كان بعد سنة ٤٥٠هـ، راجع، البكري، **المغرب**...ص٥٤ ـ ٥٥، شيخ الربوة، شمس الدين الأنصاري الدمشقي، **نخبة الدهر في عجائب البحر**، ط ـ المثنى، بغداد، د ـ ت، ص٢٣٥.

١٨- ابن خلدون، **العبر**...ج٦، ص١٧٩ ــ ١٨٠.

١٩- أبو الفداء، اسماعيل بن محمد بن عمر، **تقويم البلدان**، ط ــ دار الطباعة السلطانية، باريس سنة١٨٤٠م، ص١٤١.

٢٠- البكري، وصف المغرب...ص٥٥.

٢١- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، **صورة الأرض** منشورات ــ دار مكتبة الحياة ــ بيروت، ١٩٧٩م، ص٧٧.

٢٢- مؤلف مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ت ــ سعد زغلول عبد الحميد، ط ــ دار النشر المغربية، سنة١٩٨٥، ص١٢٧، المقدسي، محمد بن أحمد، **أحسن التقاسيم**، نشر ــ غازي طليمات، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ــ دمشق ١٩٨٠م، ص٢٠٨، البكري، **وصف المغرب**...ص٥٤ ــ ٥٥، الكعاك، عنابة قبل الإسلام، الأصالة، ص٤٧.

23- Braudel, La Méditerranée et Le Monde Méiterranéen à l' époque de Philippe II, Paris 1949, P. 83; Sahw, **Op. Cit.,** P. 97.

24- Alazard, Bencheneb, Boyer et autres, Algérie (Paris, S.D) chapI: p.26.

٢٥- ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص٧٧.

٢٦- البكري، **المغرب**...ص٥٥.

٢٧- جوليان ــ اندري، تاريخ افريقية الشمالية، تعريب ــ محمد مزالي، البشير سلامة، تونس ١٩٧٨م، ج٢، ص١٥٠، الجيلالي ــ عبد الرحمن، **مسجد سيدي بومروان العتيق بعنابه**، الأصالة (س/٥)، (ع/٣٤ ــ ٣٥)، الجزائر ١٩٧٦م، ص١٩٤.

٢٨- أبو الفدا، **تقويم البلدان**، ص١٤١.

٢٩- الوزان، الحسن بن محمد الزياني المعروف بـ (ليون الأفريقي) **وصف أفريقية**، ترجمة ـ عبد الرحمن حميدة، ط ـ الرياض، سنة١٣٩٩م، ص٤٣٣.

30- Ch. André Julien, Histoire de L'Afrique du Nord (Paris 1966) 1, p.82.

٣١- المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ط ـ ليدن، ١٩٠٦م، ص ٢١٦ ـ ٢٢٦، البكري، المغرب..ص٥٤ ـ ٥٥.

٣٢- ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص٧٧.

٣٣- البكري، **المغرب**...ص٥٥.

٣٤- نويهض ـ عادل، **معجم أعلام الجزائر**، منشورات المكتب التجاري، ط(١) بيروت ١٩٧١م، ص٢٨ ـ ٣٠،وعن زاوي، راجع، ابن خلدون، **العبر**، ج٦، ص١٧٩ ـ ١٨٠.

35- L. Cardaillac: Morisques en Provence, dans M. de Epalaza-R. Petit, **Op. Cit**., p:94.

٣٦- ابن خلدون، **العبر**، ج٤، ص٤٦، الجيلالي ـ عبد الرحمن محمد، **تاريخ الجزائر العام**، ط(٢)، الجزائر، بيروت، ١٣٨٤هـ/١٩٧٥، ج١، ص٢٩٣.

٣٧- الوزان، **وصف أفريقية**، ص٤٣٣.

٣٨- لقد كانت بطون دريد من أعز بطون الأثبج وكانت مواطنهم ما بين بلد العناب وقسنطينة، واستوطن المدينة نفسها بنو مرداس من بني هلال والكعوب وكذلك (عوف) من بني سليم هذا مع العلم أن سكانها قبل الهجرة الهلالية كانوا ـ خاصة زمن البكري ـ من كتامة ومصمودة وولهاصة وأوربة، ويبدو أن عوف قدمت إلى المدينة قادمة من تونس في القرن الثامن للهجرة, راجع، ابن خلدون، **العبر**، ج٦، ص٣٣، الميلي ـ محمد مبارك الهلالي، **تاريخ الجزائر**

في القديم والحديث، الجزائر، د ــ ت، ج٢، ص١٧٨.

٣٩- الادريسي، **نزهة المشتاق**، ط ــ بريل، ١٩٦٨م، ص١١٦ ــ ١١٧.

٤٠- الميلي، **تاريخ الجزائر**، ج٢، ص١٧٨.

٤١- شيخ الربوة، **نخبة الدهر**، ص٢٣٥.

٤٢- ابن جبير، **رحلته**، ط ــ ليدن، سنة١٩٠٧م، ص٣٠٧ ــ ٣٠٨.

٤٣- لم نعرف أنه ترك له عقباً في عنابة أم لا، عنه وعن غيره من الأندلسيين،

L. Cardaillac: Morisques en Provence, dans M, de Epalaza-R. Petit, **Op. Cit.**, p:94.

٤٤- جوليان، **تاريخ أفريقية الشمالية**، ج٢، ص١٥٢ ــ ١٨٢ وما بعدها.

٤٥- الميلي، **تاريخ الجزائر**، ج٢، ص٣٩٣.

٤٦- العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد الحيحي، **رحلة العبدري**، ت ــ محمد الفاسي، ط٢ ــ الرباط، د ــ ت، ص٣٧، عن المنظومة، ص٢٨١ بيت رقم ٢٨ من القصيدة.

٤٧- الميلي، **تاريخ الجزائر**، ج٢، ص٢٦٥.

48- Julien, **Op. Cit**: 11,p.123.

٤٩- جوليان، **تاريخ أفريقية الشمالية**، ص١٦٩، الميلي، **تاريخ الجزائر**، ج٢، ص٢٦٥.

٥٠- ابن خلدون، ج٢، ص٣٩٩ ــ ٤٠٠.

٥١- **نفسه**، ص٣٩٩.

٥٢- **نفسه**، ص٤٠٠.

٥٣- كانت الحملة ردا على مهاجمة غزاة البحر المغاربة لتوريبلانكا Torreblanca، راجع، الميلي، **تاريخ الجزائر**، ج٢، ص٣٩٣.

٥٤- الوزان، **وصف أفريقية**، ص٤٣٣ ـ ٤٣٤.

55- Peyssonnel Des Fontaines: **Voyages dans la Régence de Tunis et d'Alger,** Publiée par M. Dureau de la Malle, Gide, Paris, 1838, T. 11, p:219.

٥٦- ابن انسراج محمد بن محمد الأندلسي، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تونس ١٩٧٠م، ج١ القسم (٤) ص١٤٦.

٥٧- أرسل المركيز مونديخار رسالة إلى الإمبراطور شارلكان في ١٥٣٥/٨/٢٩م، يصف له وصول الأسطول إلى عنابة الذي وصلها بعد (٥) أيام من وصول دون الفارو، والرسالة طويلة، يشير فيها إلى ترك، (٢٠٠) جندي في القصر و و(٦٠٠) جندي في المدينة، عنه راجع، مدني ـ أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانية، ط(٣) الجزائر ١٩٨٤م، ص٢٣٩ وما بعدها.

٥٨- لقد أشار معظم جغرافيي العرب إلى غناها بمعدن الحديد (**معجم البلدان**، ج١، ص٥١٣، الادريسي **نزهة المشتاق**، ص١١٧، **ابن حوقل**، ص٤١، أبو الفدا، **التقويم** ص١٤١، **المقدسي** ص٢٢٦) وهي لازالت إلى الآن تشتهر باستخراجه من مناجم (الوينزه) ويضاف إليه الفوسفات من الكويف، والزرنيخ نم منجم كاريزاس.

٥٩- لقد تحدث (بيد روسالازار) في كتابه المؤلف في القرن السادس عشر عن بعض حملات غزاة البحر المسلمين واتجاهاتها، وهي توضيح خط السير المشار إليه آنفا، فقد بين أن ثلاثة مراكب تابعة لأسطول (طرغد) كانت قد اتخذت قاعدتها في سهل تونس وجنوبي جربة، ففي عام ١٥٥٠م خرجت من قاعدتها لتتوقف قرب مدخل خليج نابولي حيث عملت على مراقبة مؤخرة

الأسطول الأسباني الذي تحرك نحو صقلية، وقامت المراكب الثلاثة بالاستيلاء على سفينة تموين، ثم فرقاطة، ثم على مركب محمل بالحجاج إلى روما، وبعد ذلك انفصل أحد المراكب وعاد إلى جربة، بينما تابع المركبان طريقهما نحـــو الشمال إلى قرب مصب التيبر فجزيرة ألبة، إلا أن واحدا اضطر للعودة، فـلَتى عنابة، ومنها إلى الجزائر حيث باع غنيمته، أما المركب الثالث المتبقـــي فقـد تابع وحده، وغزا كورسيكة، واتجه إلى اسبانية، ثم عاد إلى بنزرت عن طريق سردينية فعنابة ــ وبعد ذلك إلى الجزائر. راجع:

Hispania Vientrix, Medina de Lcampo. 1552 (d'après Braudel. P.727).

٦٠- بو عبدلي ــ المهدي، **تاريخ بونة الثقافي والسياسي عبر العصور**، الأصالـــة، (س/٥)، (ع/٣٤ ــ ٣٥)، الجزائر يوليو ١٩٧٦م، ص٢١٢ ــ ٢١٣.

٦١- ابن خلدون، يحيى أبي زكريا، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ت ــ عبد الحميد ــ حاجيات، الجزائر ١٩٨٠، ص٢٠٥.

٦٢- ابن قنفذ، أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسنطيني، الفارسية **في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق ــ محمد الشاذلي النيفـــر، عبـد المجيـد تركي، ط ــ الدار التونسية للنشر، ١٩٦٨،ص١٦٥.

٦٣- الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**، ط ــ دار صادر بيروت، سـنة ١٩٥٧م، ج٧، ص١٠٦.

٦٤- ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص٧٧.

٦٥- المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص٢٢٦.

٦٦- البكري، **المغرب**...ص٥٤ ــ ٥٥.

٦٧- لأبو الفدا، **تقويم البلدان**، ص١٤١.

٦٨- الوزان، **وصف أفريقية**، ص٤٣٢ ــ ٤٣٤.

٦٩- مؤلف ــ مجهول، **الاستبصار**، ص١٢٧.

٧٠- البكري، **المغرب**...ص٥٥.

٧١- **نفس المصدر** والصفحة، الادريسي، **نزهة المشتاق**، ص١١٧.

٧٢- لاوزان، **وصف افريقية**، ص٤٣٣.

٧٣- الكعاك، **عنابة قبل الإسلام**، الأصالة، (س/٥)، (ع/٣٤ ــ ٣٥)، يوليو ١٩٧٦م، ص٥٨.

74- Madame Chollet: **Bone de 1830 a 1831**, Diplome d'Etudes superieures Alger, 1952, ch.d, p.4.

٧٥- البكري، **المغرب**...ص٥٥.

76- H.R.1 dris: **La Bebérie orientale sous les Zirides**, x-x 11siecle,T.11, p,494.

77- Baron Bande: **L'Algerie**, T.1.M. Cholett, 5. Point, les sources minières de la province de Bone.

٧٨- الوزان، **وصف أفريقية**، ص٤٣٣.

٧٩- البكري، **المغرب**، ص٥٤ ــ ٥٥.

٨٠- **نفس المصدر** والصفحة.

٨١- الجيلالي، **مسجد سيدي بومروان**، الأصالة، (س/٥)، (ع/٣٤ ــ ٣٥)، الجزائر ١٩٧٦م **نفس المرجع**، ص٦٨ وما بعدها.

٨٢- بوربيه ــ رشيد، **عنابة من الفتح الإسلامي إلى أواخر العهد الموحدي**، الأصالة، (س/٥)، (ع/٣٤ ــ ٣٥)، الجزائر، ١٩٧٦م **نفس المرجع**، ص٦٨

وما بعدها.

83- Pellissier: **Annales Algériennes**, T. I, Paris, p. 227.

84- **Mélanges** Marçais, Maisonneuve, Paris 1950, p. 80.

٨٥- الخشني، محمد بن حارث، **أخبار الفقهاء والمحدثين**، تحقيق، ماريا لويسا آبيلا، ولويس مولينا، ط ـ المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ـ مدريد، سنة ١٩٩٢م، ترجمه رقم (٤٩٣) ص٣٤٨ وما بعدها.

٨٦- جيلالي ـ عبد الرحمن محمد/ **تاريخ الجزائر العام**، ط(٢)، الجزائر ـ بيروت ١٩٦٥م، ج١، ص٤١٤، بلغراد ـ محمد، من أعلام عنابة، الأصالة، (س/٥)، (ع/٣٤ ـ ٣٥)، الجزائر سنة ١٩٧٦م، ص٢٤٤ وما بعدها، نويهض ـ عادل، **معجم أعلام الجزائر**، ط(١) بيروت، ١٩٧١م، ص٢٨ ـ ٣٠.

٨٧- **نفسه**، ص٣٧.

٨٨- الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد، **عنوان الدراية، فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، ت ـ رابح ـ بونار، ط(٢)، الجزائر، ١٩٨١م، ص٢١٨، ت ـ عادل نويهض، ط(١) بيروت ١٩٦٩م، ص٢٥١.

٨٩- الكعاك، **عنابة قبل الإسلام**، الأصالة، (س/٥)، (ع/٣٤ ـ ٣٥)، ص٦٢.

٩٠- بوعبدلي، **تاريخ بونه...**، نفس المرجع، ص٢١٥ ومابعدها.

ثبت بأسماء المصادر والمراجع

١- الإدريسي؛ محمد بن عبدالله. **نزهة المشتاق**، ط ــ بريل ١٩٨٦.

٢- البكري؛ أبو عبد الله عبد العزيز. **المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب**، ط ــ مكتبة المثنى ــ بغداد، د ــ ت.

٣- الجيلالي؛ عبد الرحمن ــ محمد. **تاريخ الجزائر العام**، ط(٢)، الجزائر، بيروت، ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٥م، ج١.

٤- ابن جبير؛ محمد بن أحمد. **رحلته**، ط ــ ليدن، ١٩٠٧م.

٥- جوليان ــ أندري. **تاريخ أفريقية الشمالية**، تعريب ــ محمد مزالي، البشير سلامة، ط ــ تونس ــ ١٩٧٨م.

٦- الحموي؛ ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي. **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، ط ــ بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٤.

٧- ابن حوقل؛ أبو القاسم النصيبي. **صورة الأرض**، منشورات ــ دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م.

٨- ابن خلدون؛ يحيى أبي زكريا. **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ت ــ عبد الحميد ــ حاجيات، الجزائر ــ ١٩٨٠م،

٩- ابن خلدون؛ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي. **تاريخ ابن خلدون**، المسمى بـ (**العبر وديوان المبتدأ والخبر....**) ط ــ بيروت، د ــ ت، ج٦.

١٠- الخشني؛ محمد بن حارث. **أخبار الفقهاء والمحدثين**، ت ــ ماريا لويسا آبيلا، ولويس مولينا، ط ــ المجلس الأعلى للأبحاث العلمية مدريد ــ ١٩٢٢م.

١١- الدمشقي؛ أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري. **نزهة الأنام في محاسن الشام**، ط ـ القاهرة، ١٣٤١هـ.

١٢- أبو دياك؛ صالح محمد فياض. **الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس من الفتح إلى بداية عصر المرابطين وملوك الطوائف**، ط ـ لبنان، ١٩٨٨م.

١٣- ابن السراج؛ محمد بن محمد الأندلسي. **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، ط ـ تونس، ١٩٧٠م، ج١.

١٤- سرهنك ـ اسماعيل. **حقائق الأخبار عن دول البحار**، ط ـ مصر، ١٣٢١هـ، ج١.

١٥- شيخ الربوة؛ شمس الدين الأنصاري الدمشقي. **نخبة الدهر في عجائب البحر**، ط ـ المثنى، بغداد، د ـ ت.

١٦- العبدري؛ أبو عبد الله محمد بن محمد الحيحي. رحلته، ت ـ محمد الفاسي، ط ـ الرباط، د ـ ت.

١٧- عبد الحق؛ صفي الدين عبد المؤمن البغدادي. **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، ت ـ علي محمد البجاوي، ط(١) دار المعرفة، بيروت ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٤م، ج١.

١٨- الغبريني؛ أبو العباس أحمد بن أحمد. **عنوان الدراية، فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، ت ـ رابح ـ بونار، ط(٢) الجزائر، ١٩٨١، ت ـ عادل نويهض، ط(١) بيروت ١٩٦٩م.

١٩- أبو الفداء؛ اسماعيل بن محمد عمر. **تقويم البلدان**، ط ـ دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م.

٢٠- ابن قنفذ؛ أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسنطيني. **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، ت ـ محمد الشاذلي النيفر، عبد الحميد تركي، ط ـ الدار التونسية، ١٩٦٨م.

٢١- ابن منظور؛ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. **لسان العـرب**، ط ـ دار صادر ـ بيروت، ١٩٥٧م. ج٥.

٢٢- المقدسي؛ محمد بن أحمد. **أحسن التقاسيم**، نشر ـ غازي طليمات، منشـورات ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٠م.

٢٣- مؤلف مجهول. **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ت ـ سـعد زغلـول عبـد الحميد، ط ـ دار النشر المغربية، ١٩٨٥م.

٢٤- الميلي؛ محمد مبارك. **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**. ط ـ د ـ ت، ج٢.

٢٥- مدني؛ أحمد توفيق. **حرب الثلاثمائة سنة بيـن الجزائـر واسـبانية** – ط(٣) الجزائر ١٩٨٤م.

٢٦- نويهض؛ عادل. **معجم أعلام الجزائر**، منشورات المكتـب التجـاري، ط(١) بيروت ١٩٧١م.

٢٧- الوزان؛ الحسن بن محمد الزياني المعروف بـ (ليـون الأفريقـي). **وصـف أفريقية**، تعريب ـ عبد الرحمن حميدة، ط ـ الرياض، ١٣٩٩هـ.

المجلات

١- بلقراد ــ محمد. ــ **من أعلام عنابــــة، الأصالـــة،** (س/٥)، (ع/٣٤ ــ ٣٥)، الجزائر ١٩٧٦م.

٢- جيلالي ــ عبد الرحمن محمد. محمد سيدي بومروان العتيق بعنابة، **الأصالـــة،** (س/٥)، (ع/٣٤ ــ ٣٥)، الجزائر ١٩٧٦م.

٣- بوريبه ــ رشيد. ــ **عنابة من الفتح الإسلامي إلى أواخر العـــهد الموحــدي،** الأصالة، (س/٥)، (ع/٣٤ ــ ٣٥) ، الجزائر١٩٧٦م.

٤- شيني بشير. ــ **هيبون القديمة، الأصالة،** (س/٥)، (ع/٣٤ ــ ٣٥) الجزائـــر، ١٩٧٦م.

٥- بوعبدلي ــ المهدي. **تاريخ بونه الثقافي والسياسي عبر العصور، الأصالــــة،** (س/٥)، (ع/٣٤ ــ ٣٥) ، الجزائر ١٩٧٦م.

٦- الكعاك ــ عثمان. **عنابة قبل الإســـلام، الأصالـــة،** (س/٥)، (ع/٣٤ ــ ٣٥)، الجزائر ١٩٧٦م.

المراجع الأجنبية

1- ALazard, Bnchenneb. Boyer et autres, Algérie (Paris, S.D).

2- Braudel, **La Mediterranée et Le Monde Mediterranéen à L' époque de Philippe II,** Paris 1949.

3- Peyssonnel des Fontaines. **Voyages dans La Régence de Tunis et d.'Alger,** Publiées par M. Dureau de La Malle, Paris, 1838, T,11.

4- Baron – Bande. L, Algerie, T. 1.M. chollet, 5. Point, **Les sources Minieres de La province de Bone.**

5- Pelissier, **Annales Algériennes** T.I.

6- Ch. Andre Julien. **Histoire de L', Afrique** (Paris 1966) T: 1.

7- Shaw (Th). **Travelsor observation Relating to Several Parts of Barbary and the Levant** (Oxford – MDCCCVIII "1738").

8- Hispania Vientrix. Medina del Campo. 1552 (d, après Braudel).

9- Luis Lesehi, **Hippone à travers les siècles**, Bull. De L'Ac. De Hippone, No. 36, 1961.

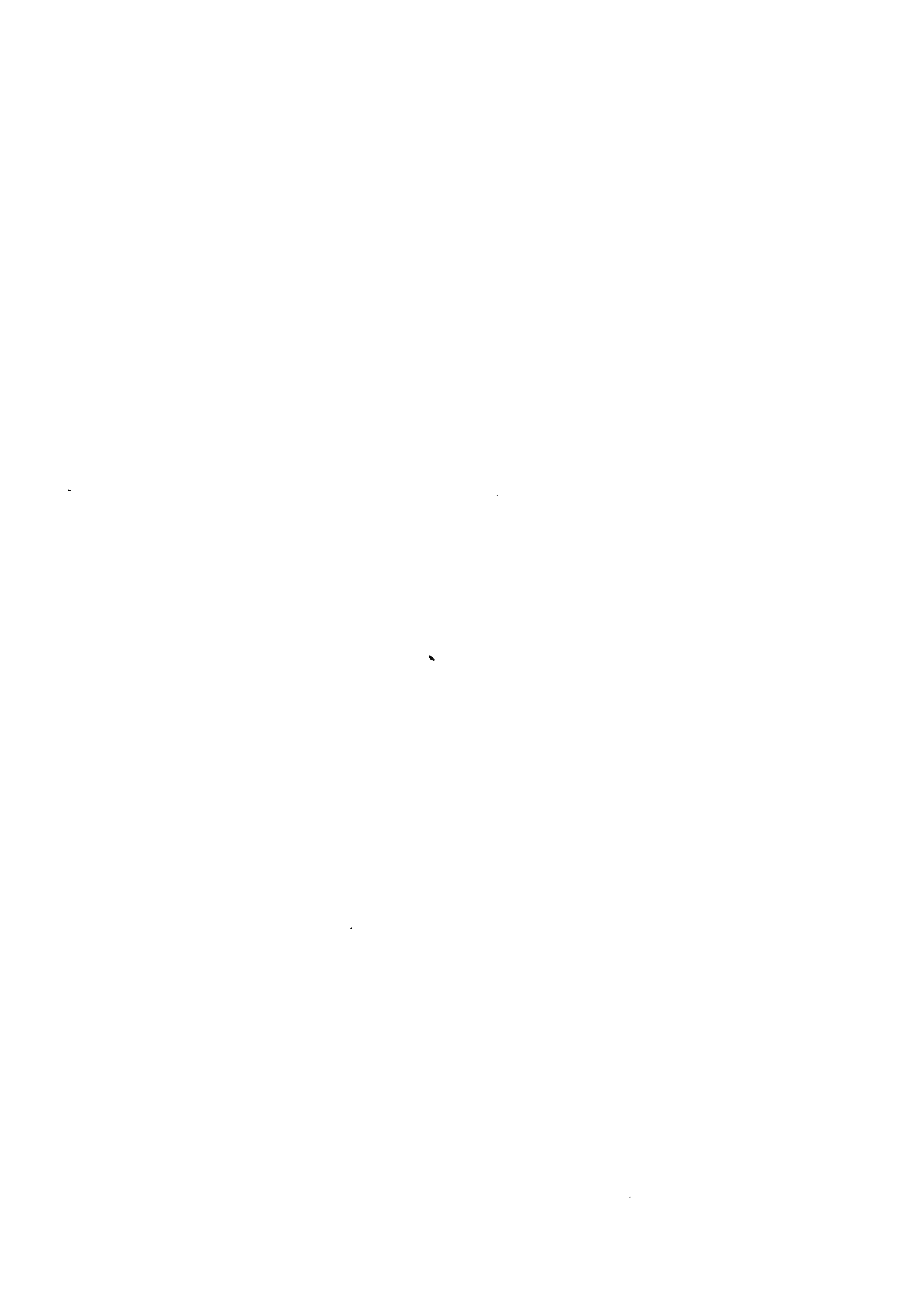
10- H. R. İdris, **La Berbérie Orientale sous les Zirides** au XII^E siècle, T. 11.

11- L. Cardaillac. **Morisques en Provence, dans M, de Epalza.**

الدبلوماسية الروسية في مصر و بلاد الشام
خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر

د. محمد حبيب صالح

قسم التاريخ - جامعة دمشق



الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر

١ ـ الصراع الدولي للسيطرة على مصر وبلاد الشام ١٧٩٨ ـ ١٨٠١م:

مع نهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر، ازدادت حدة الأزمة الاقتصادية والسياسية التي كانت تعيشها الدولة العثمانية منذ سنوات عديدة. ولعبت العوامل والظروف الدولية آنذاك دوراً كبيراً ومؤثراً في ذلك، خصوصاً الثورة البورجوازية الفرنسية عام ١٧٨٩م، وما نتج عنها من أفكار تقدمية ديمقراطية انتشرت في أوساط الشعوب والأمم الخاضعة للسيطرة العثمانية، بالإضافة إلى الثورة الصناعية التي كانت قد بدأت في انكلترة، وانتقلت عبر المانش إلى بقية البلدان الأوروبية، وخصوصاً إلى فرنسة. فقد ترك هذان العاملان على وجه التحديد عظيم الأثر على التطورات الاقتصادية، والسياسية، داخل الدولة العثمانية، وتطلّبت الإنجازات الكبيرة التي حققتها الثورة الصناعية والزيادة الهائلة في إنتاج البضائع الصناعية، البحث عن أسواق جديدة لتسويق وتصريف هذا الفائض الكبير، ومصادر جديدة للمواد الأولية اللازمة للصناعات المختلفة[١]. وبما أن الدولة العثمانية كانت تعتمد في دخلها القومي بالدرجة الأولى على الاقتصاد الزراعي، وعاجزة عن الصمود في وجه الاقتصاد الصناعي المتطور للدول الرأسمالية الغربية، وفي وقت كانت فيه هذه الدول بأمس الحاجة إلى المنتجات الزراعية التي تنتجها الولايات العثمانية، وخصوصاً في مصر وبلاد الشام، فقد تحولت هذه المنطقة إلى ساحة تتصارع فيها القوى الرأسمالية العظمى، وتسعى للسيطرة عليها كل بطريقتها الخاصة.

من ناحية أخرى، أدت عملية التنافس بين الدول الرأسمالية العظمى للسيطرة على أسواق مصر وبلاد الشام، إلى إحداث أزمة حقيقية للدولة العثمانية من خلال ازدياد الثورات، وحركات التحرر الهادفة إلى التخلص من نير الظلم العثماني. وكانت ضغوطات الإقطاعيين في الأرياف على الفلاحين ومصادرة منتجاتهم الزراعية بغية بيعها للشركات التجارية الغربية، وزيادة حدّة الظلم الذي عانى منه الحرفيّون والتجار في المدن من أهم أسبابها[٢].

أدّت المنافسة القوية، والتزاحم بين انكلترة وفرنسة إلى زيادة حدة التوتر في الأوضاع الدولية، خصوصاً خلال فترة الحروب النابليونية. وكانت علاقة نابليون بونابرت مع السلطان العثماني سليم الثالث غاية في التعقيد، والكراهية، في وقت كان فيه بونابرت يسعى إلى أضعاف موقف انكلترة في مصر، وبلاد الشام، وانتزاعها من العثمانيين. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، توجه إلى مصر على رأس حملة عسكرية في ٣٠ حزيران ١٧٩٨م تمكنت من السيطرة عليها، ثم حاول نابليون السيطرة على بلاد الشام مع مطلع عام ١٧٩٩م، غير أنه فشل في تحقيق مهمته هذه بعد المقاومة التي أبدتها مدينة عكا بمساعدة الأسطول الإنكليزي من البحر، فعاد نابليون إلى مصر، ومن هناك أبحر في ٤آب ١٧٩٩م إلى فرنسة[٣].

أدت السياسة الفرنسية الجديدة تجاه مصر، وبلاد الشام، ومحاولة السيطرة عليها بالقوة العسكرية، إلى حدوث تغيير كبير في السياسة الروسية تجاه الدولة العثمانية. وكانت سياسة سانت بطرس بورغ قد تمحورت، منذ عهد القيصر الروسي بطرس الأكبر حول هدف رئيسي غير معلن، يرمي إلى إعادة إحياء الإمبراطورية البيزنطية المسيحية الشرقية، والسيطرة على كافة الأراضي التي تقطنها الشعوب السلافية، واعتبرت روسية نفسها الوريث الشرعي لهذه الإمبراطورية، وبالتالي فقد سعت السياسة الروسية منذ ذلك التاريخ لتحقيق هذه الهدف. وشكّل شعار الوصول إلى المياه الدافئة ستاراً، تخفي وراءه المطامع والتطلعات الروسية، في السيطرة على مناطق

المضائق، وبتحويل البحر الأسود إلى بحيرة روسية. وقد ظهر هذا التغيير في الدبلوماسية الروسية تجاه الدولة العثمانية في التقارب الذي أنهى مرحلة حقد وعداء استمرت بين الدولتين ١٢٠ عاماً، ودفع الخلل الذي حصل في توازن القوى الأوروبية من خلال قرار فرنسة السيطرة على مصر وبلاد الشام، كل من روسية القيصرية، والدولة العثمانية، إلى التوقيع في ٣ كانون الثاني عام ١٧٩٩م على أول تحالف دفاعي بين الدولتين مدته ثماني سنوات، تعهدت بموجبه روسية القيصرية بتزويد الدولة العثمانية باثنتي عشرة سفينة من أسطولها الحربي، وإمدادها بجيش يتروح عدده بين ٧٥و ٨٠ ألف جندي عند الضرورة، مقابل السماح للسفن الحربية الروسية بالمرور عبر مضائق البوسفور والدردنيل[٤].

لقد مكنت هذه الاتفاقية الدبلوماسية الروسية وللمرة الأولى من القفز إلى ما هو أبعد من منطقة المضائق، والتفكير بإيجاد مصالح لروسية في الشرق العربي، وكانت الاتفاقية بمثابة رسالة موجهة إلى الدول الغربية بأن الدبلوماسية الروسية تسعى جاهدة إلى شغل مكان مناسب لها في المسألة الشرقية. ومنذ ذلك التاريخ، أصبحت عملية دفع الدولة العثمانية لعقد مثل هذه الاتفاقات، عن طريق استغلال الأوضاع والتطورات المتتابعة على الساحة الدولية والمتعلقة بالدولة العثمانية، هدفاً للدبلوماسية الروسية كما سنرى لاحقاً.

في ٥ كانون الثاني عام ١٧٩٩م، أي بعد مرور يومين فقط على التوقيع على اتفاقية التحالف الدفاعية الروسية ـ العثمانية، سارعت انكلترة إلى التوقيع على اتفاقية تحالف عسكرية مشابهة مع الدولة العثمانية، وذلك خوفاً من ازدياد النفوذ الروسي، الذي يمكن أن يقطع الطريق على التطلعات الإنكليزية نحو مصر، الواقعة على طريقها التجاري إلى مستعمراتها في الهند الشرقية، درّة التاج البريطاني، وبلاد الشام القريبة من منطقة القفقاس، التي كانت تُعَدّ هدفاً للتطلعات الإنكليزية في تلك الفترة. وقد نصت اتفاقية التحالف هذه على تعهد الحكومة الإنكليزية بالوقوف بشكل مباشر

إلى جانب الدولة العثمانية، وحماية كافة ممتلكاتها، وضد الغزو الفرنسي لمصر وبلاد الشام، مقابل أن يتعهد السلطان العثماني بإغلاق المضائق، وجميع الموانئ في الدولة العثمانية في وجه السفن الفرنسية، وذلك من أجل تدمير تجارة فرنسة في الشرق وخصوصاً في بلاد الشام، والبحر المتوسط، وإعداد جيش مؤلف من مائة ألف جندي لتحقيق هذا الهدف. وبذلك أصبحت الدولة العثمانية عضواً في التحالف الدولي المعادي لفرنسة(٥).

من جانبها بدأت قيادة الحملة الفرنسية على مصر تسعى إلى توطيد دعائمها في البلاد، والاحتفاظ بها، في وقت سارت فيه التطورات الدولية وفق خط لا يتماشى والمصالح الفرنسية. فعادت روسية القيصرية في عام ١٨٠٠م ووقعت مع الدولة العثمانية على معاهدة تحالف دفاعية جديدة، مدتها تسع سنوات، تضمنت بالإضافة إلى تعهد الطرفين بالوصول إلى إقامة تحالف دفاعي بين مختلف القوى الأوروبية العظمى، التي تعارض التوسع الفرنسي، السماح للسفن الحربية الروسية بالمرور عبر مضائق البوسفور والدردنيل، ونقل العتاد العسكري، مقابل تقديم الدعم العسكري الروسي للإمبراطورية العثمانية. كما نص البند الثاني من معاهدة التحالف هذه على تشجيع حكومة القيصر الروسي لحكومات النمسة وبروسية، والدانيمارك، والسويد، للدخول في التحالف الذي تم الاتفاق عليه مع انكلترة لتشكيل ضغط جماعي على فرنسة، ودفعها للعمل مع الدول الأوروبية على إقامة نظام دولي يكفل التوازن، والأمن، والاستقرار في أوروبة. ويحافظ على السلام، ويحترم مبادئ القانون الدولي.

كما نصت الاتفاقية على اعتبار البحر الأسود منطقة مغلقة محرّمة على السفن العسكرية التابعة للدول الأخرى، وفي حال ظهور أية قوى فيه، يعمل الطرفان المتعاقدان(روسية والدولة العثمانية) للقضاء عليه بشكل مباشر(٦).

تنفيذاً لاتفاقات التحالف الروسية ـ العثمانية قامت القوات البحرية المشتركة بكلا الدولتين، والتي كانت في غالبيتها من قوات الأسطول الروسي بقيادة الأدميرال

أوشاكوف، بطرد القوات الفرنسية من جزر إيوان، وفي ٢١ آذار عام ١٨٠٠م أعلنت جزر إيوان السبع جمهورية مستقلة متّحدة مع الدولة العثمانية، وتحت حماية روسية القيصرية[٧].

في ظل سياسة التحالفات الروسية_العثمانية هذه فهمت الحكومة الفرنسية عدم جدوى التمسك بالسيطرة على مصر، وبدأت تسعى إلى نسف هذه التحالفات، وذلك بضرب السياستين الروسية والإنكليزية في المنطقة، وأوعزت إلى الجنرال كليبر الذي كان قد خلف نابليون في قيادة الحملة في مصر بالتفاوض مع العثمانيين والإنكليز من أجل التوصل إلى اتفاق تنسحب بموجبه القوات الفرنسية من مصر. وبالفعل فقد تمكن كليبر من التوقيع على اتفاقية الجلاء مع الإنكليز يوم ٢٤ تشرين الثاني عام ١٨٠٠م. غير أنه تبيّن بعد ذلك بأن انكلترة رغم توقيعها على الاتفاق مصممة على عدم السماح بخروج القوات الفرنسية، وتطالب باستسلامها. فقرر كليبر توجيه ضربة قوية للجيش العثماني الذي كان قد نزل إلى الأراضي المصرية، من خلال خطة عسكرية بدأ كليبر تنفيذها يوم ٢٠ أيار ١٨٠٠م انتهت بانتصار ساحق للفرنسيين على العثمانيين. الأمر الذي دفع الحكومة الإنكليزية على إنزال قواتها على الشواطئ المصرية ربيع عام ١٨٠١م، حيث تمكنت هذه القوات من اقتطاع القوات الفرنسية إلى قسمين، فاضطر الجنرال مينو الذي كان قد خلف كليبر بعد مقتله في قيادة الحملة إلى التوقيع على معاهدة الجلاء عن مصر على ظهر السفن الإنكليزية.

٢ ـ أثر المتغيرات المحلية والدولية على الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام ١٨٠٢ ـ ١٨٢٧م:

أدت عملية انسحاب الحملة الفرنسية من مصر عام ١٨٠١م إلى إحداث نوع من التقارب بين فرنسة وانكلترة، انعكس بشكل سلبي على الدبلوماسية الروسية في المنطقة. وفي ٢٧ آذار عام ١٨٠٢م، تم التوقيع على معاهدة السلام الإنكليزية ـ

الفرنسية التي أنهت المرحلة الأولى من الحروب النابليونية. وقد تضمن البند الثامن من المعاهدة الحفاظ على أراضي وممتلكات وحقوق الباب العالي بما في ذلك مصر وبلاد الشام. في حين دعى البند رقم ١٩ من المعاهدة الدولة العثمانية للانضمام إلى المعاهدة. وبالفعل فقد وافق السلطان سليم الثالث على ذلك، ووقعت الدولة العثمانية مع فرنسة على معاهدة للسلام بينهما في ٢٥ حزيران عام ١٨٠٢م، تضمنت إقامة سلام بين الدولتين، وإحياء المعاهدات والامتيازات السابقة، والسماح للسفن الفرنسية بدخول مضائق البوسفور، والدردنيل، والملاحة في مياه البحر الأسود دون اعتراض[٨].

بهذا الشكل تكون فرنسة وانكلترة قد قطعتا الطريق على الدبلوماسية الروسية في المنطقة، والتي كانت قد نجحت كما رأينا، ووصلت إلى حدّ التوقيع على معاهدات تحالف مع الدولة العثمانية. وكانت عملية امتداد النفوذ الروسي إلى داخل الدولة العثمانية، واستغلال روسية القيصرية لحاجة الدولة العثمانية إلى الدعم العسكري والسياسي المباشر ضد فرنسة في مصر، وبلاد الشام نابعة من أهداف، وتطلعات روسية خاصة، وبالتالي كانت الأهداف والتطلعات الدبلوماسية الروسية أحد أهم الأسباب والدوافع التي كانت وراء التقارب الفرنسي ــ الإنكليزي، ثم التوقيع على الاتفاقات الإنكليزية ــ الفرنسية، والفرنسية ــ العثمانية عام ١٨٠٢م.

بالإضافة إلى ذلك يمكن القول: بأن اتفاقات السلام العثمانية ــ الفرنسية التي تضمنت كما ذكرنا، السماح للسفن الفرنسية بعبور المضائق، والملاحة في البحر الأسود شكلت رسالة تهديد لروسية القيصرية من خلال السماح للسفن التابعة للدول الكبرى بعبور المضائق والوصول إلى الشواطئ الروسية الجنوبية، وكان الهدف من ذلك إفهام الحكومة القيصرية بعدم السماح لها بالامتداد جنوباً، وزيادة نفوذها في الشرق العربي، الأمر الذي دفع روسية منذ ذلك التاريخ، إلى العمل على استغلال الأوضاع، والظروف الدولية، التي كانت تعيشها منطقة شرقي البحر المتوسط ومصر واليونان فيما بعد لتحسين وتكريس نفوذها في هذه المناطق قدر المستطاع.

في عام ١٨٠٥م، حُسِمَت مسألة الصراع على قمة السلطة في مصر، التي كانت قد بدأت مباشرة بعد انسحاب الحملة الفرنسية، وشكلت الدولة العثمانية من خلال الباشوات التي كانت ترسلهم إلى مصر، والمماليك المدّعمين من قبل الإنكليز، ومحمد علي الذي اعتمد على السكان المحليين، أطرافها الرئيسية لصالح محمد علي باشا. ومع وصول محمد علي إلى السلطة، بدأت مرحلة جديدة من تاريخ مصر والمنطقة العربية بشكل عام وتغيرت خلالها المعادلات السياسية، وتبدّلت وتقلّبت فيها مواقف الدول العظمى وفقاً للوضع الذي كانت فيه مصالحها، وظهرت الدبلوماسية الروسية في وضع غير مرضٍ على الإطلاق، الأمر الذي تطلب من سانت بطرس بورغ مضاعفة الجهود لدراسة أوضاع بلاد الشام من قبل العديد من البعثات الروحية وبعثات الرحالة الجغرافيين، وإعادة تقييم السياسات الروسية بناء على التقارير التي كانت تقدمها هذه البعثات إلى وزارة الخارجية الروسية في سانت بطرس بورغ.

وبدأت روسية القيصرية منذ عام ١٨١٥م تسعى إلى فرض سياساتها على الدولة العثمانية، بعد ما فشلت دبلوماسيتها في الشرق العربي بسبب المعارضة الإنكليزية الفرنسية، والتفاف الدولتين على السياسات الروسية بالتعاون مع الدولة العثمانية. وحاولت روسية تمرير دبلوماسيتها الجديدة مع الدولة العثمانية عن طريق استغلال الوضع المتفاقم في اليونان، وأقامت أول جمعية سرية يونانية أطلق عليها اسم جمعية الأصدقاء (فيليكيا هيتاريا)، أو جمعية هيتاريا العظمى التي اتخذت من موسكو مقراً لها، ووضعت هذه الجمعية لنفسها هدف إنقاذ الشعوب الهيلينية من الاحتلال العثماني، وإحياء الإمبراطورية الأرثوذكسية في الشرق. وقد تولى الجنرال هبسلنت وهو ضابط يوناني كان يعمل لدى القيصر الروسي ألكسندر الأول رئاسة الجمعية وطرح شعار ثورته المعروف (اليونان لليونانيين)[٩].

بعد بدء الثورة اليونانية في آذار عام ١٨٢١م في بحري إيجة والأدرياتيك وكريت وقبرص، وفشل القوات العثمانية في القضاء عليها وإلحاق الهزيمة بها، من قبل القائد

اليوناني الشهير تيودوركول كوثروتز الملقب بـ(آكل الأتراك)، كلّف السلطان العثماني محمود الثاني والي مصر محمد علي باشا بالقضاء على الثورة اليونانية على أن يعطيه حكم جزيرتي قبرص وكريت(١٠).

لبّى محمد علي باشا طلب السلطان العثماني، وأمر بتجهيز حملة عسكرية، تمكنت في حزيران عام ١٨٢٢م من القضاء على الثورة في كريت وقبرص وآل حكم كريت لمحمد علي باشا(١١).

في ١٦ كانون الثاني عام ١٨٢٤م، وبعد استفحال أمر الثورة اليونانية في شبه جزيرة المورة والتي شارك فيها الكثير من المتطوعين الروس والبلغار، وكتب لها الشاعر الروسي العظيم ألكسندر بوشكين القصائد الحماسية، كلّف السلطان محمود الثاني والي مصر محمد علي باشا مرة ثانية بالقضاء على الثورة، فأرسل حملة عسكرية بقيادة ابنه إبراهيم تمكنت من بسط سيطرتها على شبه الجزيرة بأكملها في حزيران عام ١٨٢٧م(١٢). خلال فترة استفحال أمر الثورة اليونانية حاول ميترنيخ النمسة المعارض الرئيسي لهذه الثورة، والذي كان يرى بأنها ستكون السبب المباشر في انتشار حركة العصيان وتفشيها وسط السكان السلاف من النمساويين، قطع الطريق على روسية القيصرية التي بدت عازمة على التدخل إلى جانب الثوار ضد محمد علي والسلطان العثماني، وذلك عن طريق إقحام الدول العظمى الأخرى في هذه الحرب، وخصوصاً فرنسة وانكلترة في وقت كانت فيه فرنسة وانكلترة، تتخوفان من تقوية وزيادة النفوذ الروسي في البلقان، والذي يمكن أن يتبعه امتداد النفوذ الروسي إلى الشرق كما حدث في مطلع القرن التاسع عشر كما رأينا.

من ناحية ثانية، حاولت روسية القيصرية الرد على الدبلوماسية النمساوية والالتفاف عليها، فأقدمت في ٤ نيسان عام ١٨٢٦م على التوقيع مع انكلترة على اتفاقية سانت بطرس بورغ، التي طالبت فيها الدولتان السلطان العثماني ومحمد علي

باشا بوقف الحرب في اليونان ضد الثوار، وإعطاء اليونان استقلالها ـ سرعان ما انضمت فرنسة إلى هذه الاتفاقية. غير أن الدولة العثمانية رفضت تلك المطالب مستغلة اعتمادها على قوة محمد علي باشا وصداقته مع فرنسة ورفض النمسة ومعارضتها القوية بسبب تخوفها من امتداد الثورة إلى داخل الأراضي النمساوية[١٣].

غير أن زيادة ضغوط الدول الغربية وخصوصاً فرنسة وانكلترة على الدولة العثمانية أدت إلى إقناعها بضرورة التفاوض مع روسية القيصرية ـ والتوقيع في ٧ تشرين الأول عام ١٨٢٦م على اتفاقية، اعترفت فيها بحق صربية، وملدافية، والأفلاق، بالاستقلال. وبذلك رسخت أقدام روسية في البلقان، وتعمّق نفوذها السياسي فيه إلى حدّ كبير[١٤].

في عام ١٨٢٧م، تقدمت روسية القيصرية بمشروع لحل المشكلة اليونانية وافقت عليه فرنسة وانكلترة من خلال اتفاق وقع بين ممثلي هذه الدول في لندن في تموز عام ١٨٢٧م، طالبت فيه السلطان العثماني بمنح اليونان الاستقلال التام، وأنذرته باستخدام القوة العسكرية ضده في حال رفضه ذلك. وتخوفت فرنسة وانكلترة من إمكانية التدخل العسكري الروسي المباشر في حرب اليونان، في وقت بدت فيه روسية عازمة على ذلك، ومن عواقب ازدياد النفوذ الروسي في البلقان والامتداد نحو الولايات العثمانية الأخرى في شرقي البحر المتوسط (بلاد الشام)، فسارعت إلى إرسال أساطيلها العسكرية إلى المياه اليونانية، ودخلت في معركة بحرية مع القوات المصرية والعثمانية في ميناء نفارين، انتهت بتدمير الأسطولين المصري والعثماني وانسحاب القوات المصرية من شبه جزيرة المورّة[١٥]. وفي لندن وبضغط من الدبلوماسية الروسية، وقعت فرنسة وانكلترة وروسية، على اتفاقية في شباط عام ١٨٣٠م طالبت فيها هذه الدول الدولة العثمانية بمنح اليونان الاستقلال التام الذي حصلت بموجبه اليونان يوم ٢٩ آب ١٨٣٠م على الاستقلال. وقد كتب إنجلز بهذا الخصوص ما يلي:"من قرّر مصير الصراع أثناء الثورة اليونانية؟ لا الباشا محمد علي ومؤامراته،

ولا المعركة البحرية في ميناء نفارين، ولا الجيش الفرنسي في المورّة، ولا اتفاقية لندن، والبروتوكول الملحق بها، بل إنما يعود الفضل في ذلك إلى الجيش الروسي الذي تجاوز البلقان، ووصل إلى أعماق ماريتسة(١٦).

وأخيراً فقد أدى الانتصار العسكري الروسي على الدولة العثمانية في حرب عام ١٨٢٧ ــ ١٨٢٩م، التي كان سببها المباشر الحرب في اليونان، ثم انتصار الدبلوماسية الروسية في اليونان، وحصول اليونان على استقلالها، إلى إعادة تقييم سانت بطرس بورغ لدبلوماسيتها في الشرق. وبدأت منذ ذلك الحين مرحلة جديدة في الدبلوماسية الروسية، قامت على أساس التوغل نحو الجنوب خصوصاً، وأن الأوضاع الدولية كانت في صالح روسية خلال تلك المرحلة كما سنرى.

٣ ـ الدبلوماسية الروسية أثناء حرب الشام الأولى ١٨٣١ ـ ١٨٣٣م:

ازداد اهتمام الدبلوماسية الروسية ببلاد الشام بشكل كبير خلال عامي ١٨٣١ ــ ١٨٣٢م، عندما قام محمد علي باشا بإرسال جيوشه والسيطرة على بلاد الشام بأكملها، حيث تمكنت هذه الجيوش من تحطيم القوة العسكرية للدولة العثمانية، وأصبحت القسطنطينية على وشك السقوط بيد القائد العسكري المصري الكبير إبراهيم باشا، في وقت لم تكن فيه الحكومة القيصرية في سانت بطرس بورغ راغبة على الإطلاق بامتلاك حدود مع دولة محمد علي باشا القوية في الشرق، التي وصل تعداد جيشها آنذاك إلى حوالي ٢٠٠ ألف جندي. ومنهم القيصر نيقولاي الأول، أن السلطان العثماني محمود الثاني لن يكون قادراً على مواجهة جيوش محمد علي عندما ستهاجم عاصمته، خصوصاً وأن انكلترة والنمسة رفضتا مساعدته والتدخل إلى جانبه. فسارع القيصر فور لجوء السلطان إليه طالباً المساعدة، إلى تلبية طلبه، وقام بإرسال مبعوثه الخاص الجنرال مورافيوف إلى القسطنطينية ثم إلى الإسكندرية في تشرين الأول علم ١٨٣٢م، بعد أن خوّله بصلاحيات تامة للتفاوض مع محمد علي باشا وتهديده بالتدخل

الروسي المباشر إلى جانب السلطان العثماني إذا وجد تعنتاً منه، أو إصرار أو حتى التفكير بالقضاء على الدولة العثمانية وإقامة دولة جديدة على أنقاضها(١٧).

عندما عبرت سفينة الجنرال الروسي مورافيوف المضائق حاملاً رد القيصر الإيجابي على طلب السلطان العثماني بالتدخل العسكري إلى جانبه، سارعت انكلترة وفرنسة إلى إرسال أساطيلها البحرية إلى شواطئ بلاد الشام تخوفاً من ازدياد الخطر الروسي من خلال التدخل العسكري المباشر في حرب بلاد الشام، لكن السلطان كان قد خسر المعركة الأخيرة في قونية، فتوجه في ٢ شباط ١٨٣٣م إلى السفير الروسي في القسطنطينية بوتنينيف وطلب منه إبلاغ القيصر بضرورة إرسال الأسطول العسكري الروسي في البحر الأسود، وفيلق مشاة مكون من ٢٥ ـــ ٣٠ ألف جندي لحماية عاصمة الدولة العثمانية المهددة(١٨).

في محاولة منه لإنقاذ الدولة العثمانية من الوضع الخطير الذي أصبحت فيه، أسرع الجنرال مورافيوف بالتوجه إلى الإسكندرية حاملاً اقتراحاً إلى محمد علي باشا ينص على تنازل السلطان عن جنوب بلاد الشام (فلسطين) لمحمد علي. غير أن الباشا رفض عرض مورافيوف وبدأ يستعد للإبحار مع أسطوله إلى القسطنطينية لملاقاة ابنه إبراهيم. لكن الجنرال مورافيوف نجح أخيراً بإقناع محمد علي باشا بقبول التفاوض مع السلطان العثماني، بعد أن هدده بأنه سيجد القوات الروسية في وجهه إذا فكر بالهجوم على القسطنطينية(١٩). وبالفعل فقد دخلت القوات الروسية المضائق بقيادة العميد كوماني في ٨ شباط ١٨٣٣م، ونزلت على البر الآسيوي في وادي هنكاراسكله سي مقابل السفارة الفرنسية في القسطنطينية. عندها حاولت فرنسة عن طريق سفيرها الجديد الأدميرال روسان إقناع الباب العالي برفض المساعدة العسكرية الروسية وهدد روسان بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الدولة العثمانية في حال رفضها ذلك، وتعهد مقابل هذا بإقناع محمد علي باشا بالشروط التي يعرضها خليل باشا مبعوث السلطان العثماني إلى الإسكندرية. لكن روسية تابعت إرسال قواتها العسكرية إلى القسطنطينية

خلال شهري آذار ونيسان ١٨٣٣م، حيث تسلم الجنرال مورافيوف قيادتها العامة بعد عودته من مصر، في حين تولى الأميرال لازاريوف قيادة الأسطول. وفي أيار ١٨٣٣م، وصل الجنرال الباور كونت أرلوف، وتسلم قيادة البحرية والمشاة، وأوكلت إليه مهمة قيادة القوات الروسية، وأُعطي صلاحيات فوق العادة[٢٠].

وفهم محمد علي باشا أبعاد اللعبة الروسية وأدرك خطورة وجود جيش روسي على البر الآسيوي، وصل تعداده إلى ٣٢ ألف جندي، فدخل في مفاوضات مع مبعوث السلطان العثماني انتهت بالتوقيع على اتفاقية كوتاهية في ١٤ أيار ١٨٣٣م، اعترف بها السلطان العثماني بحكم محمد علي باشا لمصر والجزيرة العربية وكريت، ووضعت بلاد الشام وأضنة تحت حكم ابنه إبراهيم باشا. وبذلك تكون الدبلوماسية الروسية قد نجحت في إنقاذ الدولة العثمانية من السقوط في اللحظة الأخيرة تحت ضربات جيوش إبراهيم باشا[٢١]. وكان العامل المحرك لهذا السياسة هو سعي روسية إلى زيادة وتعميق نفوذها في الشرق، بعد النجاحات الكبيرة التي حققتها في البلقان وتحقيق أكبر قدر ممكن من التسهيلات والإمتيازات في منطقة المضائق، وتحجيم النفوذ الفرنسي في بلاد الشام، خصوصاً وأن فرنسة كانت تؤيد سياسات محمد علي باشا، وكذلك قطع الطريق على انكلترة التي كانت تسعى إلى تعميق نفوذها في بلاد الشام عن طريق سياسة التقارب والتعاون التي كانت تتبعها مع الدولة العثمانية، خصوصاً وأن الدوائر السياسية الإنكليزية آنذاك، لم تكن تخفي نواياها في استخدام شمال بلاد الشام كقاعدة للوصول إلى منطقة ما وراء القفقاس الروسية.

ولم تنسحب القوات الروسية من منطقة المضائق إلا بعد أن تمكنت الدبلوماسية الروسية من التوقيع على معاهدة دفاعية هجومية مع الدولة العثمانية في ٨ تموز عام ١٨٣٣م، أصبحت تعرف باسم معاهدة هنكاراسكله سي، وأهم ما تضمنته التزام روسية والدولة العثمانية بانتهاج سياسة متوافقة وتقديم المساعدة المتبادلة عندما تدعو الضرورة إلى ذلك، من أجل ضمان الأمن والهدوء والاستقرار التام، وتعهدت روسية

القيصرية، بموجب نص المعاهدة بأن تقدّم للدولة العثمانية في صراعها ضدّ أعدائها المساعدات وكافة أشكال الدعم العسكري والسياسي، كما نصت المعاهدة أيضاً على بند سرّي أعفت بموجبه روسية الدولة العثمانية من تقديم المساعدات العسكرية لروسية، وعوضاً عن ذلك كان عليها إغلاق مضائق البوسفور والدردنيل في وجه السفن الحربية الأجنبية بناء على طلب روسية، وبذلك أصبحت روسية القيصرية وبموجب هذه المعاهدة الحامية الرئيسية للدولة العثمانية خلال هذه الفترة[٢٢].

في هذه الأثناء، قامت وزارة الخارجية الروسية بإلحاق القناصل الروس وجميع العاملين في القنصليات الروسية في بلاد الشام (سورية ــ فلسطين ــ لبنان) بالقنصلية الروسية في الإسكندرية التي كان يديرها القنصل العام الغراف ميدم، وظل الوضع كذلك حتى بداية الحرب الثانية في بلاد الشام عام ١٨٣٩م كما سنرى[٢٣].

بعد التوقيع على معاهدة هنكارأسكله سي بثلاثة أيام، غادرت القوات الروسية منطقة المضائق عائدة إلى روسية، وبدأت الدبلوماسية الروسية تسعى إلى تعزيز موقفها وتكريس اتفاقية هنكارأسكله سي. وقد تمكنت آنذاك من التوقيع على اتفاقية مونتشنغراتز مع النمسة في ٨ أيلول عام ١٨٣٣م التي تضمنت تعهد الدولتين بالتنسيق والعمل المشترك لحل المسألة الشرقية، بالرغم من أن ميترنيخ النمسة لم يعطِ أهمية للمعاهدة بنفس القدر الذي أعطاه القيصر الروسي نيقولاي الأول، وفضّل جعلها عامة وسرّية وبديلة عن معاهدة هنكارأسكله سي السالفة الذكر. وقد تضمنت البنود السرية في معاهدة مونتشنغراتز منع محمد علي باشا وبشكل مباشر من الامتداد نحو الولايات التابعة للدولة العثمانية[٢٤].

حاول محمد علي باشا من جانبه الالتفاف على السياسات الروسية المعادية له في بلاد الشام وضربها بالسياسات الأوروبية في المنطقة، واقترح في عام ١٨٣٤م على النمسة وفرنسة فصل المقاطعات العربية بشكل نهائي عن الدولة العثمانية، وإعلان

الاستقلال في مصر وبلاد الشام والحجاز، وتشكيل دولة عربية واحدة، وإعلان الحرب على روسية القيصرية لإلغاء معاهدة هنكارأسكله سي، غير أن الدول الكبرى هذه رفضت اقتراحه.

٤ ـ اهتمام الدبلوماسية الروسية في بلاد الشام ودراسة أوضاعها من قبل ضباط هيئة أركان الجيش الروسي:

يعود تاريخ تأسيس هيئة الأركان العامة الروسية إلى عام ١٧٦٣م، وكانت مهمتها الأساسية دراسة مسرح الأعمال العسكرية، وإعداد طرائق تحرك القوات، والخرائط والخطط العسكرية. ولم تكن هيئة الأركان آنذاك الهيئة العسكرية العليا في البلاد، وكانت تقود أيضاً مجموعة من أصناف القوات خلال الحرب، وكان أعضاؤها من كبار الضباط الذين كانوا ينضمون إلى القطع العسكرية المحاربة من أجل القيام ببعض الأعمال العلمية والعسكرية.

في عام ١٧٩٦م، قام القيصر الروسي بافل الأول بإلغاء هيئة الأركان العامة، وأقام عوضاً عنها هيئة مستشاري القيصر الأعظم العسكرية، والتي أصبحت تعرف باسم هيئة الحاشية، واستمرت حتى عهد القيصر نيقولاي الأول، الذي قام بإلغائها وأعاد تأسيس هيئة الأركان العامة قبيل الدخول مع الدولة العثمانية في حرب عام ١٨٢٧ ـ ١٨٢٩م. فقد اتخذت الحرب في الشرق وعملية التحضير لها أهمية خاصة لدى القيصر نفسه، وكان على هيئة الأركان العامة الروسية الجديدة أن تحصل على كافة المعلومات المتعلقة بشعوب بلاد الشام، والتحولات التي طرأت عليها، ومعرفة حضارتها وأوضاعها الاقتصادية، وعادات وتقاليد وطباع سكانها، الأمر الذي تطلب من ضباط هيئة الأركان هذه تعلم اللغة العربية ولغات الشرق الأخرى بشكل جيد. وفي سبيل ذلك، بدأت هيئة الأركان بإرسال البعثات الاستكشافية الروسية من الضباط بصورة رحّالة، وجغرافيين وكانت مهمتهم الأساسية القيام بأعمال تجسسية، وجمع

كافة المعلومات الهامة والإستراتيجية عن بلاد الشام ومصر. ومنذ ذلك التاريخ تمّ تشكيل ثم تطوير ما أصبح يعرف باسم الاستشراق العسكري الروسي.

قبل بداية ثلاثينات القرن التاسع عشر، كانت مهمة ضباط هيئة الأركان الروسية منصبّة بالدرجة الأولى على دراسة بلاد فارس والأراضي العثمانية المتاخمة لحدود روسية الجنوبية، غير أن الهيئة وسعت من نشاطاتها وأبحاثها ودراساتها العسكرية والإستراتيجية بعد حرب ١٨٢٧ ـ ١٨٢٩م مع الدولة العثمانية، لتشمل أواسط آسية، وبلاد الشام بأكملها ومصر.

بدأت عمليات التجسس الروسية في المنطقة بشكل عملي عندما عينت هيئة الأركان الروسية العقيد ديوغاميل ـ وكان نفسه عضو في هيئة الأركان ـ في كانون الأول عام ١٨٣٢م نائباً للجنرال مورافيوف، أثناء تكليفه بمهمة التوسط بين السلطان العثماني، ومحمد علي باشا، وكلفت هيئة الأركان العقيد ديوغاميل أثناء توجهه من ميناء أوديسة على شواطئ البحر الأسود الروسية إلى القسطنطينية بجمع معلومات كافية عن وضع الحصون والقلاع العثمانية، والإجراءات التي اتخذتها الدولة العثمانية لإعادة بنائها بعد انتهاء الحرب مع روسية في عام ١٨٢٩م. وبالفعل فقد تمكن ديوغاميل من جمع معلومات قيمّة جداً عن وضع القوات البرية والبحرية العثمانية ساعدت الدبلوماسية الروسية إلى حد كبير في تقدير خطورة الوضع أثناء حرب الشام الأولى، واتخاذ الإجراءات العسكرية الروسية السريعة لإنقاذ القسطنطينية من هجوم تقوم به جيوش محمد علي باشا والتي كانت احتمالات نجاحها مؤكدة[٢٥].

واستغلت الدبلوماسية الروسية البند الأخير في معاهدة هنكار أسكله سي المتضمن: "أن تكون بلاد الشام مسرح العمليات العسكرية في حال وقوع حرب جديدة بين السلطان العثماني ومحمد علي باشا"[٢٦].

وطرحت الحكومة القيصرية على هيئة الأركان الروسية العامة مسألة دراسة بلاد الشام كمنطقة مرشحة للتحول إلى مسرح للعمليات العسكرية في المستقبل القريب. في

وقت هدأت فيه الأوضاع نسبياً في بلاد الشام، وراح محمد علي باشا يعمل على توطيد دعائم حكمه فيها.

كلفت هيئة الأركان الروسية في اب عام ١٨٣٣ الجنرال مورافيوف بتنفيذ هذه المهمة. عندها كلّف مورافيوف بدوره نائبه العقيد ديوغاميل بمهمة تجسسية في بلاد الشام ومصر، وأمره بالتوجه إلى الإسكندرية عن طريق البر، وكان عليه أن يعرف تركيبة وتعداد وتسليح جيش محمد علي باشا في بلاد الشام، والاطلاع على الحالة النفسية للسكان العرب، ومدى تأييدهم لحكم محمد علي باشا وتقديم دراسة وافية عن الجيش في مصر نفسها، وكان على الجنرال مورافيوف تأمين حماية ديوغاميل وتأمين الغطاء والحصانة الدبلوماسية اللازمة له عند الضرورة(٢٧).

خلال جولته في بلاد الشام ومصر، تمكن العقيد ديوغاميل من جمع المعلومات المطلوبة وأرسلها في تقرير مفصّل إلى وزير الدفاع الروسي في سانت بطرس بورغ، دون العودة إلى الجنرال مورافيوف. وبعد الإطلاع على هذا التقرير، تبيّن لوزارة الدفاع أن مهمته لم تكن في المستوى المطلوب، على الرغم من حب ديوغاميل للعمل، وحنكته ومستوى ثقافته الكبير. والسبب في ذلك عائد إلى عدم تمكنه من كسب ثقة السكان، التي تُعَدُّ شرطاً ضرورياً للحصول على المعلومات التي كلف بجمعها خلال تنفيذ مهمته التجسسية. بالإضافة إلى أن هذه المهمة كانت تتطلب جهداً عضلياً شاقاً، وتحملاً يفوق الحدود وكسب قلوب أبناء شعب الشرق العربي، الذي لم يعد يثق بالأجانب، ويرتاب من أي سؤال يطرح عليه، أو حتى من أي وجود للأجانب على هذه الأرض في تلك الفترة. وفي نهاية عام ١٨٣٣م قطع ديوغاميل مهمته في بلاد الشام ومصر واضطر للعودة إلى روسية.

من جهة أخرى، كانت قوات الإنزال البحرية الروسية قد تركت أثناء انسحابها من منطقة المضائق، بعد التوقيع على اتفاقية هنكارأسكله سي بعض المجموعات من

الضباط الروس في القسطنطينية، كلفتهم هيئة الأركان الروسية العامة بالقيام برحلات استطلاعية بصفة رحالة وكشافين جغرافيين، والتوغل عبر أنطالية إلى بلاد الشام، وجمع المعلومات العسكرية الهامة عن المنطقة، حيث تمّ تكليف العقيد لفوف بهذه المهمة. وقد تمكن هذا الضابط من دراسة كاملة لسورية وفلسطين وأنطالية، ومناطق ديار بكر، ثم قدم تقريراً مفصلاً إلى هيئة الأركان العامة الروسية، التي قامت بدورها بدراسته(٢٨). وفي عام ١٨٣٨، أرسلت هيئة الأركان النقيب دابنيزي في مهمة تجسسية أخرى إلى بلاد الشام، قدّم بعدها تقريراً خاصاً عن الأوضاع بشكل عام في بلاد الشام. غير أن المهمة الأهم والأنجح كانت مهمة العقيد لفوف. وفي أرشيف هيئة الأركان العسكرية الروسية العامة لعام ١٨٤٣م، يوجد مختصر التقرير الذي كان لفوف قد قدّمه عن مشاهداته، والمعلومات التي حصل عليها خلال مهمته السالفة الذكر في بلاد الشام، وتُعَدُّ اقتراحاته المتعلقة بالطريقة التي يمكن فيها للقوات الروسية القيام بعمل عسكري لطرد القوات المصرية من بلاد الشام، من أهم ما تضمنه ملخص تقريره هذا. وفيما يلي نص هذه المقترحات: "من الممكن القيام بعمليات عسكرية ضد سورية من جهة الشمال عن طريق أنطالية، أو من جهة الشرق عن طريق بغداد، أو من جهة الغرب عن طريق إنزال القوات العسكرية الروسية على الشواطئ السورية".

ولخص لفوف كيفية تنفيذ هذه الاحتمالات الثلاثة على الشكل التالي:

أ- احتمال تنفيذ هجوم على القوات المصرية في بلاد الشام عن طريق أنطالية، لقطع الطريق على هذه القوات لأن أنطالية تشكل المنطقة الهامة التي يمكن عن طريقها إمداد القوات المصرية بالمؤن والعتاد اللازم عن طريق البحر المتوسط، وفي حال نجاح القوات الروسية بالتعاون مع القوات العثمانية في السيطرة على أنطالية، يمكن للقوات الروسية أن تؤمن طريق الإمدادات اللازمة لها بالاعتماد على الأسطول الروسي عن طريق البحر الأبيض المتوسط. لكن تنفيذ مثل هذه الخطة سيكون صعباً للغاية ومكلفاً جداً، نظراً

لكثافة تواجد القوات المصرية في المنطقة وسيطرتها على مواقع عسكرية استراتيجية، تمكنها من اعتماد خطة دفاعية، يمكن أن تحول دون تحقيق نصر عسكري روسي عثماني على هذه القوات.

ب- الهجوم من جهة بغداد، وأعالي نهر الفرات، وذلك بالالتفاف على القوات المصرية المتواجدة بكثافة في شمال بلاد الشام، وخصوصاً في منطقة جبال طوروس وممراتها. ويمكن الاعتماد من خلال تنفيذ خطة الهجوم عن طريق بغداد على القوات المحلية والبدو وذلك بمهاجمة الجيش المصري من الشرق، لكن الوضع يتغير وينعكس سلباً على القوات العثمانية التي ستشارك روسية في هجومها، في حال وقوف البدو إلى جانب محمد علي باشا. يضاف إلى ذلك إنه لا يوجد هناك أية طريقة لإمداد هذه القوات بالمؤن اللازمة إلا بالاعتماد على السكان المحليين، لذلك فإن الهجوم عن طريق ولاية بغداد ممكن في حالة واحدة فقط، بحيث يكون هجوماً محدوداً تشارك فيه بعض القوات العثمانية لتقديم المساعدة للقوات الروسية التي ستهاجم بلاد الشام عن طريق جهة أخرى، والتنسيق الكامل مع قيادة الهجوم الرئيسية والاتفاق معها على تنفيذ خطة هجومية واحدة.

ج- الهجوم من جهة البحر: ويتم بإنزال القوات البحرية الروسية الخاصة على شواطئ سورية وفلسطين، على أن يسبق الإنزال عمليات قصف تمهيدية واسعة النطاق لتدمير التحصينات العسكرية التي أقيمت على هذه الشواطئ. لكن ومع ذلك، يجب اتخاذ كامل الاحتياطات العسكرية أثناء عملية إنزال القوات بسبب وجود تحصينات عسكرية أخرى منيعة في الجبال الغربية القريبة من الشواطئ، حيث تشكل هذه الجبال موقعاً دفاعياً متميزاً ضد أية عملية تهدف إلى التوغل نحو الداخل. بالإضافة إلى ذلك كله، فإن الإنزال

البحري يتطلب تأمين المؤن والإمدادات اللازمة للقوات بشكل مستمر عن طريق البحر، وتحقيق ذلك يتطلب إعداد وتجهيز أعداد كبيرة من سفن الشحن والنقل الروسية.

كما تضمن تقرير لفوف هذا في الخاتمة تصوراته الخاصة عن إمكانية سيطرة القوات الروسية على سورية، في ظل كافة الاحتمالات المتوقعة. وأهم ما ورد في هذه الخاتمة ما يلي: "من الممكن السيطرة على كامل سورية خلال سبعة أو ثمانية أشهر، في حال موافقة السكان المحليين وتعاونهم مع القوات الروسية، وفي حال رفضهم ومقاومتهم ووقوفهم إلى جانب الجيش المصري، فإن الوضع سيتطلب وجود جيش روسي قوي وقادر على مواجهة الجيش المصري والسكان المحليين في آن واحد، وهذا يحتاج إلى فترة زمنية طويلة، وتكتيك حذر وسيكلف روسية خسائر مادية وبشرية هائلة. لذلك فإنه من الأفضل لنا التعاون مع بقية الدول العظمى الأخرى في هذه المسألة البالغة التعقيد"[٢٨].

مع تطورات الأحداث في بلاد الشام بشكل سريع خلال عام ١٨٣٨ وبداية عام ١٨٣٩م، أرسلت هيئة الأركان الروسية مجموعات من بعثات الاستطلاع والتجسس إلى بلاد الشام، جمعت معلومات سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية، ومعلومات أخرى عن كامل الولايات السورية، في حين تمكنت مجموعات استطلاع خاصة من الإطلاع على الحالة النفسية للسكان المحليين وموقفهم من حكم محمد علي باشا، ومدى إمكانية وقوفهم إلى جانبه أو إلى جانب السلطان العثماني والدول العظمى، وأوضاع طرق المواصلات والقلاع والحصون. لكن أهم ما حصلت عليه القيادة العسكرية الروسية آنذاك، كان ما يتعلق بوضع القوات العسكرية المصرية في بلاد الشام، والطرق الملاحية وفاعلية وتأثير الجمعيات والمؤسسات الدينية في هذه البلاد.

٥ ـ الدبلوماسية الروسية أثناء حرب الشام الثانية ١٨٣٩ ـ ١٨٤١:

قبل البدء بدراسة الدبلوماسية الروسية في هذه الفترة، لا بد من الإشارة إلى أن المرحلة الممتدة بين عامي ١٨٣٤ ـ ١٨٣٨م كانت قد شهدت نشاطات دبلوماسية بين القاهرة والقسطنطينية، حاول خلالها محمد علي باشا تثبيت شروط معاهدة كوتاهية الهشّة مع الدولة العثمانية، خصوصاً وأنه كان يفهم أكثر من غيره أن هذه المعاهدة لا تشكل أكثر من هدنة، يمكن أن تنتهي في أي وقت باستعادة ما أخذه بالقوة من أراضٍ، كان السلطان العثماني يعدّها جزءاً هاماً من امبراطوريته. أدى فشل المساعي الدبلوماسية بين محمد علي والسلطان العثماني إلى تغيير في التكتيك المصري في تعامله مع الأحداث. وبدأ محمد علي باشا ببناء التحصينات العسكرية القوية في أودية طوروس بإشراف مهندسين فرنسيين، ونصب فيها ٢٥٠ مدفعاً، وكلفته ملايين القروش، كما أمر ابنه إبراهيم بتحصين الثغور البحرية على امتداد شواطئ بلاد الشام وخصوصاً إعادة تحصين قلعة عكا الشهيرة استعداداً لحرب وشيكة الوقوع مع الدولة العثمانية، دعت إليها جملة من المتغيرات في المواقف الدولية، لم تكن في محصلتها في صالح محمد علي باشا[٢٩].

في عام ١٨٣٨م، كان السلطان العثماني محمود الثاني قد تمكن من القضاء على ثورة الأكراد في شرق الأناضول، وأجبر القبائل الجبلية على الخضوع للتجنيد الإلزامي، وانتهى من إعادة بناء جيش قوي، وبنى أسطولاً حربياً قوياً بإشراف الكابتن الإنكليزي ووكر بودين، مستشار قبودان باشا الذي تولى بنفسه مهمة تأمين السلاح اللازم لتسليح هذه الأسطول[٣٠]. وسارعت الدبلوماسية الروسية إلى الإعلان عن عزمها على مساعدة السلطان العثماني ضدّ محمد علي بالتعاون مع الدول العظمى، بعد أن تبين لها من خلال التقارير التي قدمها جواسيسها في الشرق، عجزها عن القيام بمفردها بعمل عسكري ضد محمد علي في بلاد الشام، فاتفقت مع انكلترة على ذلك

في حين قام الإنكليز بتسليح الجيش العثماني والأسطول البحري بأحدث الأسلحة استعداداً للمعركة القادمة.

من جانبها قامت الدولة العثمانية بتنفيذ خطة عسكرية اعتمدت على تجنب الاشتباك مع القوات المصرية في شمال غرب بلاد الشام وأودية طوروس المحصنة بناء على نصيحة تقدمت بها الحكومة الروسية، وقامت الخطة على أن تلتفّ القوات العثمانية على الجيوش المصرية عن طريق ديار بكر، والنزول باتجاه الفرات ومهاجمة مدينة حلب. ونزلت القوات العثمانية بقيادة حافظ باشا على الضفة اليسرى لنهر الفرات وتحصنت في بيرجك، ثم عبرت النهر وتحصنت في نزيب.

وفهم محمد علي باشا من خلال البيانات الحازمة التي بدأت تصدر عن الدول العظمى، أنه لم يعد باستطاعته التحكم بأمور الشرق بالشكل الذي يريد كما كان عليه الوضع عام ١٨٣٢ ــ ١٨٣٣م. فاصدر أوامره إلى ابنه إبراهيم بالاكتفاء بمهاجمة القوات العثمانية، والسيطرة على المناطق المتاخمة لحدود بلاد الشام خوفاً من لجوء روسية إلى تطبيق معاهدة هنكارأسكله سي، وظهور الأسطول الروسي مرّة ثانية في منطقة المضائق[٣١]. وفي نزيب تمكنت القوات المصرية من تحطيم الجيش العثماني، واندفعت البقية الباقية منه نحو ملاطية وأنقرة، في حين اندفع إبراهيم باشا نحو مرعش عملاً بنصيحة فرنسة التي طلبت منه أن لا يعبر جبال طوروس. من ناحية أخرى، تمكن لالاند قائد الأسطول الفرنسي الذي كان يجوب البحر المتوسط عند تيبفوس، من إقناع قبودان باشا قائد الأسطول العثماني وهو في طريقه إلى بلاد الشام بالإبحار إلى الإسكندرية وتسليم الأسطول لمحمد علي باشا.

وتخوفت الدول العظمى وخصوصاً روسية القيصرية من الانتصار الساحق الذي حققه محمد علي باشا على الدولة العثمانية، وفهمت أن مضائق البوسفور والدردنيل أصبحت مهددة مرة أخرى، ويمكن أن تقع في القبضة الحديدية للشيخ الهرم، والذي

سيضع بذلك نهاية للتدخل العسكري الروسي. ونشطت الدبلوماسية الروسية في أوروبة بشكل كبير للحيلولة دون قيام دولة قوية على حدودها الجنوبية، يمكن أن تشكل مصدر خطر حقيقي على أطماعها التوسعية نحو الجنوب والبلقان، وتعيد فتح صفحات جديدة من تاريخ الصراع المرير الذي عاشته روسية مع الدولة العثمانية، عندما كانت الأخيرة في أوج عظمتها وقوتها.

من جهة ثانية، بدأت الدول الأوروبية العظمى الأخرى تتخوف بشكل حقيقي من إمكانية انتهاج روسية سياسة مشابهة للسياسة التي اتبعتها عام ١٨٣٣م، وتعمد إلى إنزال القوات العسكرية في منطقة المضائق، مطبقة نصوص معاهدة هنكارأسكله سي. فسارعت تلك الدول إلى تبادل التأكيدات فيما بينها بالحفاظ على الدولة العثمانية، حتى لو تطلب ذلك استخدام القوة العسكرية ضد محمد علي باشا في بلاد الشام. وكانت هذه أيضاً إشارة واضحة إلى وقوف هذه الدول في وجه روسية القيصرية، إذا فكرت في استخدام القوة العسكرية، والنزول ثانية في منطقة المضائق، وضد محمد علي إذا فكر بمتابعة هجومه نحو القسطنطينية، وبإيحاء من ميترنيخ النمسة، للحيلولة دون وقوع تدخل أحادي الجانب من قبل روسية، ولإجبار فرنسة على التنسيق مع بقية الدول الأوروبية الأخرى، أرسلت خمس دول أوروبية (انكلترة، روسية، بروسية، النمسة، فرنسة) مذكرة إلى الباب العالي في ٢٧ تموز عام ١٨٣٩م، تطلب فيها من السلطان العثماني أن لا يتخذ أية تدابير حاسمة أو يجري مفاوضات مع محمد علي باشا دون العودة إلى هذه الدول[٣٢].

في هذه الأثناء، كان الأسطولان الفرنسي والإنكليزي يقفان أمام شواطئ الدردنيل، ويلحّان على ضرورة الدخول إلى القسطنطينية وذلك للحيلولة دون إنزال قوات الأسطول الروسي فيها. وبالفعل فإن تواجد هذين الأسطولين دفع روسية إلى العدول عن التفكير بالتدخل وتطبيق معاهدة هنكارأسكله سي، وبعد أن فهمت الحكومة الروسية أن تدخلها العسكري سيجرها إلى مواجهة عسكرية مع الدول الأوروبية

الأخرى. خصوصاً وأنها كانت قد فهمت جيداً بأن الظروف الدولية تختلف إلى حد كبير عن مثيلاتها عام ١٨٣٢ ــ ١٨٣٣م.

لكن إبراهيم باشا أيضاً كان قد توقف هذه المرة على بعد أيام من القسطنطينية، وبالتالي قطع الطريق على الدول الأوروبية العظمى من جهة، وروسية القيصرية من جهة أخرى، في إيجاد المبررات اللازمة للتدخل العسكري المباشر في القسطنطينية نفسها، ووضع الدول الأوروبية في موقف محرج للغاية. فسارعت الدبلوماسية الإنكليزية بزعامة بالمرستون وزير الخارجية آنذاك، إلى وضع مشروع لحل سلمي للمسألة السورية، طُرح على الدول الأوروبية الأخرى، وهذا المشروع يقوم على إعطاء محمد علي باشا حق الحكم الوراثي في مصر، بالإضافة إلى جنوب سورية (فلسطين) مدى الحياة. غير أن محمد علي رفض المشروع الإنكليزي بدعم وتحريض فرنسة، فدعت انكلترة الدول الأوروبية العظمى لعقد مؤتمر للبحث في طرائق حل المسألة السورية، بالشكل الذي يخدم مصالحها وتطلعاتها الاستعمارية[٣٣].

في ربيع عام ١٨٤٠م، بدأت المحادثات بين مبعوثي روسية وانكلترة وبروسية والنمسة وفرنسة في لندن، في وقت بدأت فيه عملية تحريض واسعة النطاق للسكان المحليين في بلاد الشام للثورة ضد حكم محمد علي باشا، وجرت عملية توزيع السلاح على السكان المحليين خصوصاً في سواحل لبنان، وانتشرت شائعات تفيد بأن روسية القيصرية أرسلت فيلقاً عسكرياً مؤلفاً من ٥٠ ألف جندي يعبر أرض روم لطرد القوات المصرية من بلاد الشام. وفي ١٥حزيران عام ١٨٤٠م، وقعت روسية والنمسة وبروسية وانكلترة والدولة العثمانية على معاهدة لندن الشهيرة، التي نصت على أن تقوم أساطيلها العسكرية باحتلال منطقة المضائق والنزول في القسطنطينية بحجة تخوفها من مهاجمة قوات إبراهيم باشا لها، في وقت كان فيه فيلق من الجيش الروسي جاهزاً للتوجه من أوديسة وسيباستوبل لمواجهة جيش إبراهيم باشا في بلاد الشام[٣٤].

وكان همّ انكلترة الأعظم، تجنب مشاركة روسية العسكرية في المنطقة، فتولت بنفسها مسؤولية قيادة عملية عسكرية أنزلت خلالها القوات البحرية الإنكليزية والنمساوية بالإضافة إلى قوات الدولة العثمانية على شواطئ بلاد الشام في بيروت وصور وصيدا. عندها فضّل محمد علي عدم مواجهة الدول العظمى التي اتفقت حول مسألة القضاء على دولته، وأصدر الأوامر إلى ابنه إبراهيم بتجميع قواته في دمشق، والانسحاب إلى مصر(٣٥).

بعد القضاء على آمال محمد علي باشا في بلاد الشام، أصبحت المهمة الأساسية للدبلوماسية الإنكليزية في الشرق تحجيم النفوذ الروسي في الدولة العثمانية. فدعت انكلترة الدول العظمى إلى عقد اجتماع لها في لندن، وعقد اتفاقية حول المضائق شاركت فيه انكلترة وروسية القيصرية والدولة العثمانية ومحمد علي باشا، وجاء مضمون الاتفاق موجهاً ضد روسية القيصرية، حيث حرّم على القوات الأجنبية عبور منطقة المضائق خلال أوقات السلم، وحصر مسألة السماح لهذه القوات بالعبور خلال أوقات الحرب بالسلطان العثماني(٣٦). وبذلك فقدت روسية إمكانية حل مشكلة الأمن على حدودها الجنوبية بمفردها، وخسرت كافة الامتيازات التي كانت قد حصلت عليها بموجب اتفاقية هنكار أسكله سي، في وقت ازداد فيه النفوذ الإنكليزي في الدولة العثمانية، وفي بلاد الشام إلى حد كبير.

كان القيصر الروسي نيقولاي الأول قد وضع في حساباته أثناء موافقته على اتفاقية المضائق في لندن، أن انكلترة ستوافق مقابل ذلك على عقد اتفاقية ثنائية مع روسية وانكلترة حصراً. غير أن الحكومة الإنكليزية ناقشت مضمون أفكار القيصر ومقترحاته في لقاءات غير رسمية عديدة مع الجانب الروسي، ورفضت أخيراً هذه الاقتراحات، خوفاً من ازدياد النفوذ الروسي في بلاد الشام، واحتلال عاصمة الدولة العثمانية.

٦ ـ الدبلوماسية الروسية في بلاد الشام خلال الحرب الأهلية اللبنانية (١٨٤١ ـ ١٨٤٥):

انعكست دبلوماسية سانت بطرس بورغ الفاشلة على دبلوماسيتها في بلاد الشام خلال المرحلة اللاحقة، واقتصر النشاط الدبلوماسي الروسي في المنطقة فقط على جمع المعلومات الاقتصادية، والسياسية الهامة، التي جمعت بشكل بطيء عن المنطقة خلال فترة الهدوء التي سادتها. لكن المنطقة عرفت مجموعة من الدبلوماسيين الروس الناشطين كان أهمهم وأفضلهم القنصل الروسي العام في بيروت وفلسطين قسطنطين ميخائيلوفتش بازيلي(٣٧).

بدأ بازيلي نشاطه الدبلوماسي في بلاد الشام عندما عيّن في عام ١٨٣٨م قنصلاً لروسية في يافا، وذلك بعد أن أعادت روسية فتح قنصلياتها في بلاد الشام، قبيل حرب الشام الثانية. وطُلِب من بازيلي التعرف على القنصل الروسي العام في الاسكندرية الغراف ميدم والعمل بأمرته. وخلال فترة وجوده في الاسكندرية توصل الى حل يقضي بفتح قنصلية روسية جديدة في بلاد الشام، وتقرر نقل مقرها من يافا إلى بيروت، التي كانت تُعَدُّ في ذلك الحين المركز التجاري والسياسي لبلاد الشام، ومركزاً لتواجد القنصليات الأوروبية(٣٨).

في العشرين من تشرين الثاني عام ١٨٣٩م، وصل بازيلي إلى بيروت وتسلم مهامه كقنصل عام في بيروت وفلسطين، وفي عام ١٨٤٣م قامت وزارة الخارجية الروسية بتحويل قنصلية بيروت إلى قنصلية مركزية في بلاد الشام، واصبح بازيلي القنصل العام فيها.

نتج عن عملية انتقال القنصليه الروسية إلى بيروت وجعلها قنصلية مركزية افتتاح عهد جديد في السياسة الروسية في بلاد الشام، كانت المهمة الأساسية فيه السعي لإعادة تنشيط الدبلوماسية الروسية، بعد الضربة التي وجهت لها من قبل انكلترة، كما

رأينا خلال عام ١٨٤١م، وكلفت وزارة الخارجية الروسية. القنصل العام بازيلي بإنشاء مراكز للحجاج الروس إلى بيت المقدس، وأوكلت إليه مهمة حماية هؤلاء الحجاج بعد وصولهم إلى شواطئ مدينة يافا، وأمرته بإعداد الأمكنة اللازمة لاستقبالهم في إحدى الأماكن التابعة للكنيسة الروسية، وعلى اعتبار أن مسألة الإشراف على الأماكن المقدسة الخاصة بالكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، والاهتمام بها كانت تقع على عاتق روسية القيصرية، فقد تلقى بازيلي أمراً بالإشراف على هذه الأماكن واتباع ما يلي:

١- إعلام سفارة روسية في القسطنطينية فوراً عن كافة التجاوزات والخروق التي يمكن أن تحصل أو تقع ضدّ الروم الأرثوذكس، والأماكن المقدسة التابعة لهم في بيت المقدس بشكل خاص، وفي بلاد الشام بشكل عام.

٢- إعلام السفارة الروسية في القسطنطينية، وكذلك القنصل الروسي في الإسكندرية، بأوامر السلطان العثماني التي تتناول السكان المسيحيين الروم الأرثوذكس ورجال الدين الأرثوذكس.

٣- إخبار الحكومة القيصرية فوراً عن كافة الخلافات والمشاكل التي يمكن أن تحصل بين الكنائس المسيحية في بلاد الشام.

٤- دعم وتأييد كافة المطالب العادلة والقانونية للسكان الأرثوذكس لدى الحكومة في بلاد الشام(٣٩). وبذلك تكون حكومة روسية القيصرية قد أخذت على عاتقها مسألة حماية الطائفة الأرثوذكسية في بلاد الشام، وجعلت من هذه المسألة السبب المباشر لتدخلها في بلاد الشام، بعد أن عجزت عن تنفيذ سياساتها، كما رأينا بسبب معارضة انكلترة والدول الغربية الأخرى لها في حرب الشام الثانية. وقد جاءت هذه السياسة من قبل سانت بطرس بورغ، كرد على زيادة نفوذ الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية في بلاد الشام، من خلال البعثات

التبشيرية الفرنسية والإنكليزية والأمريكية فيها. بعد عام ١٨٤١م، حاولت القنصليات الروسية في بلاد الشام إثر عودة السيطرة العثمانية عليها، استغلال بعض الخلافات التي وقعت بين المسيحيين والمسلمين بتحريض من الدول الأوروبية، ولجوء جماعات من المسيحيين للاحتماء بالعلم الروسي من أجل تعميق سياساتها من جديد في المنطقة، وبررت روسية تدخلها السياسي إلى جانب المسيحيين، بأن السلطنة العثمانية كانت السباقة إلى طلب المساعدة من القنصليات الأوروبية الأخرى، وبالتالي فمن حقها حماية الطائفة الأرثوذكسية داخل الإمبراطورية العثمانية.

وتحولت سواحل بلاد الشام بشكل عام، ولبنان بشكل خاص، إلى ساحة تتنافس فيها وتتصارع التيارات المسيحية المختلفة. رجال الكهنوت الخائف من نوايا التبشير البروتستانية الإنكليزية، والبروتستانية التي أخذت تبحث لنفسها عن مكان وسط إحدى الطوائف التي يمكن أن تتقبل أفكارها.

في هذه المرحلة، أخذ الموارنة يعيدون إلى أنفسهم الفضل في طرد قوات إبراهيم باشا من بلاد الشام، وراحوا يتزينون بالسلاح الموزّع عليهم من قبل الحلفاء، في وقت لطّخت فيه المفارز العسكرية العثمانية المنطقة بكل أنواع المساوئ والممارسات القبيحة على عادتها المألوفة. وبدأت دسائس المبشرين، الذين كانوا قد حلّوا في بيروت وأخذوا يبثّون بذور الفرقة والخلاف بين الكنائس المسيحية على أرض لبنان، ومناطق بلاد الشام الأخرى، واجتذاب الناشئة إلى مدارسهم. لكن الوضع اتخذ منحى آخر بعد خروج القوات الإنكليزية من الشواطئ السورية بعد عام ١٨٤١، وبقاء سرية إنزال في بيروت، خرج منها ثلاثون ضابطاً في كل الاتجاهات لإعداد دراسة وافية عن بلاد الشام وتقديمها إلى حكومتهم في لندن، وراحوا يبذلون كل جهد للقضاء على النفوذ الفرنسي القائم على إخلاص الموارنة العجيب لهم، في وقت تابع فيه عملاء فرنسة لعب دورهم، وممارسة ألاعيبهم، في تأجيج التعصب الديني لدى الكاثوليك. فأمر

ـطريرك الماروني بحرق المبشرين البروتستانتيين والكتب الصادرة عنـــهم باللغـــة العربيه في ـ ہ ت[٤٠].

ساعدت المجاعه التي ـ ـها لبنان عام ١٨٤١م الفرنسيين على تكريس نفوذهـــم لدى المسيحيين الموارنة، الأصدقاء التقليديين لفرنسة، من خلال توزيع الغذاء المجاني الذي قدمته فرنسة لهم وزادت من حقد الموارنه على الدولة العثمانية، والإنكليز علـــى حد سواء. في حين أخذ الدروز في هذه المرحلة يسعون من خـــلال تـأييدهم للدولـــة العثمانية، إلى إعادة السيطرة على المسيحيين، من خلال النظام الإقطاعي، وفـــرض الضرائب عليهم، مستغلين وجود كميات كبيرة من السلاح في أيديهم، كـــانت الـــدول المتحالفة قد وزّعتها عليهم لمقاومة جيش إبراهيم باشا أثناء حـــرب الشـــام الثانيـــة، وأخذوا يبحثون عن سند خارجي يعتمدون عليه في الوصـــول إلـــى تحقيـــق هدفـــهم هذا[٤١].

في هذه الأثناء كانت انكلترة قد انتهت من إنشاء مركز ديني بروتستانتي في بيـــت المقدس، فأخذ الدروز يكشفون عن ميل نحو المبشرين البروتستانتيين، وأعربوا عـــن استعدادهم لمساعدة المبشرين البروتستانتيين في الجبال اللبنانية، الأمر الذي أدى إلـــى حدوث بعض الاحتكاكات بين الموارنة والدروز. لكن الوجه الحقيقي للمســـألة، كـــان يعود بالدرجة الأولى إلى التنافس الاستعماري الإنكليزي الفرنسي على لبنـــان وبـــلاد الشام بأكملها.

مع ازدياد التنافس الفرنسي الإنكليزي، بدأت الاشتباكات المســـلحه بيـــن ـــر ہ ر والموارنة في بلدة دير القمر، وتحرك موارنة الشمال نحو بلدة الشويفات التي يقطنـــها الدروز، بالإضافة إلى الأرثوذكس الذين قرروا عدم الاشتراك في الحرب بأي شـــكل من الأشكال، فأقسم الموارنة في فورة تعصبهم الديني الأعمى، على إباحة كنيسه سيده الشويفات، مجبرين بذلك الأرثوذكس إلى الدخول في هذه الحرب الهوجاء.

أخذت الحرب الطائفية في جبل لبنان اتجاهاً أكثر تفاقماً وخطورة، عندما كان القائد الدرزي شبلي العريان المعروف باسم سيف الدين يتجه نحو زحلة، بعد أن انضمت إليه مجموعات من المقاتلين في منطقة وادي التيم، راسماً طريقه في وادي البقاع، بجثث المسيحيين المقطعة الرؤوس. فسارع القنصل الروسي العام في بيروت بازيلي إلى إرسال تقرير إلى وزارة الخارجية الروسية في سانت بطرس بورغ، يخبرها فيه بالأسباب الحقيقية لهذه الحرب والجهات الخارجية التي تقف وراءها ثم قام بوضع خطة سياسية لإنهاء هذا الخلاف ومصالحة الطائفتين، وقد تضمن تقريره الأسباب التالية:

١- تآمر السلطات العثمانية التي عادت تتحكم من جديد في بلاد الشام، وتسترها على الكنيسة المارونية، ورضاها التام على اقتتال القوى المعارضة لها في بلاد الشام طالما أن ذلك سيؤدي في النهاية إلى إضعاف هذه القوى وزيادة الهيمنة العثمانية على المنطقة.

٢- الشائعات المغرضة التي بثّها المبشرون الفرنسيون وسط الطائفة المارونية والكهنة. ومحاولات فرنسة الاعتماد على الموارنة في الحفاظ على نفوذهم في بلاد الشام بعد القضاء على دولة حليفهم محمد علي باشا.

٣- تأييد فرنسة والنمسة الكبير للموارنة، وتقديم كافة أشكال الدعم اللازمة الاقتصادية والعسكرية والسياسية لهم.

٤- تأييد انكلترة وبعض الجهات الأخرى، للدروز وتقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية، ودعم موقفهم لدى الدولة العثمانية[٤٢].

بعد وصول هذا التقرير إلى سانت بطرس بورغ، كلفت وزارة الخارجية الروسية بازيلي بالتدخل والعمل على وقف هذه الحرب. وقد وصلته هذه الأوامر بينما كان يتفاوض في دمشق مع السلطات العثمانية من أجل حماية المسيحيين، في حال امتداد

هذه الحرب إليها. فتوجه وبرفقته مفرزة من الخيالة إلى زحلة، وظهر بشكل مفاجئ في معسكر شبلي العريان وأجبره على عقد اتفاق مصالحة، والتراجع عن مدينة زحلة، وأصرّ على ضرورة تعيين زعيم مسلم على لبنان، على أن يكون من غير اللبنانيين. وفي سبيل ضمان سلامة سكان زحلة من المسيحيين الأرثوذكس وبمسعى من بازيلي نفسه، جهز الأمير خنجر حرفوش من بعلبك، فصيلة من المتطوعين للدفاع عن زحلة في حال الهجوم عليها مرة ثانية(٤٣).

بعد ذلك توجه بازيلي إلى بيروت، واجتمع مع قناصل فرنسة والنمسة وبروسية وانكلترة في ٨ تشرين الأول للبحث عن حل للأزمة اللبنانية، وبعث بنداء إلى الباشا العثماني في دمشق سليم باشا طالبا منه التحرك على رأس مفرزتين من قواته إلى الجبال اللبنانية. إلا أنه رفض ولم تدخل القوات العثمانية هذه الجبال، إلا بعد أن تمكن الدروز من السيطرة على المناطق الجنوبية من لبنان. عندها دخلت القوات العثمانية بلدة دير القمر واستقبلها المسيحيون كمنقذة لهم، وعينت السلطات العثمانية حاكماً مارونياً على الموارنة هو حيدر أبي اللمع، والأمير أحمد أرسلان حاكماً على الدروز في الجبل، بعد وصول المساعدات الاقتصادية الجديدة إلى الموارنة من النمسة، التي وظفها الكهنوت الماروني لشراء السلاح، وتولت اللجنة السرية في دير القمر تغطية هذا الأمر. عادت الحرب الأهلية من جديد إلى الجبال اللبنانية عام ١٨٤٥م فتدخلت الدول الأوروبية وتمكنت من إنهائها بالاتفاق مع الدولة العثمانية بعيداً عن روسية. والدبلوماسية الروسية في هذه المرحلة.

خلال هذه المرحلة، أقام بازيلي علاقات طيبة مع زعيم الكنيسة الأرثوذكسية في بيت المقدس، حيث قاما بجمع كافة المخطوطات العربية المتعلقة بالعقيدة الأرثوذكسية. في نفس الوقت الذي كان فيه بازيلي يتابع مهمته الدبلوماسية، جمع معلومات هامة جداً عن البلاد والأوضاع الاقتصادية فيها من تجارة وزراعة وصناعة، بالإضافة إلى طبيعة العلاقات الدينية فيها وحالة القوات العثمانية فيها. وكانت وزارة الخارجية

الروسية تتسلّم منه بشكل منتظم تقارير حول الأوضاع السياسية والاقتصادية وأشياء أخرى، وفيما يلي أهم التقارير التي بعثها بازيلي:

١- تقرير خاص ومختصر عن التجارة الخارجية في بلاد الشام عام ١٨٤١م

٢- إحصاءات تتعلق بالطوائف الدينية في بلاد الشام واتجاهاتها عام ١٨٤١م

٣- أفضل التجارب الدينية والروحية في بلاد الشام ١٨٤٢م

٤- العلاقات التاريخية والسياسية لبلاد الشام تحت الحكم العثماني ١٨٤٨م[٤٤].

٧ ـ البعثة الروحية الروسية إلى بيت المقدس ومشكلة مفاتيح بيت لحم المجلس الفلسطيني ـ لجنة الخارجية الروسية.

بعد حرب الشام الثانية، والفشل الكبير الذي منيت به الدبلوماسية الروسية، ونجاح الدول العظمى وخصوصاً انكلترة، في إبعاد روسية القيصرية عن المشاركة الفعالة في حل المشاكل السياسية العالقة في الشرق، قررت الحكومة القيصرية تغيير أسلوبها في التعامل مع قضايا المنطقة، واعتماد الطريقة التي سلكتها الدول الأوروبية الأخرى، وذلك بالاعتماد من جانبها على البعثات التبشيرية الأرثوذكسية، وتفعيل دور الكنسية الروسية في الأرض المقدسة.

في عام ١٨٤٣م، أرسلت الكنيسة الروسية المقدسة المطران بارفيري أوسبينسكي بشكل سرّي إلى بيت المقدس، تحت ستار أداء فريضة الحج، وكلفته بمهمة سرية تتعلق بعمل الكنيسة الأرثوذكسية في بيت المقدس، وبعد وصول بارفيري إلى بيت المقدس، عادت الكنيسة الروسية وكلفته بمهمة التوجه إلى دمشق والالتقاء مع بطريرك إنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس، حيث طلب إليه البطريرك إبلاغ مجلس السينود المقدس في سانت بطرس بورغ، بضرورة إنشاء المدارس الأرثوذكسية في دمشق وبيروت واللاذقية وحمص وإنطاكية وأضنة، على أن يتعهد المسيحيون

الأرثوذكس المحليون مسألة إقامة الأبنية اللازمة لذلك، بتمويل من حكومة روسية القيصرية. وافقت الحكومة الروسية على اقتراح البطريرك بعدما نقله بارفيري إليها، وسمحت لمندوب بطريركية إنطاكية وسائر المشرق بالتوجه إلى روسية القيصرية، وجمع التبرعات لصالح البطريركية التي اتخذت من دمشق مقراً لها(٤٥).

كانت أولى المشاريع التي نتجت عن التعاون الروسي مع بطريركية إنطاكية وسائر المشرق، افتتاح مدرسة للذكور في عام ١٨٤٦م في دمشق، دُرّست فيها اللغات العربية واليونانية والعثمانية والايطالية والروسية. وعلم اللاهوت المسيحي الأرثوذكسي، وتمت تغطية نفقاتها من قبل الحكومة الروسية، والتبرعات التي جمعت في روسية. ثم افتتحت مدارس أخرى في وقت لاحق في العديد من مدن بلاد الشام، وأصبحت تطبع الأدبيات الأرثوذكسية(٤٦).

في مطلع عام ١٨٤٧م، وبعد ثلاثة أعوام قضاها متجولاً في بلاد الشام، أرسل بارفيري تقريراً إلى البطريركية الأرثوذكسية الروسية، وطلب فيه إرسال بعثة روحية روسية دائمة إلى بيت المقدس، تتولى مسألة خدمة المصالح الروسية في بلاد الشام، والدفاع عن حقوق الحجاج الروس، والإشراف على كافة الكنائس والمعابد الأرثوذكسية في الأرض المقدسة (فلسطين)(٤٧).

بناء على تقرير بارفيري هذا، أمرت البطريركية الأرثوذكسية الروسية بتشكيل البعثة الروحية الروسية إلى بيت المقدس، ووصل أعضاؤها إلى القدس في ١٧ شباط عام ١٨٤٧م، وتكونت من المطران بارفيري نفسه رئيساً وعضوية الراهب غوفاروف، والتلميذين كريلوف وصيلافيوف.

بدأت البعثة الروحية الروسية ممارسة نشاطاتها المختلفة في أنحاء بلاد الشام، وقام المطران بارفيري في عام ١٨٤٨م بنقل اقتراح تقدم به الرحالان الروسيان نورف وموارفيوف أثناء زيارتهما للأرض المقدسة يقضي بإنشاء مجلس عموم روسية غير

الحكومي لدعم الأرثوذكس والأرثوذكسية في بلاد الشام إلى البطريركية الروسية في سانت بطرس بورغ. غير أن وزارة الخارجية الروسية في الأرض المقدسة تخوفت من أن يحدث مثل هذا الاقتراح نوع من الخلط، والتناقض في الدبلوماسية الروسية في الأرض المقدسة، وبالتالي فقد نصح القيصر نيقولاي الأول البطريركية، ووزارة الخارجية بضرورة إعادة دراسة هذه الفكرة، والتأكد من مدى أهميتها وجديتها بشكل أكبر قبل الموافقة عليها أو رفضها. وانتهى الأمر أخيراً بتأجيل الفكرة إلى وقت لاحق[٤٨].

في عامي ١٨٥٢ ــ ١٨٥٣م أقيمت في دمشق، ثم في بيت المقدس دارين للطباعة لإصدار الكتب الدينية الأرثوذكسية، باللغتين العربية واليونانية، في حين قام المطران بارفيري بإجراء جملة من البحوث الدينية في كنيسته القريبة ياكاترينا (أو ــ كاترينا) في سيناء، وبدأ عمله بدراسة نصوص الإنجيل المكتوبة باللغة اليونانية في القرن الرابع، (نقلت هذه النصوص عام ١٨٦٥م إلى سانت بطرس بورغ لمتابعة عملية دراستها، وفي عام ١٩٣٣م بيعت من قبل الحكومة الشيوعية للحكومة البريطانية بمبلغ قدره ١٠٠ ألف جنيه استرليني وما تزال موجودة حتى الآن في المتحف البريطاني)، كما استمرّ بارفيري في متابعة مهمة رئاسة البعثة، والعناية بالحجاج الروس والأرثوذكس، وتأمين السكن والحماية، وكافة الخدمات القنصلية لهم[٤٩].

في عام ١٨٥٣م، أعلمت البعثة الروحية الروسية في بيت المقدس الحكومة الروسية، بأن السلطات العثمانية أعطت مفتاح الكنيسة المقدسة في بيت لحم للكنيسة الكاثوليكية بحيلة دبّرتها فرنسة، في حين درجت العادة والعرف أن يشرف الروم الأرثوذكس عليها، ويمتلكوا مفاتيحها. عندها طلبت الحكومة الروسية من الدولة العثمانية بشكل رسمي إعادة الحق الأرثوذكسي في امتلاك مفاتيح الكنيسة المذكورة. غير أن السلطان العثماني رفض الطلب الروسي، فأرسلت الحكومة الروسية بدورها الكنياس مينشيكوف بمهمة رسمية إلى القسطنطينية في محاولة منها لحل هذه المشكلة

بالطرق الدبلوماسية، لكن مينشيكوف فشل في إقناع السلطان العثماني في إعادة امتلاك مفاتيح الكنيسة المقدسة. وبناء على ذلك قطعت الحكومة الروسية علاقاتها مع الدولة العثمانية، وتحولت مشكلة ملكية المفاتيح من مجرد مشكلة دينية إلى قضية سياسية كبرى، وأوعزت الحكومة الروسية إلى القنصل العام في بلاد الشام قسطنطين ميخائيلوفتش بازيلي، الذي كان يتخذ من بيروت مقراً له بإنزال العلم الروسي عن القنصلية، والتوجه إلى إيطالية، ومنها إلى روسية. كما تم استدعاء المطران بارفيري أوسبينسكي إلى روسية، وبذلك قطعت روسية في هذه المرحلة علاقاتها مع الشرق وبدأت حرب القرم بينها وبين الدولة العثمانية التي استمرت طيلة ثلاث سنوات ١٨٥٣ ــ ١٨٥٦م، وتوسعت خلالها بشكل لم يسبق له مثيل الدعاية الكاثوليكية، وانتشر مبشرو الكاثوليكية في كل مكان من بلاد الشام، وظهرت في فلسطين مجموعات (أخوات رحمة السيد المسيح مريم) و (أخوات النبي يوسف).....الخ[٥٠].

بعد انتهاء حرب القرم عام ١٨٥٦م، عادت البعثة الروحية الروسية إلى بيت المقدس برئاسة المطران بارفيري أوسبينسكي، الذي تمكن خلال السنوات ما بعد عام ١٨٥٦م، من متابعة مهمة أبحاثه ودراساته والإشراف على أمور الطائفة الأرثوذكسية، وأرسل إلى روسية مجموعات كبيرة من الكتب والمخطوطات القيّمة المكتوبة باللغات العربية واليونانية والأثيوبية والجورجية والسلافية ولغات أخرى، وضعت في أكاديمية العلوم الروسية، والمكتبة القيصرية للعلوم الإنسانية في سانت بطرس بورغ. بالإضافة إلى ذلك، فقد تمكن بارفيري من جمع وإرسال مجموعة متميزة من الأيقونات القديمة، نقلت إلى مدينة كييف، انتقاها من الكنائس والأديرة المنتشرة في أنحاء مدن بلاد الشام. في عام ١٨٥٧م، ازداد عدد المبشرين الأرثوذكس من الروس ليصل إلى ٨٠٠ مبشر. وبهدف تسهيل مهماتهم وتنقلاتهم في بلاد الشام قامت الحكومة الروسية بإنشاء خط اتصال بحري يصل بين مدينتي أوديسة على البحر الأسود، وحيفا في فلسطين. في حين قررت وزارة الخارجية الروسية رفع مستوى

التمثيل الدبلوماسي الروسي في فلسطين نظراً لعودة البعثة الروحية إليها، وقامت بافتتاح القنصلية الروسية في بيت المقدس عام ١٨٥٨م. كما تمّ تأسيس قسم جديد في وزارة الخارجية الروسية أصبح يعرف باسم قسم فلسطين، وكانت مهمته الأساسية البحث عن مصادر تمويل جديدة توظّف لزيادة وتوسيع النفوذ السياسي والديني الروسي في بلاد الشام، وزيادة وتفعيل دور روسية في الأرض المقدسة، والتخفيف قدر المستطاع من انعكاسات حرب القرم على هذه المنطقة بشكل عام(٥١).

خلال فترة زمنية وجيزة، بين نهاية حرب القرم، وعودة البعثة الروحية الروسية لم تتجاوز الثمانية أشهر تمكنت الكنائس والأديرة الروسية ورجال الأعمال الروس من جمع أكثر من مليون روبل من مختلف أنحاء روسية، حوّلت إلى البعثة الروحية الروسية في بيت المقدس، عن طريق المجلس الجديد الذي أسس في سانت بطرس بورغ، وأصبح يعرف باسم المجلس الفلسطيني، وذلك من أجل شراء الأراضي اللازمة لإقامة الأبنية واستقبال البعثات التبشيرية الروسية وبعثات الحجاج إلى الأراضي المقدسة. لكن المجلس الفلسطيني واجه مشكلة معقدة، تتمثل في أن القوانين الخاصة في الدولة العثمانية لم تكن تسمح للروس بامتلاك الأراضي والعقارات داخل الولايات التابعة للدولة العثمانية، فتوجه رئيسه قسطنطين نيكولايفتش في علم ١٨٥٩م إلى الأراضي المقدسة واشترى بالأموال التي جمعت مساحة كبيرة من الأرض في بيت المقدس، تمتد من بوابة دمشق حتى ساحة الميدان، والتي تعرف الآن بالساحة الروسية. وتمكن قسطنطين نيكولايفتش من تسجيلها لصالح البعثة التبشيرية الروسية في فلسطين. وفي عام ١٨٦٠م، بدأت عملية بناء معبد القديسة الكساندرا، ومعبد القديسين الثلاثة وبيت مكوّن من طابقين للبعثة التبشيرية الروسية، وبيوت أخرى للمبشرين الروس(٥٢).

خلال سنوات ١٨٦٣ ـ ١٨٦٥م، تولى الأرخيماندريدليونيد(كافيلين) مهمة رئاسة البعثة التبشيرية الروسية، وأشرف على بناء كاتدرائية مقابل بوابة يافا ومكان لإقامة

الرهبان والمتعبدين، وبيوت للدبلوماسيين، وأربعة بيوت أخرى في حيفا والرملة ويافا والناصرة. وفي عام ١٨٦٤م وبدعم من القيصر الروسي ألكسندر الثاني، تم إنشاء لجنة فلسطين في وزارة الخارجية الروسية، عوضاً عن المجلس الفلسطيني، وأُوكلت إلى هذه اللجنة مهمة الاستمرار في عملية شراء الأراضي، وبناء الكنائس والمستشفيات ومنازل للفقراء، بالإضافة إلى مسألة الإشراف على دراسة تاريخ سورية ومصر[٥٣].

في عام ١٨٦٥م، بدأ النشاط الفعال والمؤثر للمطران أنطونين، الذي عيّن رئيساً جديداً للبعثة التبشيرية الروسية. وفي عهده بدأت تظهر بعض مظاهر الخلط بين البعثة التبشيرية الروسية من جهة والبعثة الدبلوماسية الروسية من جهة أخرى، حيث سعت الخارجية الروسية إلى تشكيل ضغط سياسي على البعثة التبشيرية فيما يتعلق برعاية الحجاج ومساعدة الأرثوذكس العرب واليونانيين. غير أن البعثة التبشيرية استمرت في ممارسة نشاطاتها في فلسطين، في وقت تعاظم فيه مرة أخرى اهتمام روسية السياسي في فلسطين وبلاد الشام، وقد ارتبطت عملية تزايد النفوذ الروسي هذا بتسليم نيقولاي بافلوفتش أغناطيوف سفيراً لروسية القيصرية في القسطنطينية، خلال سنوات ١٨٦٤ ـ ١٨٧٦م، والمتخصص بالسياسات الإنكليزية في الشرق. وكان أغناطيوف قد توصل إلى اعتقاد مفاده أن انكلترة هي العدو الرئيسي لروسية القيصرية في الشرق، وأنه يمكن لروسية حلّ مشاكلها في المنطقة والبلقان عن طريق ضرب الإنكليز في مستعمراتهم الآسيوية[٥٤].

خلال فترة عمله سفيراً لبلاده في القسطنطينية، قام أغناطيوف بتشكيل شبكة تجسس كبيرة، وقدم له مسيحيو الشرق من أرمن ويونان وأرثوذكس معلومات قيّمة مقابل تقديم الحماية والأموال اللازمة لهم، حتى أن بعض الموظفين من العثمانيين كانوا يقدمون له الوثائق السرية اللازمة، التي كان يكلف بالعمل على الحصول عليها، نظراً لأهميتها الكبيرة. لكن نشاطاته كانت في بلاد الشام عموماً، وفي فلسطين

خصوصاً، من خلال تعاونه مع القنصل الروسي في بيت المقدس، أندري نيكولا يفتش كارتسوف. وحققت الدبلوماسية الروسية بتعاونهما نجاحات كبيرة خلال تلك الفترة في فلسطين.

بقي أن نشير إلى أن أندري نتكولايفتش كارتسوف كان قد عمل في قسم آسية التابع لوزارة الخارجية الروسية، في الوقت الذي كان فيه أغناطيوف مديراً لهذا القسم. وقد لعب كارتسوف دوراً كبيراً في توجيه السياسات الروسية المتبعة في فلسطين خلال أعوام السبعينات، من القرن التاسع عشر خصوصاً عندما تضاربت مصالح واهتمامات الروم الأرثوذكس مع مصالح اللاتين، وأدى ذلك إلى تعارض اهتمامات الإمبراطورية الروسية مع فرنسة، وبفضل حنكة كارتسوف انتهت مسألة الخلاف حول السيادة على كنيسة مدفن السيد المسيح، بحيث وضع قسم من هذه الكنيسة تحت إشراف اليونان، في نفس الوقت الذي كان فيه للكاثوليك الحق في ممارسة عقائدهم الدينية، وصلواتهم في هذه الكنيسة أثناء احتفالاتهم بأعيادهم الدينية، وذلك بعد الحصول على موافقة من اليونان الأرثوذكس. وفي عام ١٨٦٥م، بدأت فرنسة وروسية بإعادة بناء كنيسة مدفن السيد المسيح، وتولى الإمبراطور إلكساندر الثاني ونابليون الثالث مسألة الإشراف على ذلك وتمكن كارتسوف من بناء علاقات طيبة مع أكثر من طرف، وكانت تربط علاقات جيدة مع بطريارك القدس كيريل، والقنصل الفرنسي فيها دي باريرا. ومن خلال تعاونه مع البطرياك كيريل، استطاع تقديم المساعدات والدعم اللازم للمسيحيين العرب، وأشرف على الكنائس الروسية والبيوت والمنشآت التابعة لها في القدس والرملة وحيفا.

الهوامش

1- Новая история стран зарубежной Азии и Африки Изд. Ленинградский Униберс. 1971 с. 120-181.

2- Там же с. 181.

٣- أنظر تفاصيل حملة نابليون في **أسرار حملة نابليون على مصر** ـ حسني أدهم جرار ـ دار الضياء، عمان ١٩٩٠

العسلي بسام: **نابليون بونابرت**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨٠.

4- JC. Hurewitz Diplomacy in the Near and Middle East. London 1956. Vol. I. P. 65.

5- **Ibid**. p.66 — 67.

6- **Ibid**. p.75 — 76

7- Новая история стран зарубежной Азии и Африки. с. 156.

8- J.C.Hurewitz. **Op.Cit**. P.7 — 72.

٩- دريو ادوارد: **تاريخ اليونان السياسي**، الجزء الأول، باريس ص ١٩١.

9- Новая история стран зарубежной Азии и Африки. с. 158.

10- Там же с. 159.

١١- الرافعي بك عبد الرحمن: **عصر محمد علي**، الجزء الثالث، مطبعة النهضة ١٩٤٩ ص ٢١٤.

شبلي أحمد: **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، مكتبة النهضة المصرية، الجزء الخامس ص ٤٠٥ ــ ٤٠٦.

١٢- الرافعي بك عبد الرحمن: **المرجع السابق**، ص٢٢٤.

١٣- الغنام سليمان بن محمد: **قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية ١٨١١ ــ ١٨٤٠م في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا**، الطبعة الرابعة ١٩٩٠م/ ص٧٢.

14- Новая истории стран зарубежной Азии и Африки. с. 160.

١٥- يانج جورج: **صفحات من تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية عهد إسماعيل**، ترجمة أحمد علي شكري، القاهرة ١٩٩٠/ ص ١٦٦.

16- К.Маркс. Ф. Энгельс Сочинение. Т 9. с. 32.

17- Новая истории стран зарубежной Азии и Африки. с. 162.

١٨- بازيلي: **سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية** ترجمة د. ميسر جابر و د. منذر جابر، دار الحداثة، الطبعة الأولى ١٩٨٨م/ ص ١٦٢ ــ ١٦٣.

١٩- **المصدر نفسه** ص ١٦٤ ــ ١٦٥.

٢٠- **المصدر نفسه** ص ١٦٥.

21- Новая история стран зарубежной Азии и Африки. с. 162

22- J.C.Hurewitz. **Op.Cit.** p.106.

23- Новая история стран зарубежной Азии и Африки. с. 163.

24- J.C.Hurewitz. **Op.Cit.** p. 107

25- Сирия. Ливан и Палестина в описаниях российских путешественников, консульских и военных обзорах первой половины XIX в. М. Наука. 1991. с. 168.

26- J.C.Hurewitz . **Op.Cit.** p. 105 – 106

27- Сирия. Ливан и Палестина... с. 169.

28- Там же с. 174, 175.

29- Губор А. А. Новая история стран зарубежного Востока. М. 1961. с. 114.

30- Новая история стран зарубежной Азии и Африки. с. 184.

31- Там же с. 185.

٣٢- حسين أحمد: **موسوعة تاريخ مصر**، الجزء الثالث، دار الشعب، ص ٩٦٩.

33- J.C. Hurewitz. **Op.Cit.** p. 112 - 113.

34- J.C. Hurewitz. **Op.Cit.** p. 113.

٣٥- بازيلي: **المصدر السابق** ص ٢٧١.

٣٦- بازيلي: **المصدر نفسه** ص ٣١١.

٣٧- ولد بازيلي عام ١٨٠٩م في مدينة القسطنطينية، في عائلة يونانية مرتبطة بحركة التحرر الوطني اليونانية والألبانية. سنة ١٨٢١م حكم على والده ميخائيل فاسيليفيش بالموت شنقا لمساندته الحركة اليونانية، لكنه تمكن بمساعدة السفير الروسي الكونت ستروكانوف من الهروب من الدولة العثمانية والوصول إلى ميناء أوديسة. دخل بازيلي سنة ١٨٢٢م معهد العلوم العليا في (نجين) حيث أتقن اللغة الروسية، وارتبط بصداقات قوية مع بعض زملائه من طلاب المعهد مثل ن ف غوغول شاعر أوكرانية الكبير فيما بعد، و ي.غ غرينبكا الذي أصبح لاحقا أستاذا في الحقوق. وفي عام ١٨٢٧ التحق بازيلي في ليسيه (ريشيليو) في مدينة أوديسة وبعد تخرجه سنة ١٨٣٠م سافر إلى اليونان وعمل مترجما لدى قائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط الأدميرال ريكورد. وفي سنة ١٨٣٣م انتقل إلى العمل في وزارة الخارجية الروسية في سانت بطرس بورغ. وفي عام ١٨٣٩م عين بازيلي قنصلا في بيروت وبقي فيها حتى بداية حرب القرم بين روسية والدولة العثمانية عام ١٨٥٣م.

38- Сирия, Ливан и Палестина... с. 178.

39- Там же с. 179.

٤٠- بازيلي: **المصدر السابق**، ص ٣٦٢.

٤١- **المصدر نفسه**، ص ٣٦٣.

42- Сирия, Ливан и Палестина... с. 180

٤٣- بازيلي: **المصدر السابق**، ص ٣٧٣.

44- Сирия, Ливан и Палестина... с. 182.

45- Ставроу Т.Г. . Вейсенсель П.Р. Русские путешественники на Христианский Восток за период с XII по XX вв. М. 1986. с. 57.

46- Там же с. 184

47- Там же с. 184

48- Там же с. 185

49- Там же с. 186

50- Православный Палестинский сборник 1882-1992. 31-й вып. с. 4.

51- Ставроу Т.Г. . Вейсенсель П.Р. Русские путешественники... с. 62.

52- Там же с. 65.

53- Сирия. Ливан и Палестина ... с. 187.

54- Там же с. 188.

١١- ريجينكوف.ا.سماليسكايا: **سوريا ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مذكرات رحالة ـ تقارير علمية واقتصادية**، ترجمة يوسف عطا الله، بيروت، دار النهار ١٩٩٣م.

١٢- سالم لطيفة: **الحكم المصري في الشام** ١٨٣١ ـ ١٨٤١م، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٩٠م.

١٣- شبلي أحمد: **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية** الجزء الخامس، مكتبة النهضة المصرية.

١٤- صبري محمد: **صفحات من تاريخ مصر**، تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

١٥- عبير جميل: **قصة احتلال محمد علي لليونان ١٨٢٤ ـ ١٨٢٧م**، الهيئة المصرية العامة للمكتبات.

١٦- العسلي بسام: **نابليون بونابرت**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

١٧- عنان ليلى: **الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة** ـ القاهرة دار الهلال ١٩٩٢م.

١٨- كربتيس بيير: **إبراهيم باشا** ـ ترجمة محمد بدران، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٧م.

١٩- هيرولد كرستوفر: **بونابرت في مصر**، ترجمة فؤاد أندراوس، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٥م.

٢٠- يانج جورج: **صفحات من تاريخ مصر، تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية عهد إسماعيل** ترجمة علي أحمد شكري، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٠م.

ب- المصادر والمراجع الأجنبية (الروسية):

1- Архимандрид Антонин (Капустин). К 100-летию со дня кончины. Православная Русь. 1994. №6 (1507). 15/28 марта.

2- Березовский Н.Ю. и др. Российский императорский флот 1696 - 1917. Военно-исторический справочник. М. Русский Мир. 1993. с. 196.

3- Губор А.А. Новая история стран зарубежного востока. М. 1961.

4- Маркс. К., Энгельс. Ф. соч. т. 9.

5- Новая история стран зарубежной Азии и Африки. изд. Ленинградский Университет. 1971.

6- Полный православный богословский энциклопедический словарь. т. I.

7- Православный Палестинский сборник. 1882-1992. 31-й вып.

8- Российская Дипломатия в портретах.

9- Русская дипломатия и Российское Императорское Православное Палестинское Общество. Ежегодник. М. Межд. отн. 1992.

10- Сирия. Ливан и Палестина в описаниях Российских путешественников, консульских и военных обзорах первой половины XIX в. М. Наука. 1991.

11- Ставроу Т.Г. Вейсенсель П.Р. Русские путешественники на Христианский Восток за период с XII по XX век. М. 1986.

ج - المصادر باللغة الإنكليزية:

1- J.C. HUREWITZ. **Diplomacy in the NEAR AND MIDDLE EAST**. vol.1. London 1956.

من أوراق النشاط الصهيوني في العراق.. معلومات تنشر لأول مرة

«الجمعية الصهيونية في العراق ١٩٢١»

رغد صالح الهدلة

اتحاد المؤرخين العرب - بغداد

من أوراق النشاط الصهيوني في العراق.. معلومات تنشر لأول مرة

«الجمعية الصهيونية في العراق ١٩٢١»

عدّت الطائفة اليهودية في العراق من أقدم الطوائف اليهودية في العالم، ويرجع زمن الوجود اليهودي في العراق إلى عصور دول حضارة بلاد ما بين النهرين القديمة.

وهذا ما ميّز الطائفة اليهودية العراقية عن نظيراتها من الطوائف اليهودية في بلدان أخرى، غير أن أعداد اليهود في تلك العصور التالية لم تكن واضحة ومعلومة، بسبب عدم وجود إحصائيات رسمية وموثقة.

في العصر الحديث كانت بعض الإحصائيات لأعداد اليهود في مناطق متفرقة من العراق، تشير إلى أنه في عام ١٨٢٦م، كان يسكن مدينة الحلة/٢٥ خمس وعشرون أسرة يهودية مقابل عشرة آلاف أسرة مسلمة[١]، وفي عام ١٨٤٨م قدر عدد العوائل اليهودية الساكنة في بغداد بـ/٣٠٠٠ عائلة فقط ثلاثة آلاف[٢].

أما في العقد الثاني من القرن العشرين، فجاءت الإحصائيات أكثر دقة، حين أعلن عن تخمين رسمي عام ١٩١٩، بأن عدد اليهود في مدينة الحلة بلغ /١٠٦٥/ فقط ألفاً وخمسةً وستين شخصاً من بين /١٧٣٠٠٠/ مائة وثلاثة وسبعين ألف شخص يسكنون الحلة[٣].

ولكن رغم تلك التخمينات، فمن الصعب تحديد رقم دقيق لعدد اليهود في العراق.

وفي عام ١٩٢٠م بلغ المجموع السكاني للعراق /١,٧٥٤,٥٠٠/نسمة، أما عدد السكان اليهود فبلغ /٥٨/ ثمانية وخمسين ألفاً وذلك حسب تخمينات الإدارة البريطانية[٤].

والذي يبدو واضحاً، أن أدق إحصاء لعدد اليهود في العراق كان في عام ١٩٤٧م، عندما أجري إحصاء لسكان العراق، وهو يمثّل أول الإحصاءات الرسمية العراقية، إذ بلغ عدد اليهود في ذلك الإحصاء /١١٨/ مائة وثمانية عشر ألفاً، من مجموع السكان البالغ /٤,٥/ أربعة ملايين ونصف المليون نسمة(٥). ولكن هناك من يعتقد أن إحصاء عام ١٩٤٧م لم يكن دقيقاً بصورة كاملة، لأن الرقم الذي ذكر عن أعداد اليهود لم يكن دقيقاً، وإنما هناك زيادة حقيقية على الرقم المذكور، قدرت بـ /٢٠/ عشرين ألف نسمة(٦) على الأرقام الرسمية المعلنة.

إن الزيادة الحاصلة في أعداد اليهود فتحت أمامهم أبواباً واسعة لممارسة نشاطاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأدبية، وتعد فترة الاحتلال البريطاني للعراق ما بين (١٩١٤ ــ ١٩١٨) من أخصب فترات النشاط اليهودي، خاصة في المجال السياسي الذي طبع بطابع الصهيونية، وامتد ذلك النشاط حتى ما بعد قيام الدولة العراقية الحديثة عام ١٩٢١م.

ففي عام ١٩٢١م، تقدم أحد يهود بغداد، ويدعى "هارون ساسون إلياهو ناحوم"(*) بطلب إلى المندوب السامي البريطاني ببغداد، لتشكيل جمعية باسم "الجمعية الصهيونية" فحصل على موافقة بذلك بتاريخ ١٩٢١/٣/٥م(٧).

وعن ذلك يقول "هارون" إنه منح وكالة رسمية عن الجمعية الصهيونية في فلسطين لتشكيل جمعية صهيونية في العراق(٨).

وعن كيفية إرسال تلك الوكالة إلى "هارون" تبين أن وزارة المستعمرات البريطانية هي التي قامت بإرسالها عن طريق المندوب السامي في العراق(٩).

وعلى الرغم من وضوح هدف تشكيل الجمعية في خدمة التوجهات الصهيونية، إلا

(*) كان يلقب بـ (مو ه) أي المعلم.

أن "هارون" يشير إلى امتيازات شغله لمنصب رئيس الجمعية، بقوله: إنه عبارة عن مختار محلة فخزي بدون راتب، وإن طبيعة وظيفته تنحصر في تدقيق وتحقيق ما ينص عليه القانون الخاص بالهجرة، الذي وضعته المنظمة الصهيونية العالمية لتنظيم هجرة اليهود من بلدانهم إلى فلسطين(١٠).

بعد مرور أيام قلائل على تأسيس الجمعية المذكورة، أخذ "هارون" يدعو اليهود إلى الانضمام إليها، كاشفاً عن الوجه الحقيقي لمنظمته، مما دعا "هارون" إلى القول:

إن عملية انتساب اليهود إلى منظمته يعد انتصاراً للوحدة الصهيونية، فسارع اليهود إلى الانضمام لتلك الجمعية، الأمر الذي مكن "هارون" من تشكيل أول هيئة عامة للجمعية من هؤلاء اليهود، ويعد ذلك أول تشكيل تنظيمي رسمي للجمعية، فكانت على النحو التالي:

- هارون ساسون إلياهوناحوم ــ الرئيس
- داود نوري ــ سكرتير مجلس الانضباط العام ــ السكرتير
- أنور شاؤول ــ محامٍ ــ عضو
- عزرا حداد ــ مدير المدرسة الوطنية (يهودية) عضو
- سلمان مراد ــ بزاز ــ عضو
- هارون شوجبط ــ مدرس ــ عضو
- سلمان شينا ــ محامٍ ــ عضو

وفي هذا الصدد، نرى أن ما ذكر حول التشكيل الرسمي للجمعية، من قبل بعض الذين كتبوا في هذا الموضوع لم يكن دقيقاً وصحيحاً. حيث أن ما ذكره ــ صادق حسن السوداني في دراسته المعنونة بـ "النشاط الصهيوني في العراق ١٩١٤ ــ ١٩٥٢"(١١) عن صيغة تشكيل الهيئة لم يكن دقيقاً، وذلك بسبب اعتماده بشكل أساسي

وكبير على دراسة "حاييم كوهين"[*] التي ارتسمت بعدم الدقـــة، واختـــلاق روايـــات مزعومة.

إن تشكيل الهيئة المذكورة يعد نقطة انطلاق لعمل الجمعية، التي تابع مؤسســـوها وأعضاؤها العمل على ترغيب اليهود بالسفر إلى فلسطين، وتحريضهم على الـــهجرة إليها، وشراء الأراضي فيها، كما أن رئيس وأعضاء الجمعية، اخذوا يشـــتركون فـــي الجرائد والمجلات الصهيونية الأجنبية باسم "الجمعية الصهيونية العراقية"[١٢]. ومنـــذ ذلك الحين أخذت الجمعية تبث الفكرة الصهيونية في العراق باســـمها الصريـــح دون تمويه، أو التستر وراء اسم آخر. وفي ذلك يخطئ ـ السوداني ـ مرة أخرى، حيـــن يقول "إن الجمعية الصهيونية أثناء فترة الترخيص لـــها لـــم تعمـــل باســـمها الكـــامل والصريح بل تحت اسم لا يثـــير الشـــكوك والريـــب ألا وهـــو "الجمعيـــة الأدبيـــة الإسرائيلة"[**].

إن ما ذكره السوداني يستدعي التوقف بعض الشيء، ولا سيما قوله: إن الجمعيـــة الصهيونية بعد موافقة المندوب السامي عملت باسمها الصريح، وإن تسمية الجمعيـــة الأدبية الإسرائيلية، كانت تطلق على جمعية تأسست في عام ١٩٢٠ ـ ترأسها ضـــابط يهودي كان في عداد الشرطة البريطانية، يدعى "سلمان حيـــا" والـــذي اغتيـــل فـــي ١٩٢٠/١٢/١١، مما أدى إلى نشوب خلاف بين أعضـــاء الجمعيـــة حـــول أســـلوب إدارتها، فانفصلت مجموعة اكثر حماساً للفكرة الصهيونية واتجاهاتها، وتقدمت بطلـــب

---

[*] حاييم كوهين، النشاط الصهيوني في العراق، مترجم عن العبرية، مركز الدراسات الفلسطينية، بغـــداد ١٩٧٣.

[**] دراسته، ص٣٩ (للتفصيل، انظر: هشام فوزي حسني عبد العزيز، النشاط الصهيوني في العـــراق خلال فترة الانتداب البريطاني، مجلة دراسات تاريخية. تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب، جامعـــة دمشق، السنة العاشرة، العددان ٣١-٣٢، آذار ـ حزيران ١٩٨٩، ص٦٧).

إلى المندوب السامي البريطاني، فحصلت على موافقتـــه، فتشـــكلّت بذلـــك الجمعيـــة الصهيونية في بلاد ما بين النهرين، واستمرت بالعمل تحت ذلـــك الاســـم، موضـــوع بحثنا.

وبعد، فإن الإعلان الرسمي عن تشكيل أول هيئة للجمعية، مكّن الكثير من اليـــهود من الانضمام إلى الجمعية بعد اجتيازهم الشروط التـــي وضعتـــها الجمعيـــة لقبـــول الأعضاء الجدد وهي:[١٣]

١- يجب ان يكون يهودياً.

٢- أن يرشح من قبل عضوين اثنين.

٣- أن يقبل من أربعة أشخاص من الأعضاء القدامى.

وعليه فإن المنعطف الهام في حياة الجمعية الصهيونية، كان عنـــد قيـــام الحكـــم الوطني في العراق عام ١٩٢١، وتشكّل الحكومة العراقية، حيث لم يتـــم الاعـــتراف بالجمعية الصهيونية ولم تقبل بوجودها، بل أعلمت "هارون" نفسه بأن جمعيته لم تشكل حسب القانون في العراق ــ قانون الأحزاب والجمعيات ــ ولهذا فإن كل اشتغال بـــهذا العنوان معاقب عليه[١٤]. وأن الحكومة لا تعترف بأية جمعية قائمة من هذا القبيل ما لم يتم تشكيلها وفق قانون تأليف الجمعيات.

اتخذ تعامل الحكومة مع موضوع الجمعية شكلاً جدياً أكثر حين أخطرت "هـــارون" بأن كل أشغال أو أعمال تقع ضمن هذا العنوان من جانبكم يكون معاقباً عليها[١٥].

إلا أن هارون ساسون وجمعيته لم يتوقفوا عن ممارسة نشاطهم الصهيوني، حتـــى جاء عام ١٩٢٩م، الذي تمكنت فيه الجمعية الصهيونية من افتتاح "مدرسة الفـــردوس اليهودية" في محلة "تحت التكية" وسط بغداد، وتعد من أقدم المدارس اليهودية، وأصبح "هارون ساسون" مديراً لها بموجب أمر الإجازة الصادر من مديرية معارف منطقـــة بغداد برقم ٨٤٥/٧٨/٣ في ١٩٣٠/٣/١٥[١٦]. فاستغل "هارون" فترة إدارته للمدرســـة

المذكورة بعقد اجتماعات الجمعية الصهيونية في المدرسة بعد أوقات الدوام الرسمي.

وفي عام ١٩٣٠م تم إجراء انتخابات جديدة للجمعية الصهيونية وتشكلت هيئة إدارية جديدة أو هيئة الإدارة ــ فكانت على الشكل التالي:

- هارون ساسون الياهو ــ الرئيس.
- سلمان شينا ــ السكرتير.
- ساسون مراد ــ موظف في متصرفية لواء بغداد ــ عضو.
- داود نوري ــ عضو.
- مير بصري ــ موظف في مديرية البرق والهاتف ــ عضو.
- كرجي شينا ــ موظف ــ عضو.
- عبد الله شينا ــ مخمن في ضريبة الدخل في وزارة المالية ــ عضو.
- موسى أفندي ــ طبيب ــ عضو.
- حيوان زليخة ــ سكرتير سابق لوزارة الاقتصاد والمواصلات ــ عضو.
- موئير ــ صيدلي في مشفى المجيدية ــ عضو.
- فرايم ــ صيدلي ــ عضو.

وفي أوائل عام ١٩٣١م، ولأجل تفعيل نشاط الجمعية تم تشكيل فرع لها باسم جمعية "شيمش" وعين المدعو "حزقيل أفندي" ــ الذي كان قاضياً في المحاكم المدنية ــ رئيساً لها، وكان ذلك بأمر من "هارون ساسون" فأخذت جمعية "شيمش" بعقد اجتماعاتها في منطقة ــ التوراة ــ وهي محلة تحت التكية ببغداد. وحاول "هارون" أن يفتح مدرسة باسم الفرع المذكور، لتدريس أطفال اليهود، لكنه لم ينجح في ذلك، غير أن جمعية "شيمش" استطاعت بعد فترة أن تنشأ لها مكتبة أطلق عليها مكتبة "شيمش" في محلة بني سعيد ببغداد. ووكل "ناجي يعقوب" الساكن في نفس المحلة ليقوم بإدارتها، فأخذ التلاميذ اليهود في التردد على تلك المكتبة لقراءة الجرائد والكتب

العبرية، حتى استطاع "هارون" أن يعيين ثلاثة مدرسين يهود هم "يوسف توربيل"(*) و "سول شلايدر"(**) و "إسحق ياكو يونفيس"(***) للقيام بتلك المهمة، وتم وضع أجور تدريس للتلاميذ الراغبين بتعلم اللغة العبرية. تميزت تلك الأجور بكونها زهيدة جداً، وقسمت إلى فئتين:

الأولى /١٠ عشرة فلوس، والفئة الثانية /٢٠ عشرون فلساً، كان القصد ترغيب أكبر عدد ممكن من اليهود لتعلّم اللغة العبرية.

كما أن المدرسين في جمعية /شيمش/ كانوا يقومون بمهمة جمع إعانات مالية باسم الجمعية عن طريق التبرعات لإرسالها إلى "الكيرن كيمت" (جمعية الرأسمال اليهودي).

لقد جاء في دراسة السوداني ــ المذكورة أن الذي "يدخل الكنيس يجد نفسه أمام عدة صناديق بأسماء مختلفة، لكنها في الحقيقة تصب جميعاً في مصب واحد يهدف إلى تعزيز النشاط الصهيوني في فلسطين ــ ومن أسماء الصناديق المذكورة المترجمة إلى العربية، راحيل أمنا/ تعليم التوراة/ رني ميئر/ ربي شمعون/ بريوحاي/ إعانة الغرباء/ ساندي التوراة/ الفدية/ علم داود أورشليم (أي العلم الصهيوني)/ الرأسمال القومي اليهودي..."(١٧)

(*) يوسف توربيل بن ميرشماش، يهودي عراقي من مواليد بغداد، مهنته نجار، غادر العراق إلى فلسطين بدون جواز سفر سنة ١٩٢٤، وعاد إلى العراق سنة ١٩٣٣.

(**) سول شلايدر، بولوني الجنسية، درّس اللغة العبرية في مدرسة شيمش في بغداد، دخل العراق عن طريق سورية عام ١٩٣٣.

(***) اسحق ياكوبونفيس، تركي الجنسية، من مواليد أسطنبول، دخل العراق عن طريق إيران سنة ١٩٢١، درّس اللغة العبرية في مدرسة (الاليانس) في بغداد، حصل على الجنسية العراقية سنة ١٩٣٠.

وفي هذا الصدد أقول وتصحيحاً لما ذكره ـ السوداني ـ "إن **الحكومة قد** حذرت "هارون" من مغبّة الاستمرار في جمع الإعانات المالية، إلا أنه استمر **بالتحريض** على جمع الإعانات، حتى وضع/ ١٠ عشرة صناديق لجمع تلك التبرعات ولكنها توزعت في محل وجود أعضاء الجمعية وأماكن عباداتهم، وليس كما ذكر ـ السوداني ـ من أنها وضعت جميعها في كنيس واحد لتنفيذ مهمة جمع الإعانات، إلى درجة أن أكثر البيوتات اليهودية وضعت صناديق جمع الإعانات في بيوتهم وكانت كلها بالأسماء العبرية، ولا أعرف كيف استطاع ـ السوداني ـ أن يجعل اسم "بريوحاي" اسماً عربياً..

وهكذا بقي "هارون" صهيونياً متعدد النشاطات إلى أن هاجر من العراق عام ١٩٣٥م. بعد أن تم اعتقاله وإطلاق سراحه بكفالة، وبهجرة "هارون" لم يبق للجمعية الصهيونية التي أسسها في عام ١٩٢١م أي نشاط بينما استمر نشاط الجمعيات الأخرى، التي سيأتي الحديث عنها في أبحاث لاحقة.

الهوامش

١- يتسحاق أبيشور، **بحوث تاريخية عن اليهود العراقيين وثقافتهم**، منشورات مركز التراث اليهودي في بابل، إسرائيل، ١٩٨٢ (باللغة العبرية)، ص ٨٧.

2- ABBAS SHIBLAK, **The Lure of zion, The case of Iraqi Jews.** London, Al - Sagi Book, 1985. [21.

٣- يتسحاق أبيشور، **المرجع السابق**، ص ٩٥.

4- ABBAS SHIBLAK... p. 18. **Op Cit.** p 18

5- ABBAS SHIBLAK... **p. 18.**

6- ABBAS SHIBLAK... **p. 18.**

٧- **كتاب وزارة المعارف العراقية إلى وزارة الداخلية** ــ ذي الرقم س /٤٠ في ١٩٣٥/١/٢٤. (وثيقة لم تنشر).

٨- **نفس المصدر.**

٩- **المصدر نفسه.**

١٠- **نفس المصدر.**

١١- **دراسته**، ص ٣٦.

١٢- **كتاب شعبة التحقيقات الجنائية المركزية إلى وزارة الداخلية**، ذي الرقم ش.ح ١٦٤٨ في ١٩٣٤/١٠/١٠ (وثيقة لم تنشر).

١٣- **كتاب مديرية الشرطة العامة (العراق) إلى وزارة الداخلية**، ذي الرقم ش.ح

١٦٤٨ في ١٠/١٠/١٩٣٤.

١٤- **كتاب وزارة الداخلية، المكتب الخاص إلى متصرفية لواء بغداد،** المرقم م خ ٢٣٤ في ١٣/٢/١٩٣٥ (وثيقة لم تنشر).

١٥- **كتاب متصرفية لواء بغداد، إلى هارون ساسون،** ذي الرقم ٣٤٧٨ في ٢٨/٣/١٩٣٥ز (وثيقة لم تنشر).

١٦- **كتاب وزارة المعارف، تقرير مفتش المدارس الأهلية والأجنبية إلى وزارة الداخلية** ذي الرقم س/٤٠ في ٢٤/١٢/١٩٣٥. (وثيقة لم تنشر).

١٧- السوداني، **دراسته**، ص ٥٤.